

مَقَامَاتُ الْوَلَدَانِ

# شرح نهج البلاغة

شَرَّحَهُ عَصْرِيٌّ جَامِعٌ

بِسْمَاةِ آيَةِ اللَّهِ الْعُظْمَى  
الْشَيْخِ نَاصِرٍ مَكَامِرٍ الشَّيْرَانِي



الجزء الثامن

مِنْ خُطْبَاتِهِ ٢٠١ إِلَى ٢٤١

دار جواد الإيرانية

طبعة منقحة ومزودة





[www.haydarya.com](http://www.haydarya.com)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





سَمَاءُ حَمْدِ اللَّهِ الْعَظِيمِ الشَّيخِ نَاصِرِ كَارِمِ الشَّيْرِازِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ

# نَقَاتُ الْوَالِدِ

شَرْحُ عَصْرِ بِنَايِجِ لِنَهْجِ الْبَرَاءَةِ

مِنْ خُطْبَاتِ ٢٠١ إِلَى ٢٤١



الجزء الثامن

بمُساعدة مجموعة من الفضلاء  
إعداد: عبد الرحيم المصري

دار جواد الأئمة<sup>(ع)</sup>

**حقوق الطبع محفوظة للناشر**  
**الطبعة الأولى**  
**1432 هـ - 2011 م**

**دار جواد الأئمة (ع) للطباعة والنشر والتوزيع**

**بيروت - لبنان - حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور**

**ت: 73 73 13 / 03 - 12 29 69 70 00961**





٢٠١

## وَمِنْ كَلِمَاتِهِ تَبْلِيغًا لِلنَّبَاهِ

### يَعِظُ بِسُلُوكِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ

#### نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيرة إلى ثلاثة أمور مهمة تشكل كلّ واحدة منها جزءاً من هذه الخطبة:

١. إنها تدعو السائرين على طريق الحقّ إلى الثقة بالنفس بحيث وآلاً يشعروا بوحشة من هذا الطريق رغم قلّة سالكيه.
٢. أشارت إلى أصل اسلامي مهم وهو أنّ الرضا بأعمال الآخرين يجعل الإنسان شريكاً لهم في تلك الأعمال، وإن لم يكن له من تدخل في تلك الأعمال.
٣. يوصي بانتخاب طريق الحقّ الواضح والشفاف والبيّن من أجل الوصول

#### ١. سند الخطبة:

- نقل هذه الخطبة كثير من علماء الإسلام الذين عاشوا قبل وبعد السيد الرضي بشكل مرسل أو مسند، ويمكن ذكر أربعة أشخاص من الذين الذين عاشوا قبل السيد الرضي وهم:
- (أ) نقل أحمد بن محمد بن خالد البرقي في كتابه «المحاسن» قسماً من هذه الخطبة.
  - (ب) أوردها النعماني في كتابه «الغيبة» بسندين.
  - (ج) ذكرها الطبري من علماء الإمامية في كتاب «المسترشد».
  - (د) أوردها الشيخ المفيد في كتابه «الإرشاد».

إلى الهدف والحذر من سلوك الطرق المظلمة الملتوية التي تنتهي إلى الغي والضلال.



أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ  
اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شَبَعَهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ.  
أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرَّضَى وَالسُّخْطُ وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثُمُودَ  
رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرَّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا  
فَأُضْبِحُوا نَادِمِينَ»<sup>١</sup> فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُورَ السَّكَّةِ  
الْمُحَمَّاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ.  
أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي  
النَّيِّهِ!

## الشرح والتفسير

### سبيل النجاة

يواسي الإمام عليه السلام - في هذا الموضع العميق المعنى - السائرين على النهج أن لا  
يشعروا قلوبهم أدنى تردد بسبب قلَّة سالكيه، فيقول: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي  
طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ».

ثم يشير إلى تبرير ذلك فيقول: «فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شَبَعَهَا<sup>٢</sup>  
قَصِيرٌ، جُوعُهَا طَوِيلٌ». في إشارة إلى أن أهل الطريق القويم إن كانوا قلَّة فإنما يعزى  
ذلك إلى مغريات الدنيا، فقد شبه الإمام عليه السلام الدنيا في هذا الكلام العميق المعنى

١. سورة الشعراء، الآية ١٥٧.

٢. «شبع» على وزن «جعل» لها معنى مصدرى وتعني الشبع بصورة تامة.



بمائدة الطعام الغناء التي مُلئت بالأطعمة ذات القيمة القليلة أو العديمة القيمة من الناحية الغذائية؛ ولكنها زينت بالبهجة والزخرف، وقد اجتمع حولها طلاب الدنيا متناسين أن أطعمتها إنما تشبعهم لأمد قصير يتبعه جوع طويل.

ولعل هذا «الجوع الطويل» إشارة إلى الحزن والحسرة الأبدية التي تطال المتهافتين على الدنيا عند الموت وبعده وفي مشهد القيامة، ومدى الأسى الذي يعترهم على تقصيرهم في هذه الدنيا.

والواقع أن عبارة الإمام عليه السلام هذه العظيمة المعنى هي اقتباس من آيات القرآن الكريم، فقد جاء في الآية ١٠٠ من سورة المائدة: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ».

بالإضافة إلى الآيات التي تتحدث عن الأكثرية الجاهلة، عديمة الإيمان، غير العاقلة، الفاسقة، الجاحدة وأمثال ذلك.

ثم ذكر الأمر الثاني؛ الأمر الذي من شأنه حلّ الكثير من المسائل العقائدية والاجتماعية تكمن في أن الذي يميز الجماعات البشرية، الاتجاهات الفكرية ونوازع القلوب، وإن كانوا أفراداً معينين في ظرف معين؛ حيث ينضوي معهم كل من تضامن معهم فكراً وارتضاهم قلبياً.

قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرَّضَى وَالسُّخْطُ<sup>١</sup>».

وعليه فليس سبب الاشتراك في النتيجة مجرد الاشتراك في العمل أو إعداد مقدماته والإعانة على الإثم فحسب؛ بل يترتب هذا الاشتراك على الرضى القلبى، ومن هنا وردت صراحة هذه العبارة في الزيارة: «وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ»<sup>٢</sup>.

وقد مرّ علينا في الخطبة الثانية عشرة التي مضى شرحها في الجزء الأول أن

١. السخط، ضد الرضا بمعنى الغضب.

٢. زيارة الأربعين للإمام الحسين عليه السلام.

عليّاً عليه السلام لما سمع أحد أصحابه بعد معركة الجمل وقد تمنى أن يكون أخوه شهد معهم المعركة فيشترك معهم في تحقيق ذلك النصر. فقال له عليه السلام: «فَقَدْ شَهِدْنَا، وَ لَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَشْرِكِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَ أَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرَعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ وَ يَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ».

ولعل هذا الكلام يفتح لنا أفقاً جديداً في المطالعات الإسلامية ويحث الجميع على ضرورة مراقبة الروابط القلبية والرضى والسخط الباطني.

ويحظى هذا المطلب بدرجة من الأهمية بحيث أشارت إليه العديد من روايات المعصومين عليهم السلام؛ فقد ذكر المرحوم الشيخ الحر العاملي في كتاب «الوسائل» في أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باباً تحت عنوان: «وَجُوبُ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِالْقَلْبِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَ تَحْرِيمُ الرِّضَا بِهِ وَوَجُوبُ الرِّضَا بِالْمَعْرُوفِ» أورد فيه سبعة عشر حديثاً بهذا الخصوص؛ ومنها حديث مفصل عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ بِالمَشْرِيقِ فَرَضِيَ بِقَتْلِهِ رَجُلٌ بِالمَغْرِبِ لَكَانَ الرَّاظِي عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَرِيكَ الْقَاتِلِ»<sup>١</sup>.

وزبدة القول، ليس مجرد العمل أو التعاون في مقدماته سبب الاشتراك في النتائج المترتبة على ذلك العمل في الشريعة الإسلامية فحسب؛ بل للرضا القلبي مثل هذا الأثر. ثم استشهد الإمام عليه السلام بدليل محكم من القرآن المجيد لإثبات هذه الحقيقة فقال: وَإِنَّمَا عَقَرْنَا نَاقَةَ ثَمُودَ وَاحِدٍ بَيْنَمَا عَمَّ الْعَذَابُ جَمِيعَ قَوْمِ ثَمُودَ كَوْنَهُمْ رَضُوا جَمِيعاً بِعَمَلِ ذَلِكَ الْفَرْدِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ» عقر القوم الناقة فلما نزل العذاب ندم الجميع «وَإِنَّمَا عَقَرْنَا نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ»<sup>٢</sup> فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ

١. وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١٠، ح ٤.

٢. «عقر» من «العقر» على وزن «فعل» تعني في الأصل أساس الشيء، وإن استعملت في الحيوان عنت البقر قطع أسفل الرجل وصرعه، كما تعني نحر الناقة.

٣. سورة الشعراء، الآية ١٥٧.

خَارَتْ<sup>١</sup> أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السُّكَّةِ<sup>٢</sup> الْمُحْمَاةِ<sup>٣</sup> فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ<sup>٤</sup>.

يشير كلام الإمام عليه السلام إلى معجزة صالح عليه السلام، نبي قوم ثمود، فلما طلب منه قومه معجزة، خرجت بقدرة الله ناقة من صخرة فأمنت طائفة بينما أنكر ذلك أغلب القوم، وأوصاهم نبيهم ألا يتعرضوا لتلك الناقة بسوء فيأخذهم العذاب، فلم يأبهوا بقول النبي وعمدوا إلى الناقة فعقروها، فأتتهم زلزلة عظيمة فانشقت الأرض وابتلعت الكفار وبيوتهم.

والمعروف أن قاتل هذه الناقة شقي يدعى «غدار بن سالف»؛ إلا أن العبارة وردت في الآية القرآنية بصيغة الجمع «فَعَقَرُوها»، لأنهم رضوا جميعاً بعمله وقد عبروا عن هذا الرضى من خلال دعوته وتشجيعه على الإتيان بذلك العمل الشنيع كما ورد ذلك في الآية ٢٩ من سورة القمر: «فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ».

العبارة «خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السُّكَّةِ الْمُحْمَاةِ» إشارة إلى أن حديدة المحراث إذا أحميت في النار انغمرت سريعاً في الأرض لاسيما في الأرض الرخوة، نعم، فقد انغمرت منطقتهم وما عليها بهذه السرعة في جوف الأرض إثر ذلك الزلزال العظيم.

ثم حذر الإمام عليه السلام في القسم الثالث من هذه الخطبة، عامة الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَّ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ<sup>٤</sup>!». المراد من «الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ» الطريق الذي عرضه القرآن والسنة والدليل العقلي والذي يهدي الناس إلى ماء الحياة المعنوية وأولئك الذين يضلون الطريق إنما يحرمون من الهدى ويموتون على الكفر والإلحاد.

١. «خارت» من «الخوار» على وزن «غبار» صوتت كخوار الثور والناقة وماشابه ذلك وخواره صيغة مبالفتها.

٢. «السُّكَّةُ» الحديدية والمحراث.

٣. «محماة» اسم مفعول من مادة «احماء» وضع الشيء على النار وتطلق «محماة» على الشيء الذي يحمى بالنار.

٤. «تية» الوادي الجاف كما وردت بمعنى الخيزرة.



ومما لا شك فيه أن منهج وطريق الإمام عليه السلام أحد مصاديق «الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ» والبينة الواضحة، ذلك لأنه بمنزلة نفس النبي وأعلم الأمة بمنهجه وطريقه، وهذا ما صرح به الإمام عليه السلام في الخطبة ٩٧ إذ قال: «وَإِنِّي لَعَلَى بَيْتَةِ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَاجِ مِنْ نَبِيِّ وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ».

ومن البديهي أن الإنسان الذي يسير على الطريق القويم المعلوم إنما يبلغ اثناء الطريق بعض المنازل ذات المياه الوفيرة، ومن يزل عن الطريق عادة ما يجد نفسه في الصحاري الجرداء القاحلة فيهلكه العطش.



## وَمِنْ كَلَامِ إِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي السَّيِّدِ

رُويَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَهُ عِنْدَ دَفْنِ سَيِّدَةِ النُّسَاءِ فَاطِمَةَ عليها السلام،  
كَالْمُنَاجِي بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عِنْدَ قَبْرِهِ <sup>١</sup> وَ <sup>٢</sup>

### نظرة إلى الخطبة

كلام الإمام عليه السلام هذا بليغ إلى درجة؛ الكلام الذي يعكس حرقه قلب الإمام عليه السلام

#### ١. سند الخطبة:

قال ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» أن تعبير السيد الرضي عن فاطمة الزهراء عليها السلام بـ «سيِّدة نساء العالمين» اقتباس من خبر متواتر روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذه العبارة أو عبارة أخرى تفيد نفس المعنى. وقال صاحب «مصادر نهج البلاغة» بعد نقله لهذا الكلام: إن هذا الحديث (حديث سيِّدة نساء العالمين) متواتر عند علماء الإمامية؛ بل يعد جزءاً من عقائدهم. ثم روى عدّة روايات عن العامة بهذا الخصوص. أمّا من روى هذه الخطبة من العلماء الذين عاشوا قبل السيد الرضي، فهم كلٌّ من المرحوم الكليني في الجزء الأول من كتاب «الكافي» (بعبارات أكثر مما أوردها السيد الرضي) والشيخ المفيد في كتاب «المجالس»، ورويتها طائفة أخرى معن عاش بعد السيد الرضي مع اختلافات تفيد أنهم استقوها من مصادر أخرى غير «نهج البلاغة»؛ مثل الطبري في «دلائل الإمامة» والشيخ الطوسي في «الأمالي» وسبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص» الذين ذكروا دفن الزهراء والأشعار التي أنشدها علي عليه السلام في وداعها. ثم نقل الكلام المذكور مع بعض الإضافات. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٩٣-٩٨).

٢. الجدير بالذكر أن الضمير في «عند قبره» ورد بصيغة المذكر حيث يعود إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: إنه قال هذا الكلام حين دفن فاطمة الزهراء عليها السلام، وهذا يعني أن السيد الرضي يرى أن قبر الزهراء عليها السلام عند قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.



حين دفنه الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، والذي يتضمن بث الشكوى الأليمة والمفجعة ولوعة الفؤاد التي تعكس شكوى الإمام عليه السلام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن مصائب فاطمة الزهراء عليها السلام من جهة ومصابه بسبب فراق الزهراء عليها السلام من جهة أخرى، وجانب من الحقائق التاريخية المهمة في صدر الإسلام بصورة غير مباشرة؛ لكنّه يعكسها بصيغة بليغة وعميقة وسيرد شرح ذلك في ختام تفسير هذا الكلام.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جَوَارِكِ،  
وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ، قَلَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَن صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنهَا  
تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنَّ فِي التَّأْسِي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزُّرٍ،  
فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَقَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، ﴿فَإِنَّا  
لِللَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾<sup>١</sup> فَلَقَدْ اسْتَرْجَعَتِ الْوَدِيعَةَ، وَأَخَذَتِ الرَّهِيْنَةَ! أَمَّا  
حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَحْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا  
مُقِيمٌ. وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَيَّ هَضْمِهَا، فَأَخْفِهَا السُّؤَالَ،  
وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ؛ هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخُلْ مِنْكَ الذَّكْرُ، وَالسَّلَامُ  
عَلَيْكُمَا سَلَامٌ مُوَدَّعٍ، لَا قَالٍ وَلَا سَنِيمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفَ فَلَا عَن مَلَالَةٍ، وَإِنْ أَقِمَ فَلَا  
عَن سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ.

## الشرح والتفسير

### لوعة علي عليه السلام عند قبر الزهراء عليه السلام

قال الإمام عليه السلام هذا الكلام الأليم والمفجع حين وسد بيده الشريفة البدن الطاهر  
لسيدة النساء الزهراء البتول عليه السلام في القبر، وهو الكلام الدال - من جهة - على عظمة الصديقة  
الطاهرة فاطمة الزهراء عليه السلام ومن جهة أخرى مدى لوعة علي عليه السلام على فراقها الأليم.  
اختار الإمام عليه السلام أروع وأفضل مخاطب في بيان هذه العبارات؛ أي رسول الله صلى الله عليه وآله  
ليشكو له ذلك المصاب، فابتدأ كلامه قائلاً: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي، وَعَنِ

ابنتك النَّازِلَةِ فِي جَوَارِكِ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ».

ورغم أن مضمون كلام الإمام عليه السلام، شكوى أليمة ومفجعة؛ إلا أن أدب الخطاب يقتضي أن يستهله بتحية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والسلام عليه.

تفيد العبارة: «النَّازِلَةِ فِي جَوَارِكِ» أن قبر سيّدة النساء عند قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهذا يدعم نظرية من يرى أن الزهراء عليها السلام إنما دفنت في بيتها.

طبعاً يمكننا أن نعتبر الدفن في البقيع على أنه إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وآله أو أن نعتبر المراد بالجوار هو الجوار الروحي والمعنوي في الجنة؛ غير أن المعنى الأوّل أنسب لظاهر العبارة ويؤيد ذلك العديد من الروايات.

أورد المرحوم الكليني رواية تقول: إن أحد الصحابة أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قبر فاطمة عليها السلام فقال: «دُفِنَتْ فِي بَيْتِهَا فَلَمَّا زَادَتْ بَنُو أُمِّيَّةَ فِي الْمَسْجِدِ صَارَتْ فِي الْمَسْجِدِ»<sup>١</sup>.

العبارة: «السَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ» إشارة عميقة المعنى لهول مصائب الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام التي ساقتها في ربيع عنفوان شبابها إلى الدار الأبدية فتكون المدّة التي أعقبت التحاقها بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله طبق بعض الروايات ٤٥ يوماً وطبق البعض الآخر ٧٥ يوماً وطبق رواية أخرى ٩٥ يوماً، كما قيل حسب بعض الروايات غير المشهورة ٤ أشهر و٦ أشهر وهذا ما سنتطرق له في مبحث التأمّلات بالإضافة إلى موضع قبرها. ثم واصل الإمام عليه السلام خطابه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: «قُلِّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ<sup>٢</sup> صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي<sup>٣</sup>، إِلَّا أَنَّ فِي التَّأْسِي<sup>٤</sup> لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ،

١. الكافي، ج ١، ص ٤٦١، باب مولد الزهراء عليها السلام، ح ٩.

٢. «صفيّة» من مادة «صفو» على وزن «عفو» بمعنى الصافي والطاهر وصفي بمعنى المصطفى. وقد ذكر الإمام عليه السلام بنت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصفتها صفة ليعكس علو شأنها وجلالة قدرها.

٣. «تجلّد» من مادة «جلد»، على وزن «بلد» و«جلادة» التي تعني الصبر والاستقامة و«تجلّد» هنا إشارة إلى التحمل والصبر على المصيبة.

٤. «تأسي» تأتي أحياناً بمعنى الاقتداء وأحياناً أخرى بمعنى الاغتمام والمعنى الثاني هنا أنسب، لأن الكلام

وَقَادِحٍ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزُّرٍ<sup>١</sup>».

يشير إلى أن مصيبة الزهراء عليها السلام وإن كانت أليمة للغاية؛ لكن ألم مصيبتك كان أعظم وأعمق وتحملها هون احتمال هذه المصيبة، قطعاً كان مصاب علي عليه السلام برحيل النبي أعظم، وإن كانت فاطمة الزهراء زوجة عظيمة المنزلة انعدم مثلها؛ فقد كان النبي بمنزلة أبي علي عليه السلام وإضافة إلى ذلك، كان بالنسبة لعلي القائد والمرشد والمعلم والأستاذ وبالتالي كل شيء لعلي، ومن هنا ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي عليه السلام: «يَا أَبَا الرَّيْحَانَتَيْنِ... عَنْ قَلِيلٍ يَنْهَدُ رُكْنَاكَ».

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال علي عليه السلام: «هَذَا أَحَدُ رُكْنَيْ الَّذِي قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ». وقال حين استشهدت الصديقة الطاهرة الزهراء عليها السلام: «هَذَا الرُّكْنُ الثَّانِي الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ»<sup>٢</sup>.

ثم أضاف الإمام عليه السلام في شرحه لهذا الكلام قائلاً: «فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ<sup>٤</sup> فِي مَلْحُودَةٍ<sup>٥</sup> قَبْرِكَ، وَقَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، فَ«إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»!». ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن «نفس» هنا تعني الدم (لأن أحد معاني النفس هو الدم) وقالوا: إن قليلاً من الدم خرج من فم النبي عند وفاته وجرى على صدر علي عليه السلام؛ ولكن هذا المعنى يبدو مستبعداً، على كل حال تفيد القرائن (كما تدل الخطبة ١٩٧) أن رأس النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم حين وفاته كان في حجر علي عليه السلام ففاضت روحه الطاهرة فمرت على صدر علي عليه السلام ونحره، رغم ما ذكره بعض

عن الهم والغم والحزن وليس الاقتداء، وإن ذهب بعض الشراح إلى المعنى الأول ويبدو أن سبب خطأهم ما تعارف عليه في الاستعمالات المتداولة.

١. «فادح» من مادة «فدح»، على وزن «فتح» بمعنى المثقل وتعني هنا المصيبة الجلل.

٢. «تعزّز» أو «تعزّز» بمعنى الصبر على المصيبة ومادته «عزّز».

٣. بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٣، ح ١٤. كما ورد هذا الحديث في مصادر العامة؛ مثل كتاب فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ج ٢، ص ٦٢٣، ح ١٠٦٧.

٤. «وسد» من «وسادة» والتي تعني هنا وضع الوسادة تحت الرأس.

٥. «ملحودة» من مادة «لحد» على وزن «عهد» بمعنى الشق الذي يجعل في جهة من القبر ويوضع داخله الميت حتى لا يصله التراب حين يمتلىء به القبر.

محدثي العامة من أن عائشة قالت: «كان رأس رسول الله ﷺ في حجري لما فاضت روحه»<sup>١</sup>؛ فليس هنالك من دليل معتبر على هذا الكلام ولعله من قبيل العديد من الروايات التي سعوا من خلالها لنسب فضائل علي عليه السلام الواحدة تلو الأخرى لغيره.

آنذاك عاد الإمام ثانياً لشرح مصيبة الزهراء عليه السلام فخاطب النبي الأكرم ﷺ قائلاً: «فَلَقَدْ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأَخِذَتِ الرَّهِينَةَ! أَمَا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ<sup>٢</sup>، وَأَمَا لَيْلِي فَمُسْهَدٌ<sup>٣</sup>، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ».

هذه العبارة التي تعكس مدى لوعة علي عليه السلام إزاء حادثة شهادة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليه السلام تشير بوضوح إلى مدى قيمة سيّدة النساء لدى علي عليه السلام وعمق الارتباط العاطفي والمعنوي والروحي بينهما.

التعبير بـ «وديعه» إشارة إلى ما فعله رسول الله ﷺ على أعتاب وفاته حين أخذ بيد فاطمة ووضعها بيد علي عليه السلام وقال: «يَا أَبَا الْحَسَنِ هَذِهِ وَدِيعَةُ اللَّهِ وَوَدِيعَةُ رَسُولِهِ عِنْدَكَ فَاحْفَظْ اللَّهَ وَاحْفَظْنِي فِيهَا وَإِنَّكَ لَفَاعِلُهُ»<sup>٤</sup>.

ويرى البعض أن النبي الأكرم ﷺ قال ذلك ليلة زفاف الزهراء عليه السلام، وذهب بعض الشراح إلى أن التعبير بالوديعه هنا يشير إلى أن أرواح الناس في الأبدان شبيهة بالوديعه والأمانة التي تسترد عند الوفاة، إلا أن هذا التفسير يبدو مستبعداً هنا.

ويمكن أن يكون التعبير بـ «الرهينة» حيث إن النبي الأكرم ﷺ أخذ من علي عليه السلام عهد الخلافة والوصاية والوفاء وكانت كريمته الزهراء عليه السلام رهينة إزاء ذلك. وقد استعمل هذا التعبير كون الصديقة أعظم نعمة من الله على علي عليه السلام.

١. سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١٤١؛ مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٢٤١.

٢. «سرمد» دائم وطويل ويطلق السرمدي أحياناً على الشيء الذي له بداية وليس له نهاية.

٣. «مسهد» من مادة «شهد» على وزن «صمد» بمعنى السهر وعدم النوم. جدير ذكره أن «مسهد» وردت صفة للخبر «ليل» وقد قال الإمام عليه السلام: «أَمَا لَيْلِي فَمُسْهَدٌ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولَ أَنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، وَهَذَا فِي الْوَاقِعِ يَشْعُرُ بِالتَّأَكِيدِ».

٤. بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٨٤، ح ٣١.

وتفسير العبارة: «أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ» واضح، فالإمام عليه السلام لا يكاد يذكر البتول حتى تتجدد أحزانه وآلامه وهو الحزن الذي خيم على جميع تفاصيل حياة الإمام علي عليه السلام.

والعبارة: «وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ» كناية عن أنني أعيش أغلب الليالي على ذكر تلك الصديقة الطاهرة، وأن ذكرها ليسلب من عينيّ النعاس، وخير شاهد على ذلك الأشعار التي أنشدها بعد فراق فاطمة الزهراء عليها السلام:

نَفْسِي عَلَى زَفْرَاتِهَا مَحْبُوسَةٌ      يَا لَيْتَهَا خَرَجَتْ مَعَ الزَّفْرَاتِ  
لَا خَيْرَ بَعْدَكَ فِي الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا      أَبْكِي مَخَافَةَ أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي<sup>١</sup>

آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى جانب من مصائب فاطمة الزهراء عليها السلام المفجعة فقال: «وَسْتَنْبِتُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافِرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَحْفَهَا<sup>٢</sup> السُّوَالِ، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ؛ هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ».

الظاهر أن هذه العبارات المقتضبة من أمير المؤمنين علي عليه السلام بغية رعاية الأدب عند قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فلا يخوض فيها ولا يشرحها، والتي تشير إلى الأحداث المأساوية التي أعقبت رحيل النبي؛ من قبيل الهجوم على بيت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، وإضرام النار في البيت، وإسقاط جنينها المحسن وحمل الإمام علي عليه السلام إلى المسجد بالقوة من أجل البيعة وهذا ما سنتناوله في ختام هذا البحث، وهي الأحداث التي لم ترد بصيغة مركزة في مصادر الإمامية والعجيب أنها ذكرت صراحة في مصادر العامة.

والمفردة «تضافر» من مادة «ضفر» (على وزن ضعف) تعني التعاون والتعاقد للقيام بعمل، إشارة إلى أن فئة من الأمة كانت شريكة في ارتكاب تلك الجرائم، ولما كان الأعم الأغلب قد لاذ بالصمت الذي يعني تأييد ذلك الفعل نسب إلى جميع

١. بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢١٣، ح ٤٤.

٢. «أحفها» من مادة «الإحفاء» بمعنى الإصرار في السؤال والاستخبار.

الأمة، و«هضم» تعني في الأصل الظلم والكسر، والمفردة «عهد» هنا بمعنى الزمان ولها معانٍ أخرى.

كما يحتمل أن يكون المراد من هذا العهد هو العهد الذي أخذه رسول الله ﷺ بشأن خلافة علي عليه السلام وحفظ حرمة أهل البيت عليهم السلام ولاسيما ابنته الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام وجعلهم عدل القرآن بمقتضى حديث الثقلين وأمثال ذلك؛ أي لم تمض مدة طويلة على تلك العهود حتى نسيت طائفة من الأمة كل شيء وإرتكبت أفظع الجرائم التي تذهل العقول.

ثم اختتم خطبته مخاطباً النبي الأكرم ﷺ وفاطمة الزهراء عليها السلام قائلاً: «وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامٌ مُودَعٌ، لَا قَالَ<sup>١</sup> وَلَا سِيمٌ<sup>٢</sup>، فَإِنْ أَنْصَرِفَ فَلَا عَنْ مَلَائِكَةٍ، وَإِنْ أُقِمَ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ».

ورد في رواية «الكافي» في ذيل هذا الكلام: «واه واهأ والصَّبْرُ أَيَّمَنُ وَأَجْمَلُ وَلَوْ لَا غَلَبَةُ الْمُسْتَوَلِينَ لَجَعَلْتُ الْمَقَامَ وَاللَّبْتَ لِرَاماً مَفْكُوفاً وَلَا عَوْلَتْ إِغْوَالَ الثَّكْلَى عَلَى جَلِيلِ الرَّزِيَّةِ فَبِعَيْنِ اللَّهِ تُدَقَّنُ ابْنَتُكَ سِرّاً وَتُهَضَمُ حَقُّهَا وَتُنَمَّعُ إِزْثَهَا وَلَمْ يَتَّبَاعِدِ الْعَهْدُ وَلَمْ يَخْلُقْ مِنْكَ الذُّكْرُ وَإِلَى اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُشْتَكَى وَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْسَنَ الْعَزَاءِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهَا السَّلَامُ وَالرِّضْوَانُ»<sup>٣</sup>.

ويتضح بجلاء من هذه العبارات وما ورد في «نهج البلاغة» مدى شدة المصائب التي جرّعها الفسقة أهل البيت عليهم السلام وبضعة النبي ﷺ عقب تلك المدة الوجيزة بعد رحيل النبي ﷺ والتي هزّت علياً عليه السلام بصفته جبل الحلم والصبر وجعلته يبكي بكاء الثكلى، والعجيب أن أسناد ذلك الهجوم البربري على بيت الرسالة ورد في مصادر العامة بصورة مستفيضة.

١. «قال» من مادة «قلن» على وزن «وعن» بمعنى المبغض ويطلق «قال» على الشخص المبغض لشيء.

٢. «سئم» من «السامة» على وزن «فلاحة» بمعنى الكسل والضجر ويطلق «سئم» على من يتصف بهذه الحالة.

٣. الكافي، ج ١، ص ٤٥٩، باب مولد فاطمة الزهراء عليها السلام.



## تأملات

برغم قصر المدّة التي عاشتها فاطمة الزهراء، الصديقة الطاهرة سيّدة نساء العالمين؛ غير أنّ سيرتها وفضائلها ومناقبها ومصائبها طويلة للغاية، وقد أشار بعض شرّاح نهج البلاغة إلى جانب من ذلك حين تعرضوا لشرح هذه الخطبة، ومن الضروري أن نشير بدورنا إلى بعض الأمور:

### ١. فاطمة الزهراء عليها السلام على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله

تتمتع الصديقة الطاهرة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة رفيعة، وتتضح عصمتها من الذنوب من خلال ما ورد فيها من أحاديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال فيها: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي»<sup>١</sup>.

ومن الواضح أنّ غضب رسول الله صلى الله عليه وآله مدعاة لأذاه وقد صرح القرآن الكريم بشأن من يؤذيه قائلاً:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>٢</sup>.

وليت شعري أي دليل أدل على فضيلتها وعصمتها من حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي نص على أنّ رضاها رضى الله وغضبها غضبه سبحانه فقال: «يَا فَاطِمَةُ إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِعُضْبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكَ»<sup>٣</sup>.

ولتمتعها بهذه المنزلة العظيمة فهي سيّدة نساء العالمين فقال لها النبي صلى الله عليه وآله: «يَا فَاطِمَةُ! أَلَا تَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ»<sup>٤</sup>.

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ٧، ص ٨٤ وذكر البخاري هذا الحديث في قسم دلائل النبوة، ج ٦، ص ٤٩١، وأواخر المغازي، ج ٨، ص ١١٠.

٢. سورة التوبة، الآية ٦١.

٣. مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٤؛ مجمع الزوائد، ج ٩، ص ٢٠٣ وذكر الحاكم في كتاب المستدرک أحاديث جامعة الشرائط التي صرح بصحتها البخاري ومسلم.

٤. مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٥٦.

## ٢. حرمة بيت الزهراء عليها السلام في القرآن والسنة

قال المحدثون: لما نزلت الآية المباركة: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾<sup>١</sup>. قرأ رسول الله هذه الآية: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فقام إِلَيْهِ رَجُلٌ: فَقَالَ: أَيُّ بُيُوتِ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: بُيُوتُ الْأَنْبِيَاءِ. فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَهَذَا الْبَيْتُ مِنْهَا، مُشِيرًا إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عليهما السلام.

قال ﷺ: نَعَمْ، مِنْ أَفْضَلِهَا<sup>٢</sup>.

كان رسول الله ﷺ يمرّ تسعة أشهر على بيت فاطمة فيسلم عليها وعلى علي عليه السلام<sup>٣</sup> ويقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾<sup>٤</sup>.

البيت الذي كان مركز النور الإلهي وقد أمر الله أن يرفع إنما يتمتع بحرمة عظيمة. نعم البيت الذي يضم أصحاب الكساء ويشي الله تبارك وتعالى عليه لا بدّ أن يحظى باحترام قاطبة المسلمين.

وهنا لا بدّ أن نرى كيفية التعامل مع حرمة ذلك البيت عقب وفاة رسول الله ﷺ؟ وكيف هتكت حرمة ذلك البيت، وقد اعترفوا أنفسهم بذلك صراحة؟ ومن هم أولئك الذين انتهكوا الحرمات، وماذا كان هدفهم؟

## ٣. انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام

للأسف رغم كلّ هذه الوصايا والتأكيدات فإنّ البعض تجاهل هذه الحرمة وانتهكها، وهذه ليست بالمسألة الهينة التي يمكن التغاضي عنها.

١. سورة النور، الآية ٣٦.

٢. الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٠٣؛ تفسير سورة النور، روح المعاني، ج ١٨، ص ١٧٤.

٣. الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٠٦.

٤. سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

وسنذكر هنا نصوصاً من مصادر العامة ليتضح من خلالها أن انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام وما تبعه من أحداث، قضية تاريخية ومسلمة؛ وليست خرافة! ورغم الضغوط الشديدة في عصر الخلفاء إزاء ذكر وتدوين فضائل ومناقب أهل البيت عليهم السلام إلا أن «الشمس لا تحجب بالغربال» فلم تحجب هذه الحقيقة التي بقيت حية في بطون كتب التاريخ والحديث، وسنراعي الترتيب الزمني في عرض الوثائق منذ القرون الأولى حتى العصر الحاضر.

(الف) ابن أبي شيبه، المحدث المعروف لدى العامة في كتاب «المصنف»

قال أبو بكر بن أبي شيبه (١٥٩ - ٢٣٥) مؤلف كتاب «المصنف» بسند صحيح:

«إِنَّهُ حِينَ بُويعَ لِأَبِي بَكْرٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ يَدْخُلَانِ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، فَيُشَاوِرُونَهَا وَيَرْتَجِعُونَ فِي أَمْرِهِمْ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ وَدَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ، فَقَالَ: يَا بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَبِيكَ وَمَا مِنْ أَحَدٍ أَحَبُّ إِلَيْنَا بَعْدَ أَبِيكَ مِنْكَ، وَأَيْمُ اللَّهِ مَا ذَاكَ بِمَانِعِي إِنْ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ عِنْدَكَ أَنْ أَمْرُهُمْ أَنْ يُحْرِقَ عَلَيْهِمُ الْبَيْتُ.

قال: فَلَمَّا خَرَجَ عُمَرُ جَاؤُوهَا، فَقَالَتْ: تَعْلَمُونَ أَنَّ عَمَرَ قَدْ جَاءَنِي، وَقَدْ حَلَفَ بِاللَّهِ

لِئِنْ عُدْتُمْ لِيَحْرِقَنَّ عَلَيْكُمُ الْبَيْتَ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَيَمِضِينَ لِيَا حَلَفَ عَلَيْهِ»<sup>١</sup>.

وقد وردت هذه الحادثة بسند صحيح في كتاب «المصنف».

(ب) البلاذري، المحدث الكبير عند العامة في كتاب «أنساب الأشراف»

روى أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي البلاذري (م ٢٧٠) صاحب التاريخ

المعروف، هذه الحادثة التاريخية في كتابه «أنساب الأشراف» قائلاً:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ يُرِيدُ الْبَيْعَةَ فَلَمْ يُبَايِعْ، فَجَاءَ عُمَرُ وَمَعَهُ قَتِيلَةٌ! فَتَلَقَّتْهُ

١. المصنف لأبن أبي شيبه، ج ٨، ص ٥٧٢، كتاب المغازي.

فَاطِمَةُ عَلَى الْبَابِ.

فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَتَرَكَ مُخْرِقاً عَلَيَّ أَبِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ أَقْوَى  
فِيمَا جَاءَ بِهِ أَبُوكَ...»<sup>١</sup>.

### ج) ابن قتيبة وكتاب «الإمامة والسياسة»

المؤرخ الشهير عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٢ - ٢٧٦) من أساطين  
الأدب، وكتاب التاريخ الإسلامي ومؤلف كتاب (تأويل مختلف الحديث)، (أدب  
الكاتب) و...<sup>٢</sup> قال في كتاب «الإمامة والسياسة»:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ (رض) تَفَقَّدَ قَوْمًا تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَتِهِ عِنْدَ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فَبَعَثَ  
إِلَيْهِمْ عُمَرَ فَجَاءَ فَنَادَاهُمْ وَهُمْ فِي دَارِ عَلِيٍّ، فَأَبَوْا أَنْ يَخْرُجُوا فَدَعَا بِالْحَطْبِ وَقَالَ:  
وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَتَخْرُجَنَّ أَوْ لَأَخْرَقَنَّهَا عَلَيَّ مَنْ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُ: يَا أبا حَفْصِ إِنَّ  
فِيهَا فَاطِمَةَ. فَقَالَ: وَإِنْ!»<sup>٣</sup>.

وأضاف ابن قتيبة عقب ذكره لهذه الحادثة البشعة والمؤلمة فقال:

«ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَمَشَى مَعَهُ جَمَاعَةٌ حَتَّى أَتَوْا فَاطِمَةَ فَدَقُّوا الْبَابَ فَلَمَّا سَمِعَتْ  
أَصْوَاتَهُمْ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا يَا أَبَتَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِينَا بَعْدَكَ مِنْ ابْنِ الْخَطَّابِ  
وَابْنِ أَبِي قُحَافَةَ فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ صَوْتَهَا وَبُكَاءَها انْصَرَفُوا وَبَقِيَ عُمَرُ وَمَعَهُ قَوْمٌ  
فَأَخْرَجُوا عَلِيًّا فَمَضَوْا بِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا لَهُ: بَايِعْ، فَقَالَ: إِنْ أَنَا لَمْ أَفْعَلْ فَمَنْ؟  
فَقَالُوا: إِذَا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ نَضْرِبُ عُنُقَكَ...!»<sup>٤</sup>.

طبعاً يصعب جداً هضم هذه الحقبة من التاريخ على بعض الموالين للشيخين،  
لذلك سعى البعض للتشكيك في نسب هذا الكتاب لابن قتيبة، في حين يراه ابن

١. أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٨٦، طبع دار المعارف، القاهرة.

٢. الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ١٣٧.

٣. الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص ١٢، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٤. المصدر السابق، ص ١٣.

أبي الحديد الأستاذ البارع في التاريخ، أنه من كتبه وقد روى منه العديد من المطالب، والمؤسف أن هذا الكتاب طالته يد التحريف وحذفت بعض مواضعه عند الطباعة، بينما وردت نفس تلك المطالب في «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد المعتزلي.

وعده الزركلي في كتاب «الأعلام»، من آثار ابن قتيبة وقال: هنالك رأي للعلماء في هذه النسبة؛ أي أنه ينسب الشك إلى الآخرين وليس لنفسه، كما يراه إلياس سركيس من كتب ابن قتيبة<sup>١</sup>.

#### د) الطبري وتاريخه

ذكر محمد بن جرير الطبري (م ٣١٠) في تاريخه حادثة هتك حرمة بيت الوحي فقال:

«أَتَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَنْزِلَ عَلِيٍّ وَفِيهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَرِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَحْرِقَنَّ عَلَيْكُمْ أَوْ لَتَخْرُجَنَّ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ الزُّبَيْرُ مُضِلِّتاً بِالسَّيْفِ فَعَثَرَ فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَوَثَبُوا عَلَيْهِ فَأَخَذُوهُ»<sup>٢</sup>.

تفيد هذه الحقة التاريخية أن أخذ البيعة للخليفة تمّ في ظلّ التهديد والوعيد وأما قيمة مثل هذه البيعة فمتروكة لإنصاف القراء الأعزاء.

#### هـ) ابن عبد ربه وكتاب «العقد الفريد»

أورد شهاب الدين أحمد المعروف بـ (ابن عبد ربه الأندلسي) مؤلف كتاب (العقد الفريد) (م ٤٦٣) بحثاً مسهباً في كتابه بشأن تاريخ السقيفة، فقد قال في فصل من تخلف عن بيعة أبي بكر:

١. معجم المطبوعات العربية، ج ١، ص ٢١٢.  
٢. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٣، طبعة بيروت.

«فَأَمَّا عَلِيٌّ وَالْعَبَّاسُ وَالزُّبَيْرُ فَقَعَدُوا فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ حَتَّى بَعَثَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، عُمَرَ  
بْنَ الْخَطَّابِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ بَيْتِ فَاطِمَةَ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَبَوَا فَقَاتِلَهُمْ، فَأَقْبَلَ بِقَبَسٍ مِنْ نَارٍ  
أَنْ يُضْرِمَ عَلَيْهِمُ الدَّارَ، فَلَقِيَتْهُ فَاطِمَةُ فَقَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَجِئْتَ لِتُحْرِقَ دَارَنَا؟!  
قَالَ: نَعَمْ، أَوْ تَدْخُلُوا فِيهَا دَخَلَتْ فِيهِ الْأُمَّةُ!»<sup>١</sup>.

تمّ إلى هنا الفصل الذي صرّح فيه بالعزم على انتهاك الحرمه، ونخوض الآن في  
الفصل الثاني الذي يفيد التطبيق العملي لنية السوء المبيتة، والحذر من الاعتقاد بأن  
نية القوم كانت تقتصر على التهديد والوعيد ليجبروا علياً عليه السلام وصحبه على البيعة  
وأنهم لم يكونوا يفكرون بتفعيل ذلك التهديد.

### وقوع الهجوم

انتهى إلى هنا كلام تلك الطائفة من المؤرّخين الذين اقتصرُوا على الإشارة إلى  
سوء نية الخليفة وبطانته، الطائفة التي لم ترد أو لم تستطع عكس الفصول القادمة  
لتلك الفاجعة بصورة واضحة، في حين أشار البعض الآخر إلى أصل الجريمة؛ أي  
الهجوم على البيت و... وإليك الآن وثائق الهجوم وانتهاك حرمة بيت الرسالة  
والوحي، بيت فاطمة الزهراء عليها السلام: (وسنراعي في هذا الفصل أيضاً الترتيب الزمني  
في نقل المصادر).

### (و) أبو عبيد وكتاب «الأموال»

قال أبو عبيد، قاسم بن سلام (م ٢٢٤) في كتابه (الأموال) الموثق عند العامة:  
«قال عبدالرحمن بن عوف: عدت أبا بكر في مرضه في بيته، فقال بعد كلام  
طويل: وددت أنني لم أفعل ثلاثاً كنت فعلتهنّ، كما وددت أنني سألت النبي عن  
ثلاث؛ وإحدى الثلاث التي فعلتها وددت أنني لم أفعلها: «وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكْشِفْ

بَيْتَ فَاطِمَةَ وَتَرَكَتُهُ وَإِنْ أُغْلِقَ عَلَى الْحَرْبِ»<sup>١</sup>.

قال أبو عبيد لما بلغ هذا الموضوع بدلاً من العبارة: «لم أكشف بيت فاطمة وتركته...»: «كذا وكذا» وقال، لا أود ذكره!

ورغم امتناع أبي عبيد، عن ذكر الحقيقة بسبب تعصبه المذهبي أو لعلة أخرى؛ غير أن المحققين لكتاب الأموال قالوا في الحاشية: وردت العبارة المحذوفة في كتاب ميزان الاعتدال، كما ذكر الطبراني تلك العبارة في معجمه وابن عبد ربّه في العقد الفريد، وغيرهم من المؤرخين. (لا بد من الدقة!).

### (ز) الطبراني و«المعجم الكبير»

أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ - ٣٦٠) الذي عدّه الذهبي في ميزان الاعتدال ثقة<sup>٢</sup>. حيث تحدّث في كتاب (المعجم الكبير) الذي طبع كراراً عن أبي بكر ووفاته:

ود أبو بكر عند وفاته أموراً فقال: وددت أنّي لم أفعل ثلاثاً وفعلت ثلاثاً وسألت رسول الله عن ثلاث: «أما الثلاث اللّائي ودّدت أنّي لم أفعلهنّ، فودّدت أنّي لم أكنّ أكشِفُ بَيْتَ فَاطِمَةَ وَتَرَكَتُهُ...»<sup>٣</sup>.

تفيد هذه العبارات أنّ تهديدات عمر دخلت حيز التنفيذ وفتح باب الدار بالقوّة (أو بالنار).

### (ح) أيضاً ابن عبد ربّه و«العقد الفريد»

روى ابن عبد ربّه الأندلسي مؤلف كتاب العقد الفريد (م ٤٦٣) في كتابه عن

١. الأموال، الحاشية ٤، نشر الكليات الأزهرية، كذلك ص ١٤٤، طبعة بيروت، كما روى ذلك ابن عبد ربّه في العقد الفريد، ج ٤، ص ٩٣ كما سيرد علينا.

٢. ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ١٩٥.

٣. المعجم الكبير للطبراني، ج ١، ص ٦٢، ح ٣٤، تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي.



عبدالرحمن بن عوف:

«دَخَلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي مَرَضِهِ فَقَالَ: وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ ثَلَاثًا إِحْدَاهَا:  
وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكْشِفْ بَيْتَ فَاطِمَةَ عَنْ شَيْءٍ وَإِنْ كَانُوا أَغْلَقُوهُ عَلَى الْحَزْبِ»<sup>١</sup>.  
وسيرد علينا أسماء وعبارات سائر الشخصيات الذين نقلوا هذا القسم من كلام  
الخليفة.

### ط) كلام النظام في كتاب «الوافي بالوفيات»

إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي (١٦٠ - ٢٣١) الذي لقب بالنظام لجمال كلامه  
في النظم والنثر، نقل في عدة كتب تفاصيل الواقعة بعد الوقوف على بيت فاطمة  
الزهراء عليها السلام. فقال:

«إِنَّ عُمَرَ ضَرَبَ بَطْنَ فَاطِمَةَ يَوْمَ الْبَيْعَةِ حَتَّى أَلْقَتِ الْمُحْسِنَ مِنْ بَطْنِهَا»<sup>٢</sup>.

### ي) المبرّد في كتاب «الكامل»

كتب ابن أبي الحديد: روى الأديب المعروف صاحب المؤلفات المشهورة محمد  
بن يزيد بن عبد الأكبر البغدادي (٢١٠ - ٢٨٥) في كتاب «الكامل» عن عبدالرحمن  
بن عوف، قصة أمانى الخليفة فقال:

«وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ كَشَفْتُ عَنْ بَيْتِ فَاطِمَةَ وَتَرَكَتُهُ وَلَوْ أُغْلِقَ عَلَى الْحَزْبِ»<sup>٣</sup>.

### ك) المسعودي و«مروج الذهب»

كتب المسعودي (م ٣٢٥) في «مروج الذهب»: لما حضرت أبا بكر الوفاة قال:

١. العقد الفريد، ج ٤، ص ٩٣، طبع مكتبة الهلال.

٢. الوافي بالوفيات، ج ٦، ص ١٧، رقم ٢٤٤٤؛ الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ٥٧، طبع دارالمعرفة،

بيروت وللوقوف على ترجمة النظام راجع كتاب «بحوث في الملل والنحل»، ج ٣، ص ٢٤٨ - ٢٥٥.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٤٦ و ٤٧، طبعة مصر.

فعلت ثلاثاً تمنيت أني لم أفعلها:

«فَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فَتَشْتُ بَيْتَ فَاطِمَةَ» وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ كَلَاماً كَثِيراً!!!<sup>١</sup>.

ورغم اعتقاد المسعودي بأهل البيت؛ لكنه امتنع هنا عن التعرض لكلام الخليفة ومرّ عليه على نحو الكناية، وبالطبع فإنّ الله يعلم السبب وعباد الله أيضاً يعلمونه إجمالاً!

### ل) الذهبي وكتاب «ميزان الاعتدال»

روى الذهبي في كتاب «ميزان الاعتدال» عن الحافظ محمد بن أحمد الكوفي أنّه قرأ هذا الخبر على أحمد بن محمد المعروف بـ (ابن أبي دارم)، المحدث الكوفي (م ٣٥٧):

«إِنَّ عُمَرَ رَفَسَ فَاطِمَةَ حَتَّى أَشَقَطَتْ بِمُحْسِنٍ!»<sup>٢</sup>.

### م) عبدالفتاح عبدالمقصود وكتاب «الإمام علي»

فقد ذكر الهجوم على بيت الرسالة في موضعين من كتابه ونكتفي بنقل أحدهما: قال عمر: «وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَيُخْرِجَنَّ أَوْ لَأُخْرِقَنَّهَا عَلِيٌّ مَنْ فِيهَا...! قَالَتْ لَهُ طَائِفَةٌ خَافَتْ اللَّهَ وَرَعَتْ الرَّسُولَ فِي عَقْبِهِ: يَا أَبَا حَفْصٍ، إِنَّ فِيهَا فَاطِمَةَ...!»<sup>٣</sup> فَصَاحَ لَا يُبَالِي: وَإِنْ...! وَاقْتَرَبَ وَقَرَعَ الْبَابَ، ثُمَّ ضَرَبَهُ وَافْتَحَمَهُ... وَبَدَأَ لَهُ عَلِيٌّ... وَرَنَّ حَيْنَ ذَاكَ صَوْتُ الزَّهْرَاءِ عِنْدَ مَدْخَلِ الدَّارِ... فَإِنَّ هِيَ إِلَّا طَنِينَ اسْتِغَاثَةً...!»<sup>٣</sup>.

ونختتم هذا البحث برواية أخرى عن مقاتل بن عطية في كتاب الإمامة والخلافة (وإن كان هنالك الكثير الذي يقال!).

١. مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠١، مطبعة دار الأندلس، بيروت.

٢. ميزان الاعتدال، ج ١، ص ١٣٩، العدد ٥٥٢.

٣. عبدالفتاح عبدالمقصود، علي بن أبي طالب، ج ٤، ص ٢٧٦ و ٢٧٧.

حيث ذكر في هذا الكتاب:

«إِنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعْدَ مَا أَخَذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ مِنَ النَّاسِ بِالْإِزْهَابِ وَالسَّيْفِ وَالْقُوَّةِ أُرْسِلَ عُمَرَ وَقُنْفُذًا وَجَمَاعَةً إِلَى دَارِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَجَمَعَ عُمَرُ الْحَطَبَ عَلَى دَارِ فَاطِمَةَ وَأَخْرَقَ بَابَ الدَّارِ!...»<sup>١</sup>.

وردت في ذيل هذه الرواية عبارات يعجز القلم عن بيانها.

### النتيجة

بالرغم من كل هذه الوثائق الواضحة وأغلبها من مصادر العامة مازال هناك البعض الذي يستعمل عبارة «أسطورة الشهادة» ويؤمن بأن هذه الحادثة المريرة مصطنعة! ولولا إصرار هذا البعض على نفي هذه الحقائق لما أسهبننا إلى هذا الحد في البحث.

### ٤. القبر الطاهر لفاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ

إن إحدى المصائب العظيمة لبضعة النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قبرها الشريف مازال مجهولاً لحد الآن؛ ويرى البعض وحسب طائفة من الروايات أنها دفنت في البقيع، والبعض الآخر أنها دفنت في بيتها إلى جانب مسجد النبي، وآخرون أنها دفنت في الروضة (المسافة الواقعة بين قبر النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنبره الشريف).

وهذا المطلب يحمل كل محقق على التفكير، ترى، ما العاصفة التي اعترت الأمة بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخفى القبر الطاهر لبضعة النبي الوحيدة؟ وإن دلت أغلب القرائن على دفنها في بيتها، فالدفن في الروضة لم يكن هيناً آنذاك ومن المستبعد أن يرضى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا العمل، كما لا ينسجم دفنها في البقيع وما ورد في هذه الخطبة، لأن

١. الإمامة والخلافة، ص ١٦٠ و ١٦١، تأليف مقاتل بن عطية مع مقدمة الدكتور حامد داود، استاذ جامعة عين

شمس، الذي طبع بالقاهرة (مطبعة بيروت، مؤسسة البلاغ).

العبارة: «النَّازِلَةُ فِي جَوَارِكَ» تشير إلى أَنَّ قَبْرَهَا عَلَيْهَا السَّلَامُ كَانَ جَوَارِ قَبْرِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

روى المرحوم العلامة المجلسي عن إبراهيم بن محمد الهمداني أنه قال: كتبت للإمام الهادي (علي بن محمد النقي عَلَيْهِ السَّلَامُ) أخبرني عن قبر فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ! فكتب إلي: «هِيَ مَعَ جَدِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ»<sup>١</sup>.

قال المرحوم الصدوق: الصحيح عندي أنها دفنت في بيتها وحين زاد بنو أمية في المسجد أصبحت جزءً منه<sup>٢</sup>.

ورغم أَنَّ قبر النبي الأكرم سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسائر القبور هي داخل المسجد؛ ولكنه عزل عن المسجد بواسطة الجدران والشبابيك.

روي في كتاب «عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ» عن البرزطي قال: «سألت الرضا عن قبر فاطمة؛ قال:

«دُفِنَتْ فِي بَيْتِهَا فَلَمَّا زَادَتْ بَنُو أُمَيَّةَ فِي الْمَسْجِدِ صَارَتْ فِي الْمَسْجِدِ»<sup>٣</sup>.

وعليه فكل من يقف عند قبر النبي الأكرم سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الروضة المقدسة ويزور فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ فإنه ينال إن شاء الله فضيلة زيارتها عن قرب، كما يمكن زيارتها في البقيع برجاء المطلوبية.

## ٥. زمان شهادة بضعة النبي

لم يقتصر الخلاف على موضع دفن بضعة النبي الأكرم سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحسب، بل هنالك

خلاف حتى في تاريخ وفاتها.

ففي الرواية المعروفة عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال:

١. بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ١٩٨، ح ١٨.

٢. من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٧٢.

٣. عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ج ٢، ص ٢٧٨، ح ٧٦.

«إِنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام مَكَثَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله خَمْسَةَ وَسَبْعِينَ يَوْمًا».

وورد في ذيل هذه الرواية:

«كَانَ سَبَبُ فَوْتِهَا أَنْ قُنْفُذَ مَوْلَى عُمَرَ لَكَزَّهَا بِنَعْلِ السَّيْفِ بِأَمْرِهِ فَأَسْقَطَتْ مُحْسِنًا  
وَمَرِضَتْ مِنْ ذَلِكَ مَرَضًا شَدِيدًا»<sup>١</sup>.

وبالنظر إلى أن وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كانت في ٢٨ صفر فإن شهادتها لا بد أن تكون في أحد هذه الأيام الثلاثة؛ الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر من جمادي الأولى (مع الأخذ بنظر الاعتبار احتمال تمامية أو نقصان الأشهر الوسط).  
وورد في رواية أخرى أن الصديقة الطاهرة فاطمة عليها السلام توفيت يوم الثلاثاء الثالث من جمادي الآخرة السنة الحادية عشرة للهجرة<sup>٢</sup> وتنسجم هذه الرواية مع الرأي القائل أن فاطمة الزهراء عليها السلام عاشت بعد أبيها ٩٥ يوماً.

وعدّ المرحوم العلامة المجلسي في «زاد المعاد» هذا القول بشأن زمان وفاة الزهراء عليها السلام، معتبراً وقال: وهذا مقبول الشيخ الطوسي والسيد ابن طاووس وآخرين، ورغم منافاة هذه الرواية مع رواية الـ ٧٥ يوماً؛ ولكن حيث تعززها رواية مشهورة ومعتبرة، فلا بد من إقامة مراسم العزاء على الصديقة الطاهرة في اليوم الثالث من جمادي الثانية<sup>٣</sup>.

كما ورد في رواية غير مشهورة أنها عاشت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ٤٠ يوماً<sup>٤</sup>.



١. دلائل الإمامة، ص ١٣٤، ج ٤٣؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٠، ح ١١. كتب المرحوم العلامة المجلسي في الشرح في الصفحة ٢١٥ بعد الحديث ٤٧؛ وفي الخبر الصحيح أنها عاشت بعد أبيها خمسة وسبعين يوماً.  
٢. بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٧٠، ح ١١.  
٣. زاد المعاد، ص ٤٥٦.  
٤. كشف الغمّة، ج ٢، ص ٧٧؛ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٧، ح ٨.

## وَمِنْ كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

### فِي التَّزْهِيدِ مِنَ الدُّنْيَا وَالتَّرْغِيبِ فِي الآخِرَةِ<sup>١</sup>

#### نظرة إلى الخطبة

- أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيرة والعميقة المعاني إلى بضعة أمور:
١. أن الدنيا دار ممر ليس أكثر وأن الآخرة هي مقر الإنسان الأبدي ولا بد من التزود من الممر لدار المقر.
  ٢. ينبغي للإنسان أن يخلق بروحه خارج الدنيا قبل أن يزول جسده.
  ٣. الدنيا دار امتحان ومسرح ابتلاء.
  ٤. إن الناس ينظرون إلى أموال الإنسان التي يخلفها حين يغادر الدنيا بينما تنظر الملائكة إلى أعماله.

#### ١. سند الخطبة:

ذكر بعض العلماء قبل وبعد السيد الرضي، هذه الخطبة في كتبهم؛ فقد رواها قبل السيد الرضي، المرحوم الصدوق، في «الأمالي» و«عيون أخبار الرضا عليه السلام»، والمرحوم الشيخ المفيد في كتاب «الإرشاد» (الأمالي للصدوق، ص ١٧٢، ح ١٧٤؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٦٧، ح ٥٦؛ الإرشاد، ج ١، ص ٢٩٦) ورواها من بعد السيد الرضي (بدون الاستناد لتهج البلاغة) المرحوم الطبرسي في «مشكاة الأنوار» ووزام بن أبي فراس في «مجموعة وزام» (مشكاة الأنوار، ص ٤٦٧؛ مجموعة ورام، ج ٢، ص ١٦٥). (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٩٨).



أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا اخْتَبِرْتُمْ، وَبِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ اللَّهُ آبَاؤُكُمْ! فَقَدَّمُوا بَعْضًا يَكُنْ لَكُمْ قَرْضًا، وَلَا تَخْلِفُوا كَلًّا فَيَكُونَ قَرْضًا عَلَيْكُمْ.

## الشرح والتفسير

### الدنيا ممر

أشار الإمام عليه السلام في بداية هذه الخطبة إلى مسألة مهمة بشأن حقيقة الدنيا والآخرة حيث تعدّ الغفلة عنها مصدر شقاء الإنسان وتعاساته، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ».

إنّ أغلب المشاكل تنبع من كون الإنسان يرى الدنيا دار بقاء، ومن هنا ينهمك بجمع المال والثروة عن أي طريق ومهما كلف الأمر، ويسبل بها إزاء صرفها في الأمور الخيرية، ولذلك يرتكب العديد من الأفعال السيئة ويسوّف التوبة، وقد وردت هذه الحقيقة بعدة تعبيرات في الروايات لتعتبر الدنيا أحياناً: «الدنيا قنطرة»<sup>٢</sup>، وأخرى: «مَشَجَرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ»<sup>٣</sup>، وتارة «الدُّنْيَا مَرْزَعَةٌ

١. «مجاز» من مادة «جواز» بمعنى العبور وأريد بها هنا الممر والعبور (وإن كان لها معنى مصدرى). ومن هنا

يطلق المجاز في الكلام كون المتكلم يتجاوز المعنى الحقيقي ويظفر بمعنى آخر يناسبه.

٢. بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣١٩، ح ٢١.

٣. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٣١.



الآخِرَةَ»<sup>١</sup> والتي تفيد جميعاً ذات المعنى.

ثم أشار في هذا السياق إلى أمر آخر فقال: «وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ».

يرى أغلب الشراح أن هذه العبارة تشير إلى عدم التجاهر بالمعصية، لأن المعصية الخفية في الواقع معصية واحدة، بينما تعتبر المعصية العلنية مضاعفة كونها انتهاك للستار وتلويث للبيئة الاجتماعية؛ إلا أن بعض الشراح اعتبرها إشارة إلى أعمال الخير فإنها أفضل أن يؤتى بها في الخفاء، والحال العبارة (وَلَا تَهْتِكُوا) لا تتناسب مع هذا المعنى.

على كل حال فإن الله ستار العيوب وغفار الذنوب؛ فمادام العبد لا يهتك الستار فإن الله يستر العيب والذنب.

فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ أَرْبَعُونَ جُنَّةً حَتَّى يَعْملَ أَرْبَعِينَ كَبِيرَةً فَإِذَا عَمِلَ أَرْبَعِينَ كَبِيرَةً انْكَشَفَتْ عَنْهُ الْجُنُنُ». ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فِيُوجِي اللهُ إِلَيْهِمْ أَنْ أُسْتَرُوا عَلَى عَبْدِي بِأَجْنِحَتِكُمْ فَتَسْتُرُهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا، قَالَ: فَمَا يَدْعُ شَيْئاً مِنَ الْقَبِيحِ إِلَّا قَارَفَهُ حَتَّى يَمْتَدِحَ إِلَى النَّاسِ بِفِعْلِهِ الْقَبِيحِ، فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ هَذَا عَبْدُكَ مَا يَدْعُ شَيْئاً إِلَّا رَكِبَهُ، وَإِنَّا لَنَسْتَحِي مِمَّا يَصْنَعُ، فَيُوجِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ أَنْ أَرْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ أَخَذَ فِي بُغْضِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْهَتُكَ سِتْرُهُ فِي السَّمَاءِ وَسِتْرُهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ هَذَا عَبْدُكَ قَدْ بَقِيَ مَهْتُوكَ السُّتْرِ، فَيُوجِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ: لَوْ كَانَتْ لِي فِيهِ حَاجَةٌ مَا أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَرْفَعُوا أَجْنِحَتَكُمْ عَنْهُ»<sup>٢</sup>.

ولعل إرتباط هذه العبارة بالعبارات السابقة أن من أسوأ الذنوب التي تخرب الدار الآخرة للإنسان يكمن في التجاهر بالمعصية.

١. روي هذا الحديث في عوالي اللئالي، ج ١، ص ٢٦٧، ح ٦٦ عن النبي الأكرم عليه السلام.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٧٩، ح ٩.

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن الزهد في الدنيا مشيراً إلى نقطة ثالثة فقال: «وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ».

إخراج القلوب، كناية لطيفة عن ترك التعلقات الدنيوية والتهافت على متاعها وحطامها، والتعبير «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ...» تحذير من تقلب هذا العالم بمعنى أفيقوا فإن هذه الأجساد ستصبح تراباً فاسعوا لإخراج قلوبكم من هذه الدنيا قبل الأوان فحبت الدنيا رأس كل خطيئة.

طبعاً لا يعني هذا أن لا يتمتع المسلمون بحوائج الحياة أو أن تتخلف المجتمعات الإسلامية عن التقدم الاقتصادي ويحتاجون إلى غيرهم، بل المراد التبعية الشديدة التي تضطر الإنسان لخرق القانون ومن هنا عدّ الشراح هذه العبارة إشارة لترك الأموال الحرام.

ثم قال في رابع نقطة واكمال ما سبق فقال: «فَفِيهَا اخْتِبرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ».

فهاتان العبارتان الموجزتان توضحان كل شيء ويشير الالتفات إليهما إلى المسار السعيد لحياة الإنسان، نعم فالدنيا دار امتحان والآخرة دار الخلود، قال تعالى: «أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ \* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ<sup>١</sup>، فالامتحان الإلهي كوسيلة لتكامل الإنسان وتهذيبه أمر قطعي لا مفر منه وبعبارة أخرى من أهداف خلق الإنسان الذي لا استثناء فيه ولا بد من التعرض لها في الليل والنهار والسر والعلانية والكهولة والشباب.

ثم أشار إلى ثلاثة أمور مهمة أخرى وقال: «إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟».

المراد من الناس هنا المتعلقين بالدنيا الذين غالباً ما يسألون عن أموال و ثروات من يموت، والحال انقطعوا نهائياً عن تلك الأموال وعليهم أن يجيبوا عن طرق تحصيل هذه الأموال يوم القيامة والطريف أنه جعل مقابلهم الملائكة الذين يقتصر

١. سورة العنكبوت، الأيتان ٢ و ٣.

تركيزهم على الأمور والمسائل المعنوية.

ثم قال في الأخير: «لله آباؤكم! فَقدّموا بعضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً، وَلَا تُخلفُوا كُلاًّ فَيَكُونَ قَرْضاً عَلَيْكُمْ».

الجملة «لله آباؤكم!» تذكر عادة للتعجب المقرون بالاحترام<sup>١</sup> والمراد من الجملة «فقدّموا بعضاً...» أن الإنسان مادام حياً ينفق من أمواله في سبيل الله على الفقراء أو الأمور الخيرية بمقتضى «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ»<sup>٢</sup> و«مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ الله قَرْضاً حَسَناً»<sup>٣</sup> والتعبير بـ «بعض» حتى لا ينبغي للإنسان أن يحرم ورثته المحتاجين غالباً فذلك بعيد عن الانصاف، وقد ورد الذم في الروايات على من ينفق أمواله في حياته ولا يترك شيئاً للورثة.

قال رسول الله ﷺ في أحد الأنصار الذي أنفق جميع أمواله قبل موته ولم يبق شيئاً لأولاده: «لَوْ أَعْلَمْتُمْونِي أَمْرَهُ مَا تَرَكَتْكُمْ تَدْفِنُونَهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ يَتْرُكُ صِبيتهُ صِغاراً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»<sup>٤</sup>. طبعاً هذا النهي في من له ورثة محتاجون.

من جانب آخر ورد الذم بشدة لمن لا ينفق شيئاً من أمواله في سبيل الله ويبقيه جميعاً للورثة.

قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ»<sup>٥</sup>: «هُوَ الرَّجُلُ يَدَعُ مَالَهُ لَا يَنْفِقُهُ فِي طَاعَةِ اللهِ بَخلاً ثُمَّ يَمُوتُ فَيَدَعُهُ لِمَنْ يَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللهِ أَوْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَإِنْ عَمِلَ بِهِ فِي طَاعَةِ اللهِ رَأَهُ فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ فَرَأَهُ حَسْرَةً وَقَدْ كَانَ الْمَالُ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ قَوَاهُ بِذَلِكَ الْمَالِ حَتَّى عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>٦</sup>.

١. ظاهر هذه الجملة بصيغة مبتدأ وخبر، أي أن آباءكم لله ويلزم من ذلك رحمة الله عليهما.

٢. سورة النحل، الآية ٩٦.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٤٥.

٤. الكافي، ج ٥، ص ٦٧، ح ١.

٥. سورة البقرة، الآية ١٦٧.

٦. الكافي، ج ٤، ص ٤٢.

الجملة «فَرَضاً عَلَيْكُمْ» إشارة إلى أنه إن خَلَفَ كُلَّ أَمْوَالِهِ لِلوَرِثَةِ فحَسَابِهَا عَلَيْهِ فِي الْقِيَامَةِ وَمَنَافِعِهَا لِلآخِرِينَ.

وهنا لطيفة أدبية أن الإمام علي عليه السلام استفاد في هاتين العبارتين من أربعة أشياء، «قَدَّمُوا» في مقابل «لا تخلفوا» و«بعض» إزاء «كُلَّ» و«قرض» مقابل «فرض» و«لكم» في مقابل «عليكم» وهي دلالة على فصاحة وبلاغة كلام الإمام عليه السلام.

## تأمل

### الإكثار من هذه العبارة

الأجدر بكلِّ إنسان أن يتلو كلَّ صباح هذه العبارة، فالغفلة والإنهماك طبيعة الدنيا؛ الغفلة التي غالباً ما تؤدي إلى المعصية التي تبعد العبد عن الله. فالعبارة المذكورة وضحت موضع الدنيا وتضمنت وصايا بشأن الاستعداد والتأهب لذلك السفر المصيري.

طبعاً كلمات الإمام عليه السلام لا تعني أن يكفَّ الإنسان عن السعي من أجل الحياة المادية، فذلك مدعاة للفقر والعوز، فالفقر هو الأساس لأنواع المعاصي والتغرب عن الإسلام وهي التبعية التي تقضي على عزّة الإسلام وتكسر شوكته؛ بل المراد تغيير النظرة إلى الدنيا؛ التمتع بجميع النعم ولكن شريطة الاستفادة من الأموال في سبيل قضاء الحوائج واستثمارها من أجل نيل السعادة في الدار الآخرة وتسكين أنين المحرومين، والابتعاد عن كنز الأموال والثروة وإنفاق قسمٍ من الأموال حال الحياة وأدخارها للمعاد.



## فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ كَمَا كَانُوا يَسْتَفْتُونَ

كَانَ كَثِيرًا مَا يُنَادِي بِهِ أَصْحَابُهُ

### نظرة إلى الخطبة

يستفاد من العنوان الذي اختاره السيد الرضي للخطبة أن الإمام عليه السلام خاطب صحبه كراراً وكثيراً ما كرر هذا الكلام، كما يفهم من رواية وردت في «مصادر نهج البلاغة» أنه عليه السلام نادى الناس ثلاثاً بعد صلاة العشاء ليعلم الجميع ويترق سمعهم هذا الكلام، والخطبة في الواقع موعظة لجميع الناس أن الحياة الدنيا قصيرة ولا بد من الاستعداد للمنازل المرعبة بعدها كالقبر والبرزخ والقيامة، تحذير بقطع التعلق العميق بالدنيا وأن عمرها قصير ونهايتها وشيكة، تحذير بغية التزود لذلك السفر الطويل والخطير.

#### ١. سند الخطبة:

ذكر هذه الخطبة عدد من الضالعين في العلوم الإسلامية ممن عاش قبل السيد الرضي وبعده، ومنهم المرحوم الصدوق في كتابه «الأمالي»، المجلس الخامس والسبعين (أمالي الصدوق، ص ٥٨٨، ح ٨١٠). كما رواها الشيخ المفيد في «المجالس» مرفوعة للإمام الباقر عليه السلام (أمالي المفيد، ص ١٩٩، ح ٣٢) وبعض الإضافات في كتاب «الإرشاد» (الإرشاد، ج ١، ص ٢٣٤). ورواها المرحوم الطبرسي في «المشكاة» (مشكاة الأنوار، ص ٥٢٤) وبالنظر لبعض الاختلافات مع ما نقله الرضي يتضح أنها اقتبست من طرق أخرى. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٩٩).



تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى  
الدُّنْيَا، وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بَحَضَرَ تَكُم مِّنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقْبَةً كَوُودًا،  
وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَّهُولَةً، لِأَبَدٍ مِّنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ  
مَلَا حِظَّ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةً، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ  
دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْطِغَاتُ الْأُمُورِ، وَمُعْضِلَاتُ الْمُحْذُورِ. فَقَطَّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا  
وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى.

## الشرح والتفسير

### الابتعاد عن طلاب الدنيا

تشبه هذه الخطبة السابقة وتطور في فلكها، فهي تحذير لأهل الدنيا بأن  
لا ينسوا مكانهم منها وأن يلتفتوا لما ينتظرهم من أيام ويستعدوا لها، فيقول:  
«تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا».

فقد شبه الإمام عليه السلام المجتمع البشري بقافلة ينتظرها مقصد عظيم، وبصفته زعيم  
القافلة ينادي الجميع بالتأهب للحركة.

و«الرحيل» بمعنى السفر وقد ورد لها معنيان لدى الشراح، الحركة نحو الآخرة  
والسير والسلوك إلى الله، ولا مانع من مناداة الناس بالتأهب والحركة باتجاه القيامة  
ودعوة الخواص إلى السير والسلوك إلى الله.

ورد في بعض الروايات الاستعداد للموت بدل التجهز لسفر الآخرة، فقد سئل  
أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا الاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ؟» قَالَ عليه السلام: «أَدَاءُ الْفَرَائِضِ وَاجْتِنَابُ



الْمَحَارِمِ وَالْإِشْتِمَالِ عَلَى الْمَكَارِمِ ثُمَّ لَا يُبَالِي أَوْقَعَ عَلَى الْمَوْتِ أَمْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ»<sup>١</sup>.

وقد وردت عدّة احتمالات بشأن المنادي، فقيل: ملك من الملائكة كما ورد في إحدى الكلمات القصار لنهج البلاغة<sup>٢</sup> كما نظمه البعض بصيغة شعرية:

لَهُ مَلَكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ      لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْتُوا لِلْخَرَابِ

أو أنّ المنادي هو الحوادث والبلايا كالعواصف التي تجتاح حياة الناس كلّ يوم، أو إشارة إلى آثار الشيخوخة التي تتبلور في ذبول الجسد ومشيب الشعر وانحناء القامة والتي تنادي بالرحيل بلسان الحال، وإن اعتبرنا الرحيل بمعنى السير والسلوك إلى الله وتهذيب النفس، فالمنادي هو الله في القرآن، وأئمة العصمة في الروايات، الذين يهتفون بنداء الموت ومغادرة الدنيا.

ومفهوم العرجة على ضوء معنى الإقامة، هو الحدّ من التعلق بالإقامة في الدنيا وعدم عدّها خالدة، كحال المتهافتين عليها.

ثم بيّن أسلوب الاستعداد لسفر الآخرة فقال: «وَأَنْقَلِبُوا بِصَالِحٍ مَا بِحَضْرَتِكُمْ<sup>٣</sup> مِنَ الزَّادِ».

«انقلبوا» عبارة، لطيفة تشير إلى التحول الباطني، أي حولوا انتباهكم عن الانغماس في الدنيا إلى إعداد الزاد والمتاع الأخروي.

«بحضرتكم» إشارة لما يتمتع به الإنسان من قدرات وفرص.

ثم خاض الإمام عليه السلام في الدليل على لزوم تحصيل الزاد والمتاع فقال: «فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَوْوِدًا<sup>٤</sup>، وَمَنْازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً<sup>٥</sup>، لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا».

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٨٢، ح ٧.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٣٢.

٣. «حضرت» بمعنى «الحضور» وهي هنا إشارة إلى الفرص التي تنتظر الإنسان. واستعمال هذه المفردة بشأن العظام كونه لا يريد خطابهم، بل يلتفت إلى حضورهم.

٤. «كؤود» من مادة «كأد» بمعنى الشدة والصعوبة وعقبة «كؤود» صعبة العبور.

٥. «مهولة» من مادة «هول» بمعنى الخوف و«مهول» اسم مفعول؛ يعني مخيف.

وقد ورد في الخبر المروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ فِي الْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفًا كُلُّ مَوْقِفٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ»<sup>١</sup>.

وروي ما يشبه هذا المعنى بصورة أسهب عن الإمام عليه السلام<sup>٢</sup> ويحتمل أن هناك أحد الأعمال الواجبة في كل موقف من المواقف كالصلاة والصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو السؤال عن الكبائر والتي يتطلب من أصحابها إجابة في ظل الظروف الصعبة والمخيفة فإنَّ عبورها بسلام كانوا موضع رحمة الله والجنة وإلا عرضوا للبلاء.

وبعبارة أخرى كما قال المرحوم الشيخ المفيد: إنَّ المراد من هذه العقبات، الأعمال الواجبة التي تشبه كلَّ منها بالعقبة، وكما يصعب عبور هذه العقبات تصعب الإجابة عن هذه الأعمال.

قال تعالى في سورة البلد: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ \* فَكٌ رَقَبَةٌ \* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ \* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ \* أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ»<sup>٣</sup>.

طبعاً لا فرق بهذا الشأن بين الدنيا والآخرة في ما المراد من هذه العقبات؟ سيما ورد بشأن القيامة: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا \* فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا \* لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا»<sup>٤</sup>.

وعليه لا يبدو وارداً اعتراض المرحوم العلامة المجلسي على الشيخ المفيد في ضرورة عدم حمل الألفاظ على معانيها المجازية دون الأصلية<sup>٥</sup>، فهذا الإشكال يرد حين لا تكون هناك قرائن ويكفي في هول القيامة قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ \* يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ

١. بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٦، ح ٣.

٢. المصدر السابق، ص ١١١، ح ٤٢.

٣. سورة البلد، الآيات ١١-١٦.

٤. سورة طه، الآيات ١٠٥-١٠٧.

٥. للوقوف على كلام المرحوم الشيخ المفيد والعلامة المجلسي راجع كتاب بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٢٩.

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ<sup>١</sup>.

ثم تعمق الإمام عليه السلام في شرح هذا الأمر فوعظ الجميع قائلاً: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ<sup>٢</sup> الْمَنِيَّةِ<sup>٣</sup> نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ<sup>٤</sup>، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا<sup>٥</sup> وَقَدْ نَشِبَتْ<sup>٦</sup> فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمْتُمْ<sup>٧</sup> فِيهَا مُفْطَعَاتُ<sup>٨</sup> الْأُمُورِ، وَمُفْضِلَاتُ<sup>٩</sup> الْمَخْذُورِ».

ويشير هذا الكلام إلى عدم وجود مسافة بين الإنسان والموت مهما كان عمره، ففي كل آن يمكن وقوع حادثة مفاجئة ويصيبه مرض في كل حين أو يباغته عدو في الهجوم، ولعل حياة الإنسان تزول إذا غص بلقمة، أو يلاقي حتفه إذا انسدت شرايين قلبه أو أصيب بسكتة دماغية أو أن يقطع نخاعه أثر ضربة مفاجئة فيعيش طريح الفراش طيلة حياته.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة باستنتاج بيّن وبلغ فقال: «فَقَطُّعُوا عَلاَئِقَ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهِرُوا<sup>١٠</sup> بِيَزَادِ التَّقْوَى».

والمراد من علائق الدنيا هو التعلق المفرط بالمال والجاه والزوج والولد، بالشكل الذي يغفل الإنسان عن الله ويسهل عليه مقارفة المعصية لنيل الدنيا ويزين له مفاتها

١. سورة الحج، الآيتان ١ و ٢.

٢. «ملاحظ»، جمع «ملحظ» مصدر ميمي، بمعنى النظر أو النظر بطرف العين.

٣. «مَنِيَّة» من مادة «مني» على وزن «سعي» بمعنى التقدير وتطلق هذه المفردة على الموت كونه مقدرًا على مصير الإنسان.

٤. «دانية» بمعنى قريبة من مادة «دنو» على وزن «علو».

٥. «مخالِب» جمع «مخلب» أظافر الحيوانات أو الطيور.

٦. «نشبت» من مادة «نشب» على وزن «غصب» بمعنى الانغماس.

٧. «دهمت» من مادة «دهم» بمعنى باغته.

٨. «مفطعات» جمع «مفطعة» بمعنى الحادثة الشديدة أكثر من اللازم.

٩. «معضلات» جمع «معضلة»؛ يعني الشيء الذي يجعل الإنسان في غاية الضيق كما يقال المعضلة للطريق الضيق.

١٠. «استظهِرُوا» من «الاستظهار» بمعنى الاستعانة بالشخص أو الشيء، ومادته الأصلية «ظهر».

وعبارة الاستظهار بزاد التقوى إشارة إلى أنّ آخرة الإنسان تتطلب في هذا السفر الخطير والمخيف نقاط ارتكاز تسهل عليه اجتياز الطريق وليس هنالك من مرتكز أفضل من زاد الورع والتقوى.

وحين بلغ المرحوم السيد الرضي هذا الموضوع قال: «وَقَدْ مَضَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ بِخِلَافِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ».

والظاهر أنّ مراده، الخطبة ٨٥ التي تشترك ببعض العبارات مع الكلام المذكور.



## وَمِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

كَلَّمَ بِهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ بَعْدَ بَيْعَتِهِ بِالْخِلَافَةِ وَقَدْ عَتَبَا عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ مَشُورَتَيْهِمَا، وَالِاسْتِعَانَةِ فِي الْأُمُورِ بِهِمَا<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

كما ورد في عنوان الخطبة فإنّ هذا الكلام ردّ على بعض إشكالات طلحة والزبير اللذين كانا يتوقعان أن يجعل لهما الإمام عليه السلام نصيب كبير من الحكومة واستشارتهما في جميع الأمور، فذكر لهما الإمام عليه السلام بعض الأمور التي تبين بوضوح مسيرة حكومته وتضع حدّاً لتوقعاتهما الخاطئة:

الأول: إنّ هؤلاء يعتبرون من هذا الباب، لم كلّ هذا الغضب على شيء يبدو بسيطاً وقد نسيت العديد من المحاسن.

ثم بين في جانب آخر أن ليست هنالك من مشكلة مستجدة بشأن الحكومة

١. سند الخطبة:

المصدر الوحيد الذي ذكر هذه الخطبة قبل السيد الرضي كما ورد في «مصادر نهج البلاغة»، كتاب «نقض العثمانية، لأبي جعفر الاسكافي (م ٢٤٠) ويفهم من كلامه أنه لم يشاهد بنفسه هذا الكتاب؛ بل استفاده من كلام ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة»، ج ٧، ص ٣٦-٤١. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٢) كما رواها المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢١ عن «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد.

ليستشيرهما بخصوصها؛ بل سيقود الدولة على هدي الكتاب والسنة، وبالطبع لو استجد أمر يدعو إلى المشورة فإنه لن يمتنع عنها قط.

وأجاب في القسم الثالث عن الإشكال الذي يرد عليه على التسوية في العطاء من بيت المال والذي يستند أيضاً إلى السنة النبوية.

وخاض في ختام الخطبة في دعاء عظيم المعنى سائلاً الله الرحمة لكل من رأى حقاً وأعان عليه ووقف بوجه الباطل.

## القسم الأول

لَقَدْ نَقَمْتُمْآ يَسِيرًا، وَأَزْجَأْتُمْآ كَثِيرًا. أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمْ فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُمْآ عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قَسَمٍ اسْتَأْثَرْتُمْ عَلَيْنُكُمْآ بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعْتُمْ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهَلْتُمْ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزْبَةٌ، وَلَكِنْ كُمْ دَعَوْتُمْوَنِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمْوَنِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرْنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُمْ، وَمَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)، فَاقْتَدَيْتُمْ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَيَّ رَأْيَكُمْ، وَلَا رَأْيَ غَيْرِكُمْ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهَلْتُمْ؛ فَاسْتَشِيرَكُمْآ وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمْآ، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْآ.

## الشرح والتفسير

### حجج طلحة والزبير

لما تفاقمت الأوضاع ومشاكل المسلمين على عهد عثمان وقام الناس عليه ناقلين على اغداقه المناصب على بطانته وقرابته وتوزيع أموال بيت مال المسلمين عليهم وتجاهله للمحرومين والمحتاجين، هب عدد من الصحابة لنصرتهم وكان قي مقدمتهم طلحة والزبير، وهما اللذان أصرا على الإمام بقبول الحكومة، فكانا من السباقيين لبيعة الإمام عليه السلام؛ إلا أنهما على غرار أولئك الذين يفكرون بطريقة سياسية وليست ربانية ورحمانية، فهم يتوقعون على الدوام نيل المناصب الحكومية؛ ويوردون ذلك صراحة تارة وأخرى عن طريق بعض الذرائع ليسينوا هدفهم من



خلال الكناية.

وهذا ما كان يتوقعه طلحة والزبير من الإمام عليه السلام؛ فكان طلحة يطمح في حكومة البصرة، والزبير في حكومة الكوفة، وقال البعض: إن طلحة كان يريد حكومة اليمن، والزبير حكومة العراق، ولما كانت مثل هذه الرشاوى السياسية تقود عادة إلى تجزئة الدولة بغض النظر عن مخالفتها لروح العدالة، ناهيك عن كون ذلك هو السبب الذي أدى إلى قيام المسلمين على عثمان فإن الإمام لم يستجب لتلك الطموحات. وحين يئس طلحة والزبير من تحقيق غرضهما أخذاً بالنقد والإشكال على الإمام أولاً، ثم أشعلا نار الجمل؛ النار التي احترقا في أتونها فقال عليه السلام: «لَقَدْ نَقَمْتُمَا<sup>١</sup> يَسِيرًا، وَأَرْجَأْتُمَا<sup>٢</sup> كَثِيرًا».

والمراد من اليسير ترك مشورتهم، والمراد من الكثير مصالح المسلمين، فطلحة والزبير استعاننا بذرائع واهية بغية تحقيق أهدافهما وأدارا ظهريهما لمصالح المسلمين التي تفرزها وحدة الصف والوقوف خلف الإمام عليه السلام، وهذا هو أسلوب الباحثين عن العيوب ضيقي الأفق الذين يضحون بمصالح الأمة من أجل تحقيق أطماعهم. ثم قال الإمام عليه السلام: «أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمْ فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَيُّ قَسَمٍ اسْتَأْثَرْتُمْ<sup>٣</sup> عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعْتُمْ إِلَيَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهْلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!».

الواقع أن الإمام عليه السلام أراد بهذه العبارة أن يغلّق جميع أبواب النقد والإشكال التي يمكن أن يلجها طلحة والزبير، فالانتقاد إما يرتبط بحقهما الشخصي أو بسائر المسلمين، ومطالباتهما الشخصية إما تتعلق بضياح حقهما أو التصرف فيه، وما يتعلق بسائر

١. «نقمتما» من مادة «نقم» على وزن «قلم» تعني في الأصل الإنكار على الشخص أو الشيء؛ سواء باللسان أو بالعمل عن طريق العقاب ومنه الانتقام ووردت هنا بمعنى الإنكار اللفظي.

٢. «أرجأتما» من «الإرجاء» بمعنى التأخير ومادتها الأصلية «رجاء» بمعنى الأمل وقد استعملت بهذا المعنى كون الإنسان يؤخر العمل في أغلب المواقع بغية تحقيق الهدف.

٣. «استأثرت» من «الاستئثار» يعني خص النفس بالشيء الحسن. وفسرت أحياناً بالاستبداد والاحتكار ومادتها الأصلية «أثر» بمعنى العلامة.

المسلمين إما يكون تقصير في إحقاق الحقوق أو الجهل بحق أو الخطأ في التنفيذ. والإمام عليه السلام يقول لهما: إن كان لديكما إشكال على أيٍّ من هذه الأمور قولاً لي صراحة، وحيث لم يستطيعا الإشارة إلى قضية عجزا عن الإتيان بإجابة، وهذا ديدن جميع المخطئين الانتهازيين الذين يرسلون الكلام على عواهنه ويشيرون الضجيج دون الإشارة إلى نقطة معينة.

ثم قدم الإمام عليه السلام جواباً واضحاً لإشكاليهما بخصوص ترك المشورة فقال: «وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزْبَةٌ<sup>١</sup>، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرْنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أُحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِكُمْ، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمْ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُهُ؛ فَاسْتَشِيرْكُمْ وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمْ، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمْ».

أشار الإمام عليه السلام في الواقع بهذه العبارة إلى أمرين؛ الأول: إنه لم يتخذ عضداً في قبول الخلافة الظاهرية وقد تمت الحجة عليه بقبولها بفعل إصرار المسلمين ولاسيما بعضهم كطلحة والزبير، وعليه فليس هنالك من توقع من الإمام سوى رعاية حقوق الناس.

طبعاً أصحاب الدنيا الذين ينشدون المناصب يدعون هذا وذاك لدعمهم ويعدونهم ببعض المناصب قبل بلوغها إن وصلوا لسدة الحكم، لكن لا معنى لمثل هذا التوقع بالنسبة لأولياء الله الذين لا يرغبون في هذه المناصب سوى استجابة لرغبة الناس.

الثاني: إن مسألة المشورة صحيحة؛ ولكن «لكل مقام مقال ولكل حادثة حديث» حقاً ليس هنالك من مجال للمشورة في الأمور الإسلامية القطعية وأوامر الله والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بينما تبدو المشورة مفتوحة في الأمور التنفيذية التي تتنوع أساليبها.

١. «إربة» من مادة «أرب» على وزن «عرب» تعني في الأصل شدة الحاجة التي يجهد الإنسان من أجل قضائها.

فالإمام عليه السلام يقول: لا تتوقعوا أن أستشيركما في القضايا المهمة كالعدل وإعادة الأموال المنصوبة على عهد عثمان إلى بيت المال والتسوية في العطاء، وسوف لن اتردد في هذه المشورة إن كان إليها من سبيل.

❦❦❦

## القسم الثاني

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسُوءَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَىٰ مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجِ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَغَ اللَّهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَىٰ فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَاللَّهِ، عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُنْبَىٰ. أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ.

ثم قال عليه السلام: رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَىٰ صَاحِبِهِ.

## الشرح والتفسير

### حكم الله

ركّز الإمام عليه السلام هنا على أحد الإشكالات الرئيسية لطلحة والزيبر وأمثالهما على الإمام في التسوية في العطاء من بيت المال فقال: «وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسُوءَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلَا وَلِيَّتُهُ هَوَىٰ مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ».

المفردة «أسوة» وإن استعملت غالباً بمعنى الإقتداء والاتباع ولم تذكر لها المصادر اللغوية معنى آخر غير هذا المعنى<sup>١</sup>؛ إلا أن بعض اللغويين صرحوا بأن

١. راجع كتاب «العين» و«لسان العرب» و«مجمع البحرين» مادة «أسوة». قال المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان» في ذيل الآية ٢١ من سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوءَةٌ حَسَنَةٌ﴾: «أي قدوة صالحة يقال: لي في فلان أسوة. أي لي به إقتداء... اسم وضع موضع المصدر، وطبق هذا البيان «أسوة» بمعنى الإقتداء»

أحد معانيها، المساواة، ومن هنا يقال لمن افلس: «المال أسوة بين الغرماء». فإن اعتبرنا معنى «أسوة» حسب المتعارف (الإقتداء) فيكون مفهوم العبارة أن طلحة والزبير وأمثالهما اعترضوا على الإمام عليه السلام: لم لم تقتد بسيرة عمر وعثمان؟ فأولئك كانوا يراعون شأن الشخص واسمه وعنوانه في العطاء ولم يسووا في العطاء بين المسلمين قط.

ثم قال: «قَلَمَ أَخْتَجِ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَاللَّهِ، عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُنْبِي<sup>١</sup>».

واختتم الإمام عليه السلام كلامه بالدعاء له ولهم موصياً إياهم بالثبات على الحق والصبر عليه فتضرع قائلاً: «أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَاللَّهِمَّنا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ».

من الواضح أن الحق مرير في أغلب المواقع ويصعب تحمله، وهذا ما يجعل الإنسان أحياناً لا يرى الحق ولو رآه لا يحتمله، لذلك يطلب الإمام عليه السلام من الله شيئين؛ الأول أن يريه والآخرين الحق كما هو، ومن ثم يتلطف عليه بتحمل مرارته.

ورد في إحدى قصار كلمات «نهج البلاغة» أنه عليه السلام قال: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِئْسَ<sup>٢</sup>» ثم قال عليه السلام: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ».

<sup>١</sup> وله وضع الاسم المصدري، ويشهد على ذلك تعبير القرآن: «فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ» ولم يقل: «رسول الله أسوة»، وكان الاقتداء بشخص يوجد نوعاً من المساواة به فقد وردت أسوة بمعنى المساواة وهذا المراد بها في هذه العبارة.

ومن هنا قال الإمام إنما اقتديت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعملت بسيرته.

١. «عُنْبِي» من مادة «عتب» على وزن «خطب» تعني في الأصل الانزعاج الباطني وإذا وردت في باب الأفعال عنت إزالة هذا الانزعاج وبما أن عتاب الطرف المقابل أحد أسباب إطفاء غضبه، فإن العنبي ترد بمعنى العتاب وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة. والإمام عليه السلام يقول لطلحة والزبير ليس لكما حق عتابي والإنكار علي.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٧٦.

## تأملات

## ١. علة التسوية في العطاء

لو ولي أمير المؤمنين علي عليه السلام الخلافة الظاهرية عقب رسول الله صلى الله عليه وآله لما كانت هنالك من مشكلة، لأنه كان سيواصل سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إلا أن الطامة الكبرى أن الإمام تولّاها حين اعتاد المسلمون أنواع التمييز على عهد الخليفة الثاني وأعظم منها على عهد عثمان وكان من الصعب عليهم للغاية تغيير ما اعتادوا عليه وكانت جلّ جهود الإمام تتركز على القضاء على تلك السياسات العنصرية، والسبب الرئيسي للحروب كالجمل وصفين إنما يقف وراءها أنصار التمييز العنصري.

لا شك أن طلحة والزبير كانا من السابقين إلى الإسلام وكان لهما دور مهم في نصرته الدين، كما كانت لهما مواقفهما المعروفة في الدفاع عن النبي في أغلب الغزوات الإسلامية؛ إلا أن الانحراف عن المنهج النبوي الذي شهدته عهد الخليفة الثاني والثالث وما رصدا من امتيازات خاصة لهذين وأمثالهما من بيت المال جعلهما يعتادان الابتزاز، ومن هنا تعالت أصواتهما منذ البداية حين وقف الإمام عليه السلام بحزم بوجه تلك الامتيازات، وعلى غرار الدهشة التي أصابت الناس في العصر الجاهلي حين تبدلت الهتهم المتعددة إلى الإله الواحد القهار فقد أصيب هؤلاء بالذهول لتغيير ذلك المنهج فاعترضا على الإمام، لم لم يستشرهما، ولم يتوقعا هذه المشورة في تقسيم أموال بيت المال، بل توقعاها في توزيع المناصب والمقامات الحساسة، وبالتالي كانا يطمعان بحصّة ولم يصدّقا أن الإمام بهذا الحزم سيعيد الأمة إلى منهج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ولما طاشت احلامهما استعرت نيران الحقد في قلوبهما واستحوذت عليهما الأفكار الشيطانية فأججا نيران الحروب التي احترقا بلهيبها.

جدير بالذكر أن أموال بيت المال على نوعين؛ قسم منه كالزكاة الذي له عدّة مصارف ويمكن ترجيح البعض على البعض الآخر (بما يناسب جهودهم)؛ مثلا

«الْمَوْلَفَةُ قُلُوبُهُمْ» و«الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا» أو القضاة وأمثالهم كان كل يتسلم سهماً من الزكاة بما يتناسب وموقعه وجهده، كما كان النبي ﷺ يميز بين المشاة والفرسان في القنائم؛ إلا أن قسماً مهماً من الدخل كالخراج الذي يؤخذ من الأراضي الخراجية<sup>١</sup> والتي تشكل مبالغ طائلة فلا بد من توزيعها بالسوية على المسلمين.

بالضبط كالشيء الموقوف على الأولاد والذين ينبغي أن يأخذوا منه بالتساوي كيفما كانوا وكالدعم الذي يدفع في عصرنا من بيت المال الذي يتساوى فيه رئيس الجمهورية والإنسان العادي، وأدنى امتياز لشخص دون شخص مرفوض.

وقد شهد عصر الخليفة الأول، المنهج النبوي ومساواة الجميع؛ إلا أن التمييز بدأ منذ عهد عمر بشهادة التواريخ المعتمدة وبلغ ذروته على عهد عثمان واستمر ذلك ٢٢ سنة حتى أصبح هذا الفعل الشنيع بالتدرج سنة.

ولترك الكلام هنا لابن أبي الحديد الذي بين خفايا مهمة بالاستناد إلى التواريخ والروايات فكشف النقاب عن أغلب أسرار عصر الخلفاء وحكومة أمير المؤمنين علي عليه السلام، فقد أورد شرحاً مسهباً هذه خلاصته:

«ثم بويح - الإمام علي عليه السلام - وصعد المنبر في اليوم الثاني من يوم البيعة، وهو يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة بقين من ذي الحجة، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمداً صلى عليه، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام، ثم ذكر الدنيا، فزهدهم فيها، وذكر الآخرة فرغبهم إليها، ثم قال:

أما بعد، فإنه قبض رسول صلى الله عليه... ثم إلتفت عليه يميناً وشمالاً، فقال: ألا يقولن رجال منكم غداً قد غرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فيقيمون ذلك،

١. «الأراضي الخراجية» الأراضي التي تقع بيد المسلمين في الفتوحات الإسلامية وتوضع تحت تصرف المزارعين ويؤخذ منهم بالمقابل ضرائب تدعى «الخراج» والذي يبدو كثيراً بالنظر لسعة تلك الأراضي.

ويستنكرون يقولون: حَرَمَنَا ابن أبي طالب حَقوقنا! ألا وأَيُّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يرى أن الفضل له على مَنْ سواه لصحبته، فَإِنَّ الفضل النير غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأَيُّما رجل استجاب لله وللرسول، فصدق ملتناً، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسّم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحدٍ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا، فَإِنَّ عندنا ما لا تقسّمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلا حضر، إذا كان مسلماً حرّاً، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ثم نزل.

فلما كان من الغد، غدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: إبدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعط كلّ رجل ممن حضر ثلاثة دنانير، ثم ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك. فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقته اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك، فأعطى كلّ واحد منهما ثلاثة دنانير، ولم يفضل أحد على أحد، وتخلف عن هذا القسم يومئذٍ طلحة والزبير، وعبدالله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها.

قال: وسمع عبيد الله بن أبي رافع عبدالله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد: ما خفي علينا أمس كلام عليّ، ما يريد؟ فقال سعيد بن العاص - والتفت إلى زيد بن ثابت: إيتاك أعني وأسمعي يا جارة، فقال عبيد الله بن أبي رافع لسعيد وعبدالله بن الزبير: إن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾<sup>١</sup>.

ثم إن عبيد الله بن أبي رافع أخبر عليّاً عليه السلام بذلك، فقال: «وَاللَّهِ إِنْ بَقِيَتْ وَسَلِمَتْ



لَهُمْ لِأَقِيمَنَّهُمْ عَلَى الْمَحَبَّةِ الْبَيضَاءِ، وَالطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، قَاتِلَ اللَّهِ ابْنَ الْعَاصِ! لَقَدْ عَرَفَ مِنْ كَلَامِي وَنَظْرِي إِلَيْهِ أَمْسَ أَنِّي أُرِيدُهُ وَأَصْحَابَهُ مِمَّنْ هَلَكَ فِيمَنْ هَلَكَ.

فقال، فبينما الناس في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير وطلحة، فجلسا ناحية عن علي عليه السلام، ثم طلع مروان وسعيد وعبدالله بن الزبير، فجلسوا إليهما، ثم جاء قوم من قريش فانضموا إليهم، فتحدّثوا نجياً ساعة! ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فجاء إلى علي عليه السلام، فقال: يا أبا الحسن، إنك قد وترتنا جميعاً، أمّا أنا فقتلت أبي يوم بدر صبراً، وخذلت أخي يوم الدار بالأمس، وأمّا سعيد فقتلت أباه يوم بدر في الحرب - وكان ثور قريش - وأمّا مروان فسخت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه، ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبدمناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنّا ما أصبناه من المال في أيام عثمان، وأن تقتل قتلته، وإنا إن خفناك تركناك، فالتحقنا بالشام.

فقال: أمّا ما ذكرتم من وتري إيتاكم فالحق وتركم، وأمّا وصعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم، أمّا قتلي قتلة عثمان فلو لزمني قتلتهم اليوم لقتلتهم أمس، ولكن لكم عليّ إن خفتُموني أن أومنكم وإن خفتكم أن أسيركم.

فقام الوليد إلى أصحابه فحدّثهم، فافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف، فلما ظهر ذلك من أمرهم، قال عمار بن ياسر لأصحابه، قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم فإنه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف والطعن على إمامهم، وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير والأعسر العاق - يعني طلحة.

فقام أبو الهيثم وعمّار وأيوب وسهل بن حنيف وجماعة منهم، فدخلوا على علي عليه السلام، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أنظر في أمرك وعاتب قومك، هذا الحيّ من قريش، فإنهم قد نقضوا عهدك، وأخلفوا وعدك، وقد دعونا في السر إلى رفضك، وهداك الله لرشدك! وذاك لأنهم كرهوا الأسوة، وفقدوا الأثرة، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم

أنكروا واستشارك عدوك وعظّموا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة، وتألفاً لأهل الضلالة، فرأيك.

فخرج علي عليه السلام فدخل المسجد، وصعد المنبر مرتدياً بطاق، مؤتزرأ ببرد قطري، متقلداً سيفاً، متوكئاً على قوس، فقال:

أما بعد، فإننا نحمدُ الله رَبَّنَا وإِلَهَنَا وَوَلِيَّنَا، وَوَلِيَّ التَّعَمِّ عَلَيْنَا، الَّذِي أَصْبَحَتْ نِعْمُهُ عَلَيْنَا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، امْتِنَاناً مِنْهُ بِغَيْرِ حَوْلٍ مِنَّا وَلَا قُوَّةٍ، لِيَبْلُونَا أَنْشُكْرَ أَوْ نَكْفُرَ، فَمَنْ شَكَرَ زَادَهُ وَمَنْ كَفَرَ عَذَّبَهُ، فَأَفْضَلُ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنَزَلَةً، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْ اللَّهِ وَسِيلَةً أَطْوَعُهُمْ لِأَمْرِهِ وَأَعْمَلُهُمْ لَطَاعَتِهِ، وَأَتَّبَعُهُمْ لِسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَأَحْيَاهُمْ لِكِتَابِهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ عِنْدَنَا فَضْلٌ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ الرَّسُولِ، هَذَا كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهَرِنَا، وَعَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ وَسِيرَتِهِ فِينَا، لَا يَجْهَلُ ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ عَانِدٌ عَنِ الْحَقِّ، مُنْكَرٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾<sup>١</sup>.

ثُمَّ صَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ، أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُجِبُ الْكَافِرِينَ.

ثم قال: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، أَتَمْنُونَ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِإِسْلَامِكُمْ، بَلِ اللَّهُ يَمَنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

ثم قال: أَنَا أَبُو الْحَسَنِ - كَانَ يَقُولُهَا إِذَا غَضِبَ - ثُمَّ قَالَ: أَلَا إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَمَنُّونَهَا وَتَرْتَغِبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحْتُمْ تُغْضِبُكُمْ وَتَرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلَا مَنَزَلِكُمْ الَّذِي خَلَقْتُمْ لَهُ، فَلَا تَغْرَنَكُمْ فَقَدْ حَذَرْتُمُوهَا، وَاسْتَمْتُوا نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ لِأَنْفُسِكُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَالذُّلِّ لِحُكْمِهِ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فَأَمَّا هَذَا الْفِي، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فِيهِ أَثَرَةٌ، وَقَدْ فَرَّغَ اللَّهُ مِنْ قِسْمَتِهِ، فَهُوَ مَالُ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْمُسْلِمُونَ، وَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ بِهِ أَقْرَرْنَا وَلَهُ أَسْلَمْنَا، عَهْدُ نَبِيِّنَا بَيْنَ أَظْهَرِنَا فَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِهِ فَلْيَتَوَلَّ كَيْفَ

شَاءَ فَإِنَّ الْغَامِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالْحَاكِمَ بِحُكْمِ اللَّهِ لَا وَحِشَةَ عَلَيْهِ.

ثم نزل عن المنبر، فصلّى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر، وعبدالرحمن بن حسل القرشي إلى طلحة والزبير، وهما في ناحية المسجد، فأتياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام، فقال لهما: نَشِدْتُكُمَا اللَّهَ، هَلْ جِئْتُمَانِي طَائِعِينَ لِلْبَيْعَةِ، وَدَعَوْتُمَانِي إِلَيْهَا، وَأَنَا كَارِهِ لَهَا!

قالا: نعم.

فقال عليه السلام: غَيْرَ مُجْبِرِينَ وَلَا مَقْسُورِينَ، فَأَسْلَمْتُمَا لِي بَيْعَتِكُمَا وَأَعْطَيْتُمَانِي عَهْدَكُمَا!

قالا: نعم.

قال: فَمَا دَعَاكُمَا بَعْدَ إِلَى مَا أَرَى.

قالا: أعطيناك بيعتنا على ألا تقضي الأمور ولا تقطعها دوننا، أن تستشيرنا في كل أمر ولا تستبد بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت، فأنت تقسم القسم وتقطع الأمر، وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.

فقال: لَقَدْ تَقَمَّتُمَا يَسِيرًا! وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا! فَاسْتَغْفِرَا اللَّهَ يَغْفِرَ لَكُمَا، أَلَا تُخْبِرَانِي أَدْفَعْتُمَا عَن حَقٍّ وَجَبَ لَكُمَا فَظَلَمْتُمَا إِيَّاهُ؟

قالا: معاذ الله!

قال: فَهَلْ اسْتَأْثَرْتُ مِنْ هَذَا الْمَالِ لِنَفْسِي بِشَيْءٍ؟

قالا: معاذ الله!

قال: أَفَوَقَعَ حُكْمَ أَوْ حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَجَهَلْتَهُ أَوْ ضَعَفْتُ عَنْهُ؟

قالا: معاذ الله!

قال: فَمَا الَّذِي كَرِهْتُمَا مِنْ أَمْرِي حَتَّى رَأَيْتُمَا خِلَافِي؟

قالا: خلافاك عمر بن الخطاب في القسم، أنك جعلت حقنا في القسم كحق

غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا

وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، أخذناه قسراً قهراً، ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً.

فقال: فأما ما ذكرتمناه من الاستشارة لكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها، وجعلتموني عليها، فخفت أن أردكم فتختلف الأمة، فلما أفضت إليّ نظرت في كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلاني عليه وأتبعته، ولم أحتج إلى آرائكما فيه، ولا رأى غيركما، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنة برهانه، واحتيج إلى المشاورة فيه لساورتكما فيه، وأما القسم والأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه باديء بدء! قد وجدت أنا وأنتم رسول الله صلى الله عليه وآله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأما قولكما: جعلت فينا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقد يماً سبق الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلم يفضلهم رسول الله صلى الله عليه وآله في القسم، ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه مؤف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر، ثم قال: رحم الله أمراً رأى حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه.

ثم قال ابن أبي الحديد:

فإن قلت: فإن أبا بكر قسم السواء، كما قسمه أمير المؤمنين عليه السلام ولم ينكروا ذلك،

كما أنكروا أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إن أبا بكر قسم محتدياً لقسم رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما ولي عمر الخلافة وفضل قوماً على قوم ألقوا ذلك، ونسوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر، وأشربت قلوبهم حب المال... ولما ولي عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فازداد وثوق القوم بذلك، ومن ألف أمراً شق عليه فراقه، وتغيير العادة فيه،

فلما ولي أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبيه بكر، وقد نسي ذلك ورفض، تخلل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشقّ عليهم وأنكروه وأكبروه، حتى حدث ما حدث من نقض البيعة، ومفارقة الطاعة والله أمر هو بالغه»<sup>١</sup>.

## ٢. مكانة المشورة

لا شك في أنّ المشورة من الأصول الإسلاميّة المسلمة ولدى عقلاء العالم والتي تشرك إلى العقل سائر العقول كما ورد في الخبر «مَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهُمْ فِي عُقُولِهِمْ»<sup>٢</sup> إلا أنّ لها بعض الشروط والأركان إن لم تراعى فهي لا تفقد جدواها فحسب؛ بل تعطي أحياناً نتائج معكوسة، ومن ذلك أنّ المشورة لا بدّ أن تكون في الأمور التي تخضع للتردد والنفي والإثبات ولو أراد الناس التشاور في الأمور المسلمة والأحكام فلربّما أدّى ذلك إلى الريبة في أصل الأحكام الشرعيّة والوظائف العقلية المسلمة.

مثلاً لو أراد شخص المشورة في الحج أو الحجاب أو عرضها على الرأي العام فلربّما انبرى من يقول: ما الضرورة لأن يرصد الناس في هذا العصر هذه الأموال الطائلة من أجل الذهاب إلى الحج أو إنّ الحجاب في المجتمع المعاصر قيد مضروب على المرأة!

ولكن إن سلّمنا أنّ الحج أو الحجاب أمر شرعي مقبول لدى جميع المسلمين بل ضرورة دينية، يمكننا الجلوس في شورى كيف يمكن أن يقام الحج وكيف يكون ارتداء الحجاب أفضل؟ ولا بدّ من الإذعان إلى أنّ بعض المشاكل التي أصابت المسلمين بسبب كونهم نسوا المكانة الحقيقية للمشورة.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٧، ص ٢٨-٤٣.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٦١.

وما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة نموذج واضح لهذا المطلب، وما كان ينشده طلحة والزبير انحراف عن هذا الأمر؛ فقد أرادا المشورة في سنة النبي في التسوية بأموال الخراج فرفض الإمام عليه السلام ذلك.

### ٣. طلحة وحلم الخلافة

يستفاد من مختلف المصادر التاريخية أن طلحة والزبير كانا يتطلعان إلى الخلافة منذ أمد بعيد يعود إلى عهد أبي بكر.

ذكر الطبري المؤرخ المعروف، طبق نقل ابن أبي الحديد في تاريخه أن طلحة كان يهم بالخلافة حتى على عهد أبي بكر ويروم أن يجعلها فيه بشبهة أنه ابن عمه، وسخط خلافة عمر فقال لأبي بكر: وليت علينا فظاً غليظاً، وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه ويحادثونه سرّاً في معنى الخلافة ويقولون له: لو مات عمر لبايعناك بغتة، فبلغ ذلك عمر فخطب وهددهم بالقتل.

وذكر ابن أبي الحديد في موضع آخر: إن طلحة والزبير أشادا بعمر الذي ميّز المهاجرين والأنصار على سائر المسلمين (وأعطاهم سهماً أكثر من بيت المال). وكان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين، الخروج في البلدان لأنه يرى أنهم إن خرجوا التفّ حولهم الناس وحصلوا على الأموال وفيهم من يضر الفرقة ويروم خلع الربطة، قال الطبري طبق نقل ابن أبي الحديد: فملته قريش ذلك حتى أنه لم يأذن لهم بالمعارك وقال لهم كفاكم ما أبلتكم في الغزوات مع رسول الله، فلما ولي عثمان أجازهم، فخرجوا إلى البلاد وجمعوا الأموال، فكان ذلك أول وهن على الإسلام وأول فتنة كانت على العامة.

وقال ابن أبي الحديد: وكان عمر نقض هذا الرأي الشديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤة له من أمر الشورى، فإن ذلك كان سبب كل فتنة وقعت وتقع إلى أن تنقضي الدنيا.

ويتضح من هذه السابقة التاريخية لماذا انزعج طلحة والزبير من خلافة علي عليه السلام في حين بذلا قصارى جهدهما من أجل تأليب الناس على قتل عثمان، على أمل أن يأتي الدور لطلحة، ولما منعهما علي عليه السلام المنصب والمقام (لأنه يعلم أن ذلك مقدمة لتقسيم البلد الإسلامي) بل قطع امتيازاتهما من بيت المال وساوى بين المسلمين حذو النهج النبوي، تمردا عليه وتواطئا مع عائشة ضد أمير المؤمنين عليه السلام، في اشعال فتيل حرب الجمل، وبعد تلك الهزيمة ومقتلهما أثار أتباعهما معركة صفين لتسلم بني أمية بالتالي مقاليد العالم الإسلامي، ثم خلفهم بنو مروان الذين أثاروا ذلك الفساد العظيم.

ومن هنا يتضح أن مشكلة طلحة والزبير لم تكن المشورة بل حتى التسوية في العطاء كانت قضية فرعية؛ كانت مشكلتهما الطمع في الخلافة، وماسبق لم يكن سوى حجج وذرائع.

## وَمِنْ كَلَامِ إِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي السَّيِّدِ

وَقَدْ سَمِعَ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَسُبُّونَ أَهْلَ الشَّامِ  
أَيَّامَ حَرْبِهِمْ بِصَفَيْنَ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

ورد في كتاب «مصادر نهج البلاغة» أنّ حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وهما من أصحاب علي عليه السلام المعروفين كانا يسبان أهل الشام (في أيام صفين) فدعاهما الإمام ونهاهما، فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحق؟ قال: بلى! قالوا: أليسوا على الباطل؟ قال: بلى! قالوا: فلم تنهانا عن سبهم؟ قال: إني أكره لكما أن تكونا سبائين، وواصل كلامه فأراهم السبيل الفصل بالدعاء لهم إلى الهدى ووحدة المسلمين واطفاء نار الحرب، ويشير هذا الكلام إلى أنّ الإمام عليه السلام في الوقت الذي كان فيه حازماً إزاء العدو كان ينهى عن العنف الطائش الذي يعكس ضعف الشخصية.

١. سند الخطبة:

رواه عدد من المحذّثين والمؤرخين قبل السيّد الرضى وبعده؛ مثل أبوحنيفة الدينوري في كتاب «الاجبار الطوال» (ص ١٦٥) ونصر بن مزاحم في كتاب «صفين» (ص ١٠٣) وسبط بن الجوزي في «تذكرة الخواص» (ص ١٤٢) وغيرهم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٣).





إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ خَالَئَهُمْ، كَانَ أَضْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنِ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جِهَلِهِ، وَيَزْعُوبِي عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ.

## الشرح والتفسير

### الدعاء بدل السب!

ما ورد في هذا الكلام درس أخلاقي واجتماعي عظيم يختزن آثاراً كثيرة وهو النهي عن سب العدو ولعنه الذي من شأنه إثارة غضبه وتعميق الكراهية. وكما ذكر فإن الإمام قال ذلك لما سمع بعض أصحابه يسب أهل الشام أيام صفين فقال: «إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ خَالَئَهُمْ، كَانَ أَضْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ».

«سَبَّاب» تطلق على من يكثر السباب، وحقيقة «السب» تتضمن الإساءة للطرف المقابل؛ من قبيل مخاطبة المقابل بكلمة أحق، رذل وأمثال ذلك.

واللعن أحد مصاديق «السب» و«القذف» من مراحل «السب» الشديدة وعليه الحد في أغلب الموارد، قطعاً ليس مراد الإمام في هذا الكلام هذا النوع من السب، لأن القذف حرام ومن الكبائر وليس من المكروهات.

والإمام عليه السلام ينهى أصحابه في هذه الخطبة عن هذا الفعل وإن كان لهم الحق في

مخاطبة العدو بهذا الخطاب ويأمرهم بدلاً من ذلك بنقد أعمالهم القبيحة وصفاتهم الذميمة وإتمام الحجّة عليهم ولتكون أبلغ في التأثير كما تسلب العدو ذريعة المعاملة بالمثل، ولدينا الكثير بخصوص السبّ واللعن نتركه لمبحث التأمّلات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال بيان المصداق الواضح ليعلمهم كيفية التعامل مع العدو في مثل هذه الحالات فقال: «وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ اخْقِنِ أَدِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهَلَهُ، وَيَزْعُغِي<sup>٢</sup> عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ<sup>٣</sup> بِهِ».

فالإمام عليه السلام أورد بهذه العبارة العميقة ثلاثة أدعية أو بعبارة أخرى كانت له ثلاث

طلبات:

الأولى: إطفاء نار الحرب وحقن دماء الطرفين.

الثاني: إشاعة الصلح والسلام بالإضافة إلى وقف الحرب وأن يتحد المسلمون.

الثالثة: يبعد عنهم الضلال الذي أصابهم وحال دون بلوغهم الحق؛ فيتعرف

الجهلة على الحقّ ويكفّ أهل الحق عن مناهضته.

وتكشف هذه الأدعية بجلاء عن مدى سعة صدر الإمام عليه السلام ورأفته ورحمته حتى

بأعدائه، ورغم كلّ تلك الجنایات التي إرتكبوها بحقّ الإمام وأصحابه فلا ينطق

بأدنى ما يكشف عن غضبه وانتقامه، وينهى حتى صحبه عن سبّ العدو والتعرض

له.

١. «اخقن» من «الحقن» على وزن «الحمد» تعني في الأصل حفظ الشيء وإذا استعملت بشأن الدماء عنت منع إراقة الدماء.

٢. «يرعوى» من «رعو» على وزن «رعد» بمعنى الامتناع والعودة عن الفعل. جدير ذكره أنّ المفردة «رعو» تستعمل أحياناً بصيغة الرباعي (رعوى على وزن دعوى) وتفيد نفس المعنى السابق وقال بعض أرباب اللغة المفردة: «ارعوى» من المفردات النادرة ولم يشاهد مثلها في صيغ الأفعال المعتلة. للمزيد راجع «لسان العرب» مادة «رعو».

٣. «لهج» من مادة «لهج» على وزن «هرج» بمعنى التعلق والولع بالشيء والحرص عليه.

## تأمل

## السبّ واللعن

صرح أغلب أرباب اللغة بأن «السبّ» هو الشتم، واعتبر البعض، اللعن من مصاديقه<sup>١</sup>. طبعاً لا ينبغي سبّ أي مؤمن أو لعنه، والأولى تركه حتى بالنسبة للكفار والمخالفين، ذلك لأنه ينطوي على أمرين سلبيين: الأول: إنّ الطرف المقابل يعمد إلى المعاملة بالمثل فيسيء إلى المقدّسات، لذلك ورد في الآية ١٠٨ من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. الآخر: أنّ هذا السبّ ربّما يثير المقابل فيصرّ على كفره وضلاله ويزداد كفراً وضلالاً. ولكن لهذه القاعدة كما لغيرها من القواعد الكلية استثناءات، ومن هنا ورد بعض السبّ للمخالفين، في «نهج البلاغة» أو عبارات سائر المعصومين عليهم السلام كما لعن البعض في القرآن الكريم.

مضى في الخطبة ١٩ من نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام قال للأشعث بن قيس المناق الذي كَلَّمَ الإمام بكلمات خارجة عن الأدب: «عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ حَائِكِ ابْنُ حَائِكِ مُنَافِقُ بْنُ كَافِرٍ».

كذلك حين أسر مروان في المعركة وجيء به إلى الإمام عليه السلام شفع له الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام عند أبيهما فأطلقه الإمام عليه السلام، فقال الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام: يا أمير المؤمنين! يبايعك مروان؟ قال الإمام عليه السلام: ألم يبايعني بعد قتل عثمان لا حاجة لي ببيعته «إِنَّهَا كَفُّ يَهُودِيَّةٍ»<sup>٢</sup>.

ولكن سبّ المؤمن التقي يعدّ من الكبائر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ وَأَكْلُ لَحْمِهِ مَعْصِيَةٌ وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ»<sup>٣</sup>.

١. راجع «المصباح المنير» و«لسان العرب». وروى هذا المعنى المرحوم المحقق الخوئي في شرحه لنهج البلاغة.

٢. للوقوف على المزيد راجع الجزء الثالث من هذا الشرح.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٢ و ٣.

وورد في حديث آخر أن رجلاً قال للنبي الأكرم ﷺ: أوصني! فكان ممّا أوصاه النبي أن قال: «لا تُسبوا النَّاسَ فَتَكْسِبُوا الْعِدَاوَةَ بَيْنَهُمْ»<sup>١</sup>.

جدير ذكره أنّ أصحاب معاوية وإن كانوا من المنافقين والظلمة والمفسدين فإنّ الإمام عليه السلام نهى أصحابه عن سبهم أيام صفين، فالسبّ في تلك الظروف العصيبة ربّما كان يوسع دائرة الحرب.

أمّا بشأن اللعن فالذي يستفاد من آيات القرآن أنّ الله لعن البعض وأذن بلعنهم ولعن الشيطان فقال: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ»<sup>٢</sup>.

وقال في المرتدين: «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»<sup>٣</sup>.

وقال في الظلمة: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ»<sup>٤</sup>.

وفي الناكثين وقاطعي الرحم والمفسدين في الأرض: «أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»<sup>٥</sup>.

وفي الذين يكتمون الحق: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ»<sup>٦</sup>.

لا شك في أنّ اللعن في اللغة بمعنى الطرد والإبعاد الذي يتمّ أحياناً بصيغة عملية وأخرى لفظية أو دعاء؛ كأن يقال مثلاً: «لعنة الله عليك».

من المسلّم به أنّه لا يمكن لعن أيّ مؤمن؛ أمّا الكفّار والمنافقون والذين يرتكبون الكبائر كالظلم والجور والفساد في الأرض وأمثال ذلك إنّما يستحقون اللعن، وعليه فلا يختص اللعن بالكفّار والمنافقين.

﴿﴾

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٦٠، باب السباب، ح ٢ و ٣.

٢. سورة ص، الآية ٧٨.

٣. سورة آل عمران، الآية ٨٧.

٤. سورة هود، الآية ١٨.

٥. سورة الرعد، الآية ٢٥.

٦. سورة البقرة، الآية ١٥٩.

## وَمِنْ كَلَامِ لَيْثِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي بَعْضِ أَيَّامِ صَفِينٍ وَقَدْ رَأَى الْحَسَنَ ابْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
يَتَسَرَّعُ إِلَى الْحَرْبِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

يختص هذا الكلام القصير لأmir المؤمنين علي عليه السلام بحفظ الإمام الحسن والإمام الحسين من الأخطار ليدوم بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تحقق هذا المعنى فيتصل اليوم نسب الملايين بواسطة الإمام الحسن أو الإمام الحسين عليهما السلام بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن هذه الجذور المباركة لتعمق في العالم كل يوم.

❦❦❦

١. سند الخطبة:

نقل الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٢٧ للهجرة عبارة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام تشبه عبارة بعض هذا الكلام؛ لكن ليس في يوم صفين بل في موضع آخر ويتضح من ذلك أن الإمام عليه السلام بين هذه العبارات في عدة مواضع. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٠٣).



أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِنِي، فَإِنِّي أَنفُسُ بِهِذَيْنِ (يَعْنِي الْحَسَنَ  
وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) عَلَى الْمَوْتِ لِنَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

## الشرح والتفسير

### حفظ نسل النبي ﷺ

أوصى الإمام علي عليه السلام صحبه بالإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام يوم صفين بغية الحفاظ على هدف مهم فقال: «أَمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِنِي ١، فَإِنِّي أَنفُسُ ٢ بِهِذَيْنِ (يَعْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) عَلَى الْمَوْتِ لِنَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

التعبير «أملكوا» من مادة «ملك» تأكيد للحيلولة عن مسارعة الإمام الحسن عليه السلام لميدان القتال، لأنَّ الإنسان إن ملك شيئاً صار تماماً تحت تصرفه وهذا أعظم تأكيد يمكن استعماله بشأن صدِّ الشخص عن أمر، ومن هنا قال المرحوم السيّد الرضي عليه السلام في ختام هذا الكلام: «هذا من أعلى الكلام وأفصحه».

العبارة «لا يهدني» تأكيد آخر لهذا المعنى، كأنه عليه السلام يريد القول: لو قتل الحسن والحسين سيفني وجودي.

وكي لا يتصور أنَّ هذه التأكيدات من جانب الإمام عليه السلام تستند لمجرد عاطفة

١. «لا يهدني» من مادة «هد» على وزن «سد» تعني في الأصل الإنهزام والانهيار المقرون بصوت شديد. ثم استعمل في الأمور المعنوية فاطلق على الحزن الذي يعكروح الإنسان من قبيل ما ورد في العبارة المذكورة.  
٢. «أنفس» من مادة «نفس» على وزن «نفس» بمعنى الشج وحفظ الشيء وعدم فقدان الأشياء النفيسة التي لا يريد الإنسان فقدانها بسهولة.



الأبوة فقد بين عليه السلام: إني أنشد هدفاً عظيماً في أن يبقى نسل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في العالم عن طريقهما، وهذا بحد ذاته أحد أسباب ديمومة الإسلام.

❦❦❦

قال السيد الشريف: وَقَوْلُهُ عليه السلام: «أَمَلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ» مِنْ أَعْلَى الْكَلَامِ وَأَفْصَحِهِ.

مراد السيد الرضي عليه السلام أن العبارة «أَمَلِكُوا عَنِّي» تأكيد بليغ ولطيف لهذا المعنى أن سارعوا واجتهدوا واحفظوا هذا الفتى، لأن الإنسان يبذل قصارى جهده للمحافظة على أملاكه، وهذه أبلغ عبارة في الحفظ والاستعادة.

## تأمل

### شبهات وردود

١. لا شك في أن عمر الإمام الحسن المجتبي عليه السلام آنذاك كان أكثر من ثلاثين سنة، حيث ولد في السنة الثالثة للهجرة وحادثه صفيان كانت سنة ٣٧ الهجرة، فلم التعبير عنه بالغلام؟

لابد من الالتفات إلى هذه النقطة في الجواب أن هذه المفردة وإن اطلقت على الحد الفاصل بين الطفل والشاب؛ لكنها تطلق كما صرح بعض أرباب اللغة<sup>١</sup> على الكبار أيضاً. أضف إلى ذلك فإن الآباء يستعملون هذه المفردة على الأبناء في مختلف أعمارهم، كما تطلق العرب هذه المفردة على الخدم في مختلف سني أعمارهم.

على كل حال فإن إطلاق كلمة الغلام من قبل الإمام عليه السلام على ولده الإمام الحسن عليه السلام مطلب ليس بمستبعد.

٢. كان للإمام الحسن وكذلك الإمام الحسين عليهما السلام حسبما ذكر آنفاً أكثر من

١. لسان العرب، مادة «غلم».

ثلاثين سنة (الفارق بينهم كان سنة أو أقل) وقطعاً كان لهما زوج وأولاد، فكيف يخشى الإمام انقطاع نسل النبي الأكرم ﷺ؟

نقول في الجواب: كان المراد لبقيا وليبق أكثر عدد ممكن من نسل النبي، ذلك لأن نسل رسول الله ﷺ كان يتعرض إلى مخاطر جدية من عدة جوانب.

٣. كيف ذهب الإمام ﷺ إلى بقاء نسل النبي من خلال هذين الإمامين وذريتهما في حين تنسب العرب نسلها إلى ولدها وليس عن طريق البنت؟ وكلنا نعلم أن الحسن والحسين كانا إبني بنت النبي!

للإجابة عن هذا السؤال لابد من القول إن هذا التفكير يعود إلى الجاهلية الذين لم يروا أي شأن للنساء ولا يعتبرون أبناء بناتهم أبناءهم فأنشدوا في ذلك:

بَنُونَا بَنُو أَبْنَانِنَا وَبَنَاتِنَا  
بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَبَاعِدِ

لذلك حين نزلت آية المباهلة: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ»<sup>١</sup> أجمع المفسرون على أن المفردة «أبناءنا» في هذه الآية الشريفة إشارة إلى الإمام الحسن والإمام الحسين ﷺ و«نساءنا» فاطمة ﷺ، وما أكثر الخطاب «يا ابن رسول الله» لأئمة أهل البيت ﷺ في الروايات.

وقد عدت الآية الشريفة ٨٥ من سورة الأنعام: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَ... عِيسَى» المسيح من ذرية إبراهيم ﷺ، في حين ينتسب إليه من جانب أمه (مريم).



## وَمِنْ كَلِمَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَالَ لَمَّا اضْطَرَبَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ فِي أَمْرِ الْحُكُومَةِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

جاء في كتاب «مصادر نهج البلاغة» في مناسبة هذا الكلام: لما رفع عمرو بن العاص ورهطه المصاحف على أسنة الرماح يوم صفين لخداع جيش علي عليه السلام، وبدت أعلام النصر والفتح ولم يبق على تحقيق النصر الكامل سوى بضع خطوات، انقسم أصحاب الإمام عدّة فئات؛ فئة اعتقدت بأن أهل الشام لم يفعلوا ذلك خدعة؛ بل يريدون حقاً الإحتكام إلى القرآن، وفئة عظيمة أخرى سئمت القتال ولا يرون في أنفسهم القدرة على مواصلته، وكان هذا الموضوع ذريعة لاعتزال القتال والخلود إلى الدعة، وفئة ثالثة كانت من المنافقين التي تكنّ البغض والعداء للإمام عليه السلام وكانت تنتظر الفرصة، فلما رأت المصاحف على الرماح حدّثوا أنفسهم بأن الفرصة قد سنحت للتخلي عن نصرته علي عليه السلام فارتفعت أصواتهم مطالبين بوقف القتال وفئة

١. سند الخطبة:

كان ممن رواها قبل المرحوم السيد الرضي، نصر بن مزاحم في كتاب «صفين» (وقعة صفين، ص ٤٨٤) وابن قتيبة الدينوري في «الامامة والسياسة» (ص ١٠٤) والمسعودي في «مروج الذهب» (ج ٢، ص ٤٠٠). (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٧).

قليلة هي التي أصرت على مواصلة القتال وكان في مقدمتهم مالك الأشتر الذي صرخ بهم، الويل لكم أتعزلون القتال وأوشكنا على النصر؟ أيها الجهال!... ولكن الفئة التي اعتزلت القتال شتمته وهددته وصرخت «المصاحفُ المصاحفُ والرُّجوعُ إليها لا نرى غيرَ ذلك» وأجبرت الإمام عليه السلام على قبول التحكيم.

وهنا أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام فقال ما ملخصه: كنتم تتبعونني وكنت أميركم، أما الآن تريدون أن تكونوا أنتم الأمراء وأنا المأمور، إنكم تريدون الحياة مهما كلف الأمر فكيف يسعني صدكم عن ذلك؟!

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ، حَتَّى نَهَيْتُكُمْ الْحَرْبَ،  
وَقَدْ، وَاللَّهِ، أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ، وَهِيَ لِعِدْوِكُمْ أَنْهَكَ.  
لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأُضْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا،  
فَأُضْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنِيًّا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمْ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أُحْمِلَكُمْ عَلَى مَا  
تَكْرَهُونَ.

## الشرح والتفسير

### رفاق السلاح الجهال

أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام حين أصرَّ عليه أغلب جيشه وخلافاً لرغبته لعدة أسباب على إيقاف القتال والتسليم للتحكيم، حيث يجيب في الواقع عن هذا السؤال: لماذا استسلمتم لمؤامرة عمرو بن العاص في رفع المصاحف على الرماح وقبلتم بالتحكيم، حيث قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ، حَتَّى نَهَيْتُكُمْ الْحَرْبَ، وَقَدْ، وَاللَّهِ، أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ، وَهِيَ لِعِدْوِكُمْ أَنْهَكَ».

هذا الكلام في الواقع إجابة للصامدين في القتال الذين يرون عاقبته النصر، إلا أنهم كانوا للأسف أقلية، فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه الكلمات إلى عذره في قبول مقترح وقف القتال والتحكيم إزاء تلك الأقلية من جانب، ومن جانب آخر إلى يقينه بضرورة مواصلة القتال حتى النصر إزاء تلك الأكثرية التي أتعبها القتال وأن كثرة

١. «نهكتكم» من مادة «نهك» على وزن «سفك»، تعني في الأصل التآكل والقدم وتستعمل في الموارد التي يتعب فيها الإنسان ويهرق.

القتلى لا تبرر الاستسلام لمطالب العدو اللامشروعة.  
ثم أوضح ذلك بالقول: «لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَضْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ  
أَمْسِ نَاهِيًا، فَأَضْبَحْتُ الْيَوْمَ مِنْهِيًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أُحْمِلَكُمُ عَلَى مَا  
تَكْرَهُونَ!».

وهذا أيضاً جواب لفتتين: الأقلية المطالبة بمواصلة القتال حتى النصر والمعتضة  
على قبول التحكيم وإيقاف القتال الذي أوشك على تحقيق النصر، فقال: ما عساني  
أفعل وقد سلبت المبادرة وتعثرت الإمرة وعصيتم وتمردتم، والأكثرية التي  
استجابت لطلب العدو فخاطبها أنها لم تستجب لذلك الطلب حرمة للقرآن، بل  
بسبب حبّ البقاء والتنصل من التضحية في سبيل الله (فتأمل).

## تأمل

### التضحية بالفرصة الكبرى

رقة كلمات أمير المؤمنين عليه السلام إزاء معارضي مواصلة القتال تفيد مدى مرونته،  
والتي ربّما تثير هذا السؤال: لماذا لم يدع الإمام مالك الأشتر ليواصل المعركة التي  
أشرفت على تحقيق النصر وإنقاذ المسلمين من شرّ بني أمية وأتباعهم؟  
والجواب عن هذا السؤال يكمن في تاريخ صفين.

فقد أشرنا في الأبحاث السابقة إلى أنّ معارضي القتال لم يقتصروا على أولئك  
الذين خدعوا بحيلة عمرو بن العاص في تعليق المصاحف على أسنة الرماح، بل  
هناك الفئة الخاوية الإرادة التي لم تكن مستعدة لمواصلة القتال، بالإضافة إلى  
المنافقين ومبغضي الإمام الذين رأوا الفرصة مؤاتية للاصطياد في الماء العكر،  
فاتحدوا جميعاً وأصروا على الإمام بإيقاف القتال.

قال ابن أبي الحديد: فأرسل إلى الأشتر يأمره بالرجوع وترك الحرب، فأبى عليه  
فقال: كيف أرجع وقد لاحت إمارات الظفر! فقولوا له: «ليمهلني ساعة واحدة»، ولم

يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت، فلما عاد إليه الرسول بذلك، غضبوا ونفروا وشغبوا، وقالوا: أنفذت إلى الأشر سرّاً وباطناً، تأمره بالتصميم، وتنهاه عن الكفّ، وإن لم تعد الساعة، قتلناك كما قتلنا عثمان، فرجعت الرسل إلى الأشر فقالوا له: أتحبّ أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سئل عليه خمسون ألف سيف! فقال: ما الخبر؟ قالوا: إن الجيش بأسره قد أحرق به، وهو قاعد بينهم على الأرض، تحته نطع، وهو مطرق، والبارقة تلمع على رأسه، يقولون: لئن لم تعد الأشر قتلناك! قال: ويحكم! فما سبب ذلك؟ قالوا: رفع المصاحف، قال: والله لقد ظننت حين رأيتهما رفعت أنّها ستوقع فرقة وفتنة.

ثم كرّر راجعاً على عقبيه، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر، قد جعله أصحابه بين أمرين: إمّا أن يسلموه إلى معاوية، أو يقتلوه، ولا ناصر له منهم إلا ولداه وابن عمه ونفر قليل لا يبلغون عشرة، فلما رآهم الأشر سبّهم وشتهم، وقال: ويحكم! أبعد الظفر والنصر صبّ عليكم الخذلان والفرقة! يا ضعاف الأحلام! يا أشباه النساء! يا سفهاء العقول! فشتموه وسبّوه، وقهروه.

وقالوا: المصاحف المصاحف! والرجوع إليها، لا نرى غير ذلك! فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم، دفعاً للمحذور الأعظم بارتكاب المحظور الأضعف، فلذلك قال: «كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَضَبَخْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا...»<sup>١</sup>.

تفيد بعض القرائن والشواهد أنّ رفع المصاحف على الرماح كانت من صنع المنافقين وبعض الأفراد في جيش أمير المؤمنين علي عليه السلام وطائفة من أهل الشام بقيادة عمرو بن العاص والأشعث بن قيس، الذين لا يبنون انتصار الإمام عليه السلام<sup>٢</sup>.  
أوردنا بحثاً مطولاً بشأن التحكيم والذي يعتبر مكملًا لهذا البحث فمن أراد المزيد فليراجع ذيل الخطبة ٣٥، الجزء الثاني، الصفحة ٣٦٤.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٣٠ و ٣١.

٢. أنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢١٤.





## وَمِنْ كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بِالْبَصْرَةِ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَى الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ - وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ - يَعُودُهُ، فَلَمَّا رَأَى سَعَةَ دَارِهِ قَالَ: <sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام كما ورد أعلاه إشارة لقصة عيادة علي عليه السلام لأحد أصحابه في البصرة وهو علاء بن زياد الحارثي (رغم ما ذهب إليه أغلب شراح نهج البلاغة من أنه كان الربيع بن زياد وليس العلاء بن زياد) فقال عليه السلام ذلك لما رأى سعة داره فوعظه وسائر الناس ممن على غراره بموعظة بليغة ويتضمن هذا الكلام ثلاثة أقسام:

الأول: أنها موعظة حيّة للعلاء بن زياد.

الثاني: وعظ ونصح عميق لأخيه، أي عاصم بن زياد الذي عاش حياة على العكس تماماً من أخيه وكان يعيش حياة متقشفة.

الثالث: اجابة عن أسئلة عاصم بن زياد بشأن معيشة الإمام.

#### ١. سند الخطبة:

وردت عدة مصادر ذكرت هذا الكلام ومنها الجزء الأول من أصول الكافي والجزء الأول من العقد الفريد والجزء الرابع من ربيع الأبرار واختصاص الشيخ المفيد وتلبس إبليس لابن الجوزي وقوت القلوب لأبي طالب المكي (ورد جانب من هذه الخطبة في بعض هذه الكتب). وقد التفت لهذه الخطبة العديد من العلماء وذكروها في كتبهم لما تضمنته من جوانب تاريخية وأخلاقية وتربوية. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٠٨).



## القسم الأول

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ  
أُخْوَجَ؟ وَبَلَىٰ إِنَّ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ: تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا  
الرَّحِمَ، وَتَطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعِهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ.

## الشرح والتفسير

### الدار الواسعة

رغم أن هذا الكلام ورد في قضية شخصية بشأن اثنين من أصحاب الإمام عليه السلام لكنه في الواقع مبدأ كلي وخطة عامة في ضرورة الاعتدال في الاستعانة بالوسائل المعاشية، والأمة الإسلامية طيلة التاريخ مشمولة بهذا الخطاب، فالإمام لما شاهد دار العلاء بن زياد الواسعة الفارحة والمؤتته بالتأكيد وبّخه بادئ الأمر ثم نصحه مشفقاً فقال: «مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أُخْوَجَ؟».

اعتاد الناس حين يعودون مريضاً على قول ما من شأنه إراحته والتخفيف عنه، إلا أن معلماً ربانياً كعلي عليه السلام حين يرى صاحبه طريح الفراش الذي ربما لا يعاود النهوض منه لا بد أن يوقظه ويشدّه إلى مصيره ويريه سبيل السعادة ويجرعه مرارة النصح المصحوب بالعتاب، عله يتمائل للشفاء الحقيقي، ثم أراه أسلوب استغلال تلك الثروة الهائلة لنيل سعادة الآخرة فقال: «وَبَلَىٰ إِنَّ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ:

١. قال بعض شراح نهج البلاغة، إن الجملة «كنت» زائدة هنا، والحال ليس الأمر كذلك، بل مراد الإمام عليه السلام منها بيان الاستمرار، لأن مفهوم العبارة ما الذي استفدته من هذه الدار وكانت لك لحد الآن.

تَقْرِي<sup>١</sup> فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّجْمَ، وَتُطْلَعُ<sup>٢</sup> مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ».

فقد أشار عليه السلام إلى حقيقة هي أن المال والثروة ليست مذمومة أو تتعارض مع القيم، بل المهم كيفية إنفاقها، فهي مذمومة إن أدت إلى الفخر والتكاثر والاحتكار. لكنّها تعتبر رصيد الآخرة إن وضع قسم منها تحت تصرف المعوزين والقراية والأصحاب، ومن هنا ذكر المال بصفة «خير» في القرآن: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ<sup>٣</sup>﴾.

جاء في الخبر أن شخصاً ذم الأغنياء عند الإمام الصادق عليه السلام وأساء لهم فقال عليه السلام: «أَسْكُتُ فَإِنَّ الْغَنِيَّ إِذَا كَانَ وَصُولًا لِرَجِيمِهِ، بَارَأَ بِإِخْوَانِهِ أَضْعَفَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْأَجْرَ ضِعْفَيْنِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ»<sup>٤</sup>.

وعليه فإنّ المال من شأنه أن يكون أفضل وسيلة للسعادة إن استغل بصورة صحيحة، كما يمكن أن يكون وسيلة للبوُس والشقاء إن اقترن بالبخل والإسراف والاحتكار.

## تأمل

### الدار الواسعة في الروايات

يستفاد من عدّة روايات أن إحدى علامات سعادة الإنسان، الدار الواسعة «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، الْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ»<sup>٥</sup>.

ووردت في ذلك الباب من «الكافي» سبع روايات بهذا المضمون أو ما يقرب منه

١. «تقري» من «قراء» على وزن «عباء» خدمة الضيف.

٢. «تطلع» من «الطلوع» بمعنى الظهور والبروز وتعني الاظهار من باب الإفعال.

٣. سورة البقرة، الآية ١٨٠.

٤. تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٠٣؛ وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٧٦، ح ١٢٥٢٣.

٥. الكافي، ج ٦، ص ٥٢٦، ح ٧ (باب سعة المنزل).

عن المعصومين عليهم السلام، وأورد المرحوم العلامة المجلسي في الجزء ٧٣ من «بحار الأنوار» عدّة روايات بهذا الخصوص منها ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه اشترى داراً لأحد أصحابه وأشار عليه بالانتقال إليه كون داره صغيرة، فقال: إن والده اشترى تلك الدار (وأنا اتبعه) فقال عليه السلام: «إِنَّ أَبَاكَ كَانَ جَاهِلًا فَهَلْ تَكُونُ كَأَبِيكَ»<sup>١</sup>.

طبعاً هذه الروايات لا تعني أن يتجاوز الإنسان حالة الاعتدال ويقبل على الإسراف، بل تشير إلى ضرورة عدم قناعة الإنسان بالدار الضيقة والصغيرة ذريعة لترك صلة الرحم وعدم استقبال الضيوف. يقال: إن قصدنا دار الأرحام فسيأتون إلى دارنا وهي صغيرة، ومن هنا يتحفظون عن استقبال الضيف أساس الخير والبركة، وإنّ أحد أسباب شيوع ثقافة الدور الصغيرة في عصرنا بغض النظر عن المشاكل الماليّة يتمثل في هيمنة الثقافة الغربية الخالية من العواطف الإنسانيّة والتي لا تقيم وزناً لصلة الرحم ولا إقراء الضيف.

❦❦❦

١. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٥٣، ح ٣٠.



## القسم الثاني

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له؟ قال: ليس العباءة وتخلّي عن الدنيا. قال: عليّ به. فلما جاء قال: يا عدّي نفسي! لقد استهّام بك الخبيث! أما رحمت أهلك وولّدك! أتري الله أحلّ لك الطيبات، وهو يكره أن تأخذها! أنت أهون على الله من ذلك! قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبّسك وجشوبة مأكلك! قال: ويحك، إنّي لست كأنت، إنّ الله تعالى فرّض على أئمة الغدّل أن يُقدّروا أنفسهم بضعة الناس، كيلاً يتبّع بالفقير فقره!

## الشرح والتفسير

### ذم الهروب من الدنيا

لما وعظ الإمام عليه السلام العلاء بن زياد، عرض العلاء قضية أخيه الذي اختار طريقاً مغايراً له، «فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له؟ قال: ليس العباءة وتخلّي عن الدنيا. قال: عليّ به». «فلما جاء قال: يا عدّي نفسي! لقد استهّام بك الخبيث! أما رحمت أهلك وولّدك!».

«عدّي» تصغير «عدوّ» وأراد الإمام عليه السلام بهذه الوسيلة أن يحفزّه لخروجه من مسار الاعتدال من جهة ويعتبر عمله عدواناً على نفسه من جهة أخرى، ثم يتعرض لهذه القضية فيبيّن له أن أعمالك إنّما تنطلق من وساوس الشيطان بالاضافة إلى

١. «استهّام» من مادة «هيم» على وزن «غيم» الحيرة والاضطراب والسير نحو العيب و«استهّام بك الخبيث» أضلك الشيطان.



هوى النفس والتي تؤدي إلى نوع من الازدواجية والارباك في المعيشة.  
ثم ذكره عليه السلام بأنك تظلم أهل بيتك فضلاً عن نفسك دون حجة أو دليل، والسبب وراء كل هذا التفرغ المكرر رفض الإسلام للرهينة ونسيان الدنيا بهذا الشكل والاقبال على العبادة ولا يرى ذلك سوى انحراف عن جادة الصواب كما سيرد تفصيل ذلك.

ثم قال: «أَتَرَى اللهُ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ!».<sup>١</sup>

هذا الكلام في الواقع إشارة إلى دليل لطيف وهو: أنك اعتمدت طريقة ظاناً استنادها لأمر الله، في حين أحلّ القرآن صراحة الطيبات والثياب الطاهرة والأطعمة للجميع «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>١</sup>.

الجملة «أنتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ!» ربما إشارة إلى أن هؤلاء الأفراد الذين يعيشون حياة خاصة ويعتزلون المجتمع الإسلامي، يرون أنهم مميزون للغاية ويظنون أن الاعتزال والإرتياض يميزهم عن الآخرين وكأن الله شرع منهاجاً خاصاً، إنك أهون على الله.

أراد عاصم أن يبرر وضعه: «قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنتَ في خُشُونَةٍ مَلْبَسِكَ وَجُشُوبَةٍ<sup>٢</sup> مَا كَلِمِكَ!».<sup>٣</sup>

فردّ عليه الإمام عليه السلام قائلاً: «وَيْحَكَ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أُمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَّبِعَ<sup>٣</sup> بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ!».<sup>٤</sup>  
وعلى ضوء هذا المنطق فإنّ عامة الناس أحرار في التمتع بلذات الحياة باعتدال

١. سورة الأعراف، الآية ٣٢.

٢. «جشوبة» الخشونة من مادة «جشب» على وزن «جسب» ويقال للخبز دون غيره «جشب».

٣. «يتبع» من مادة «بيع» على وزن «بيع» يهيج، ويأتي أحياناً بمعنى الكثرة والمعنى الأول هو المراد في العبارة.

وبعيداً عن الإسراف والتبذير، أمّا أئمة الدين فلا بدّ أن يقنعوا بالحياة المتواضعة على غرار ضعفاء المجتمع ليواسوا الطبقات الفقيرة والمحرومة كيلا يشعروا بالهم والأسى.

قال ابن أبي الحديد: فما قام علي عليه السلام حتى نزع عاصم العباءة، ولبس ملاءة. وأكد ابن أبي الحديد أنّ موضوع البحث الأصلي لم يكن العلاء بن زياد، بل شخص معروف هو الربيع بن زياد، والربيع بن زياد هو الذي افتتح بعض خراسان، وفيه قال عمر: دلوني على رجل إذا كان في القوم أميراً فكأنه ليس بأمير، وإذا كان في القوم ليس بأمير فكأنه الأمير بعينه! وكان خيراً متواضعاً، وهو صاحب الواقعة مع عمر لما أحضر العمال فتوحش له الربيع، وتكشف وأكل معه الجشب من الطعام، فأقره على عمله، وصرف الباقي، وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم.

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان: أنّ أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرك أن تحرز الصفراء والبيضاء وتقسم الخرثي وما أشبهه على أهل الحرب.

فقال له الربيع: إنني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين (يعني لابن عبد من تقسيم الغنائم مثل رسول الله وعلي)، ثم نادى في الناس: أن اغدوا على غنائمكم، فأخذ الخمس وقسم الباقي على المسلمين، ثم دعا الله أن يميته، فما جمع حتى مات يوم الجمعة!

## تأملات

### ١. ذم عموم الافراط والتفريط

الأمة الإسلامية أمة معتدلة والمسلمون أتباع الإسلام والقرآن بعيدون عن مطلق الافراط والتفريط: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»<sup>٢</sup>.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٣٦ و ٣٧.

٢. سورة البقرة، الآية ١٤٣.

لكن المؤسف أنّ بعض الجهّال أو المفرضين والمعارضين للإسلام يعتمدون الافراط والتفريط ويسعون أحياناً لمنحه صيغة إسلامية.

والبعض وعلى ضوء أن الإسلام أباح الطيبات، فقد أقبل على الكماليات، ويستدل أحياناً بحياة سليمان وفخامة ملكه التي تحدث عنها القرآن.

والبعض الآخر سلك سبيل التفريط فأغلق الأبواب بوجهه وآثر العزلة والتقوقع وحرّم على نفسه الطيبات المحللة، وقد ابتعد الفريقان عن الصراط المستقيم حيث صرح القرآن بأن علماء بني اسرائيل قالوا لقارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>١</sup>.

والحق لو إمتثل قارون وأمثاله هذه المواعظ الاربع ولم ينس نصيبه من الدنيا وجعل رصيده المادي وسيلة لنيل سعادة الآخرة وهب لمعونة المستضعفين بدل الافساد في الأرض، لما طاله قط الغضب الرباني.

وفي حديث معروف عن الباقر عليه السلام قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لِإِخْرَتِهِ وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ»<sup>٢</sup>.

## ٢. التصوف ونتائجه

اعتقد بأنّ بعض الأفراد في اليونان والهند منذ آلاف السنين أنّه بإمكانهم الإتيان بالخوارق أو نيل المراتب المعنوية من خلال الإرتياض والتشدد على النفس في الملذات والأطعمة والأشربة والملبس، كونهم يعتقدون أنّ ترك اللذة سبب قوّة النفس وقدرتها.

وحين انتشر الإسلام تسللت إليه هذه الأفكار من سائر البلدان فخلطه البعض بالزهد وبعض التعاليم الإسلامية فحمّلوا الدين أفكاراً منحرفة وشاذة كانت نتيجتها

١. سورة القصص، الآية ٧٧.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٧٦، كتاب التجارة، ابواب مقدّماتها، باب ٢٨، ح ١.

«التصوف» ولعل الاسم يعود إلى أنهم لبسوا في البداية الثياب الصوفية الخشنة، رغم ما يزعمه بعض المتصوفة من أن مادة هذه المفردة هي الصفاء «صفاء النفس» والحال ليس هنالك أدنى صلة بين هذين اللفظين، فأحدهما أجوف واوي والآخر ناقص واوي، كما وقع في هذا الخطأ من ذهب إلى أنها مشتقة من مفردة «أصحاب الصفة» فصفة من مادة صفف «يعني مضاعف» وصوفي من مادة «صوف» وعليه فهذه المفردة لا تعني سوى لبس الصوف قطعاً.

على كل حال، لهذه الفرقة زعامات يطلق عليهم القطب والشيخ والمرشد وأمثال ذلك ويدعون أن لهم كرامات، وقد انقسموا فئات لكل فئة طريقته وأسلوبها على أثر الاختلافات الداخلية وأهواء الأقطاب، فهذه الفرقة تنظر إلى الأحكام الدينية التي تصطلح عليها بالشريفة أنها قابلة للتوجيه والتغيير، والمحور هو السير الباطني الذي يسمونه (الطريقة)، ومن هنا فهي ترتكب العديد من الذنوب وتفسح المجال لاتباعها لانتهاك الأحكام الشرعية، بعبارة أخرى، تؤمن بأن الشريعة قشر والطريقة لب، والحقيقة «لب اللب».

وعلى هذا الأساس فهي تستقطب الفاسدين والمفسدين والمتهتكين من الأفراد وتعقد حفلات الرقص وتناول المخدرات، وتصر من الناحية العقائدية على «وحدة الوجود» بمعنى «وحدة الوجود» فيدعى أغلب زعمائها بين الفينة والأخرى اتحاد الوجودي بالله، ويصطلحون على هذا الكلام الهجين بالشطحيات، يبدو أن هذه الفرقة ظهرت بالتدرج بين المسلمين منذ القرن الهجري الثاني فانكر عليها ذلك بشدة أئمة أهل البيت عليهم السلام وحذروا المسلمين منهم وربما شدة تفرغ الإمام عليه السلام لعمل عاصم بن زياد رؤيته عليه السلام أن ذلك مقدمة لظهور تلك الفئة في المستقبل.

ورد أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأله: ما تقول في الصوفية التي ظهرت في زماننا، قال:

«إِنَّهُمْ أَعْدَاؤُنَا فَمَنْ مَالَ إِلَيْهِمْ فَهُوَ مِنْهُمْ وَيُحْشَرُ مَعَهُمْ وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَدْعُونَ

حُبْنَا وَيَمِيلُونَ إِلَيْهِمْ، وَيَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ وَيُلْقِبُونَ أَنْفُسَهُمْ بِلَقَبِهِمْ، وَيَأْوِلُونَ أَقْوَالَهُمْ أَلَا  
فَمَنْ مَالَ إِلَيْهِمْ فَلَيْسَ مِنَّا وَإِنَّا مِنْهُ بَرَاءٌ وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ كَانَ كَمَنْ جَاهَدَ  
الْكُفَّارَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»<sup>١</sup>.

وروى البزنطي وإسماعيل عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ ذَكَرَ عِنْدَهُ الصُّوفِيَّةُ  
وَلَمْ يُنْكِرْهُمْ بِلسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَلَيْسَ مِنَّا وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ فَكَأَنَّمَا جَاهَدَ الْكُفَّارَ بَيْنَ يَدَيِ  
رَسُولِ اللَّهِ»<sup>٢</sup>.

تتطوي جميع الفرق الصوفية على انحرافات في القضايا العقائدية والفقهية  
والأخلاقية نوجز بعضها:

١. حيث يرون أنهم أهل الطريقة يعتقدون بأن الطريقة الكامنة في مسار الحقيقة  
وأحكام الشريعة مقدمة في الوصول إلى الطريقة والحقيقة، ولا يولون أهمية  
للمسائل الشرعية ويتخلون عن أكثرها من خلال بعض الحجج والاعذار الواهية.
٢. الوقوع غالباً في مطب التفسير بالرأي للكتاب والسنة فيحملون الكتاب  
والسنة آراءهم ويجيزون لأتباعهم مقارفة بعض الذنوب.
٣. يؤمنون بلزوم طاعة القطب والمرشد وينسبون لأقطابهم العديد من الكرامات  
الموضوعة التي تفوق أحياناً معاجز الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ومن هنا ينتهي بعض  
اتباعهم إلى الشرك فيرى القطب والمرشد كالمعبود فيعبده.
٤. ابتدعوا الكثير في الدين ولكل فرقة بدعتها من قبيل كيفية مجالس الأذكار  
والأوراد وسائر المجالس ومن هنا قلما يحضرون المساجد، فقد أقاموا لهم مراكز  
عبادية ليكونوا أحراراً في الإتيان بأعمالهم.
٥. يؤمن أغلبهم بالتعددية وكل دين سبيل إلى الله ولا يرون كساد متاع الكفر  
والدين.

١. مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ٣٢٣، ح ١٤٢٠٥.

٢. سفينة البحار، مادة «صوف».

٦. من أهم انحرافاتهم، الإيمان بوحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود، حيث يرون مجموعة موجودات العالم شيئاً والله عين ذلك الشيء ومن هنا يرون عبادة الأصنام نوعاً من عبادة الله شريطة عدم تحديد الله في ذلك الصنم. وقد ألفت عدّة كتب من قبل الأعلام والمحققين بشأن انحرافاتهم، وما ورد آنفاً مجرد إشارة<sup>١</sup>.

القضية الأخرى الجديرة بالذكر أنّ التصوف باهت في وسط اتباع أهل البيت عليهم السلام وواسع للغاية في وسط أبناء العامة وينشط العديد من فئات هذه الفرقة وبعقائد مختلفة في البلدان الإسلامية.

والعنصر الرئيسي في هذا الفارق، الإيمان بولاية أهل البيت عليهم السلام ولاسيما الإيمان بوجود المهدي عليه السلام.

وهناك جذور تاريخية واجتماعية مختلفة للتصوف واعتناقه ومنها:

١. هوّل خلفاء بني العباس قضية التصوف بهدف صرف الأنظار عن أهل البيت عليهم السلام الذين يرونهم منافسيهم الحقيقيين للتقليل من أهميّة زهد أهل البيت عليهم السلام وكراماتهم من خلال أدعياء الصوفية وحيث إنّ الصوفية تؤمن بالسير الباطني فهي لا تهدد دنيا المتهافتين عليها، كما حظيت بدعم السياسات المستبدة في عصرنا، كونها تمنع اتباعها من التدخل في السياسة وتعبد الطريق للاستعمار والاستبداد.

٢. الوصول إلى المقامات العرفانية الصوفية - على العكس من بلوغ المقامات العلمية والفقهية كما يعتقدون بأنّ من ارتاض أربعين يوماً وداوم على قراءة بعض الأوراد وإن كان أمياً ربّما يتحوّل إلى ولي من أولياء الله وينال مقامات رفيعة، بينما لا تكفي أحياناً أربعين سنة من الجهد لبلوغ المقامات العلمية الرفيعة.

١. أنظر كتاب: «تجلي الحق» للمؤلف وكتاب «ما يقول العارف والصوفي» لأية الله الميرزا جواد الطهراني عليه السلام وكتاب «التعليم والتربية في الإسلام» للشهيد العلامة مرتضى المطهري عليه السلام وشرح نهج البلاغة للعلامة الخوني عليه السلام «منهاج البراعة» ج ١٣ (ذيل هذه الخطبة) من ص ١٣٢.

٣. بما أنهم ينظرون إلى الشريعة كوسيلة بسيطة ويفسحون المجال عملياً لأتباعهم لمخالفة بعض الأحكام الشرعية فإن أغلب الآثمين والمذنبين والساسة المحترفين الظلمة يتعاطفون معهم بغير حساب، أي أنهم يواصلون ظلمهم وإثمهم، كما يشبعون بصورة كاذبة حسهم الديني، بعبارة أخرى أن تساهلهم في أمور الدين وتركهم أي حزم يؤدي إلى التحاق الأفراد بهم.

قال أحد الفضلاء: لما ألقى القبض عليّ في عهد النظام المباد وحملت إلى رئيس جهاز السافاك في طهران قال لي: سمعت أنك رجل متدين وعالم، لكن قطعاً لست أقل منك تديناً فأنا درويش وألهج بذكر علي ويعطيني كل ما سألته، مع ذلك لا أطيق تحمل معارضة الشاه ولا أتردد في قتل مليون شخص دفاعاً عنه.

ثم قال ذلك الفاضل: أدركت أن التصوف والدروشة تبيح حتى قتل مليون بريء دفاعاً عن الظالمين.

### ٣. الانتفاع بالطيبات

يعتقد البعض أن الزهد يناقض الانتفاع بالنعم الدنيوية وأن الإسلام يعتبر التشدد على النفس والإرتياض وهجران لذائد الدنيا حسناً، والحال ليس الأمر كذلك، وكما أشرنا سابقاً فقد قال تعالى في القرآن: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾<sup>١</sup>.

وقال تعالى في موضع آخر شارحاً أهداف البعثة النبوية وتعاليمها: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>٢</sup>.

١. سورة الأعراف، الآية ٣٢.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

وهناك العديد من الآيات والروايات التي لا يسمح المقام ذكرها، لكن لا بأس بذكر موردين :

أحدهما: ما ورد في هذه الخطبة من ضرورة عيش أئمة العدل المعيشة المتواضعة ومواساة الطبقات الاجتماعية المحرومة بغية ذكرها والعمل على إزالة حرمانها إلى جانب كونها تضامن مع هذه الطبقات.

والآخر: ضرورة القناعة بالقليل وبذل الكثير لإتقاذ المحرومين حين يتعرضون لبعض الأزمات الاجتماعية ويعانون من الضغوط.

وزبدة الكلام الذي يفهم من الروايات أن الانتفاع بنعم الله ضمن الحدود المعقولة والبعيدة عن الإسراف والتبذير ليس مذموماً وتركها لا يعد فضيلة وإن كان تواضع العيش سيما حين فقر البعض وكذلك بالنسبة لأئمة العدل وزعماء المسلمين يعتبر فضيلة.





## وَمِنْ كَلِمَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَقَدْ سَأَلَهُ سَائِلٌ عَنْ أَحَادِيثِ الْبِدْعِ، وَعَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ  
مِنْ اخْتِلَافِ الْخَبَرِ، فَقَالَ عليه السلام:<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة التي تتحدث عن أقسام الحديث والرواية على ثلاثة أقسام:  
القسم الأول: خاض فيه الإمام عليه السلام ببيان أقسام الأحاديث التي في أيدي الناس،  
وقال بينها حق وباطل وناسخ ومنسوخ و... ثم أشار إلى عقاب وضاع الأحاديث  
وبشرهم بنار جهنم على ضوء الحديث النبوي الشريف.  
وذكر في القسم الثاني صفات رواية الحديث فصنفهم أربعة أصناف: المنافقين  
والخاطئين والجاهلين والحفظة الصادقين.  
وخاض في القسم الثالث والأخير في بعض خصائص أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأشار

#### ١. سند الخطبة:

ذكر صاحب «مصادر نهج البلاغة» أن هذا الكلام ورد بسند تام أو مرسل في أغلب المصادر قبل «نهج البلاغة»،  
ومنها كتاب «الكافي» و«تحف العقول» و«الخصال» و«الصدوق» و«الغيبة» و«النعمة» (الكافي، ج ١، ص ٦٢، ح ١؛  
تحف العقول، ص ١٩٢؛ الخصال، ص ٢٥٥، ح ١٢١؛ الغيبة للنعمة، ص ٨١، ح ١٠) وسائر الكتب وبعد السيد  
الرضي و«نهج البلاغة» كالتذكرة لسبط ابن الجوزي و«الاحتجاج» للطبرسي و«أربعين الشيخ البهائي» (تذكرة  
الخواص، ص ١٣٣؛ الاحتجاج، ج ١، ص ٢٩٣؛ أربعين البهائي، ص ٢٨٩). (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١١٥).

إلى كيفية فهمها، واختتمها بالإشارة إلى وعيه التام لأحاديث النبي ﷺ، جدير ذكره أنه ورد في «الكافي» بشأن هذه الخطبة:

عن سليم بن قيس الهلالي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله ﷺ غير ما في أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبي الله ﷺ أنتم تخالفوهم فيها، وتزعمون أن ذلك كله باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله ﷺ متعمدين ويفسرون القرآن بآرائهم؟ قال: فأقبل عليّ وقال: قد سألت فافهم الجواب، وذكر الخطبة عن عليّ مع شيء من الإضافات<sup>١</sup>.

❦

## القسم الأول

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَصِدْقًا وَكُذِبًا، وَنَاسِيخًا وَمَنْسُوخًا،  
وَعَامًّا وَخَاصًّا، وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَحِفْظًا وَوَهْمًا، وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيبًا، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا  
مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

## الشرح والتفسير

### نقد الروايات

منعت الخلافة عقب وفاة النبي ﷺ لمدة طويلة (أكثر من ١٠٠ سنة) تدوين  
السنة لأسباب سترد في محلها، مع ذلك كانت الألسن تتناقل أخبار النبي الأكرم ﷺ  
فكانت تنسب له ﷺ بعض الأخبار المتناقضة، واستغل المنافقون والأعداء الخفيون  
والظاهرون تلك الظروف الذهبية فحاكوا بعض الأكاذيب لصالحهم أو لصالح  
زعمائهم ونسبوها للنبي ﷺ، وإن قام البعض في القرون اللاحقة لتهديب الأخبار  
ووضع معايير الصدق والكذب فانتعش تأليف كتب الحديث والرجال، لكن كما قيل  
فإن منع الكتابة حال دون تدوين الأحاديث.

فقد بين عليؑ بعبارات قصيرة بليغة وعلى وجه الدقة منبع اختلاف الأخبار ليوجزه  
بسته أمور فقال: «إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلًا، وَصِدْقًا وَكُذِبًا، وَنَاسِيخًا  
وَمَنْسُوخًا، وَعَامًّا وَخَاصًّا، وَمُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، وَحِفْظًا وَوَهْمًا».

فأشار عليؑ أولاً إلى السبب الأصلي المتمثل بوجود الحق والباطل التي ربما تشير إلى  
عقيدة الحق والباطل، فأهل الحق يتابعون أحاديث الحق وأهل الباطل يروجون للباطل.

والصدق والكذب الذي يمثل نوعاً آخر للحق والباطل بلباس القول هو عامل آخر. فالكاذبون وضعوا عمداً بعض الأخبار المختلفة ونسبوها للنبي ﷺ وكانوا يتلقون أحياناً أموالاً باهضة من الحكام مثل معاوية وهو السبب الثاني، والسبب الثالث الناسخ والمنسوخ، فالبعض سمع حكم المنسوخ فقط ورواه والبعض الآخر سمع الناسخ ورواه.

والسبب الرابع العام والخاص مثلاً سمع البعض أنّ الله أحلّ للناس المعاملات لكنه لم يسمع الحكم الخاص، أي بعض الاستثناءات، والبعض الآخر روى الاستثناء والذي يتناقض ظاهرياً مع الخبر العام.

المحكم والمتشابه هو السبب الخامس: فبعض الأخبار مثل بعض آيات القرآن تتحمل عدّة وجوه في التفسير ثم ترد لاحقاً بعض الأخبار وتزيل الابهام، وعدم اطلاع الرواة على الحالتين أدى إلى الاختلاف في الرواية.

السبب السادس: الحفظ والوهم فبعض الرواة روى حديث النبي ﷺ بدقة تامة، بينما رواها البعض الآخر على أساس الظن والوهم الذي لا يطابق الواقع، هذه هي الأسباب التي تشابكت مع بعضها وعكرت أجواء الروايات الإسلامية، ثم بدأت هذه الأجواء تظهر في ظل جهود علماء الحديث والرجال وإن ترسبت بعض الروايات الموضوعية.

ثم خاض عليه السلام في ذكر دليل واضح على كلامه فقال: «وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا<sup>١</sup> مَقْعَدَهُ<sup>٢</sup> مِنَ النَّارِ»».

ورد في حديث آخر أنه عليه السلام قال: «قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكَذَابَةُ وَسَتَكثُرُ بَعْدِي أَلْفَمَنْ

١. «فليتبعوا» من «بواء» على وزن «دواء» الرجوع والاطراق ويقال للموضع المستوي والمكان، والمعنى فليتهاها ويسكن.

٢. «مقعد» المكان والمحل وموضع الجلوس ويطلق أيضاً على الوسادة الصغيرة.

كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»<sup>١</sup>.

وقد ورد هذا الحديث في مصادر العامة، ومنها «مستدرك الحاكم» و«سنن ابن ماجة» مع اختلاف طفيف<sup>٢</sup>.

وأكد أغلب الشراح أنّ هذا الحديث يجعلنا نوقن بالكذب على النبي ﷺ لأنّ هذا الحديث إن صدق فمعناه كثرة الكذب على النبي ﷺ حتى خطب المسلمين واعداء الوضاعين بنار جهنم، وإن كان الحديث كاذباً فعلى الأقل أنّ هذا من الكذب الذي نسب للنبي ﷺ.

على كلّ حال، ممّا لا شك فيه أنّ بعض المنافقين والأعداء شهدوا عصر النبي ﷺ وقد أشار إليهم القرآن في عدّة سور، وقد اشتد خط النفاق عقب رحيل رسول الله ﷺ؛ حيث كان هؤلاء أحد أسباب وضع الأحاديث، وطائفة أخرى خاضت في الوضع لجهلها بالناسخ والمنسوخ وعدم تمييزها بين المحكم والمتشابه والعام والخاص وهذا ما عكر صفو الأحاديث، واضطر علماء الحديث والرجال لبذل جهودهم ليعيّنوا معايير الحديث ويميزوا الصحيح من السقيم، وهذا ما سنشير له في ختام الخطبة.

❦❦❦

١. الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٤٦.

٢. مستدرك الحاكم، ج ١، ص ١١١ و١١٣؛ سنن ابن ماجة، ج ١، ص ١٤.



## القسم الثاني

وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةٌ رِجَالٌ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ، مُتَّصِنٌ بِالإِسْلَامِ، لَا يَتَأْتَمُّ وَلَا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُتَعَمِّدًا، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأَاهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أُخْبِرَكَ اللهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أُخْبِرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أُمَّةِ الضَّلَالَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمْ الأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ المُلُوكِ وَالدُّنْيَا، إِلا مَنْ عَصَمَ اللهُ، فَهَذَا أَحَدُ الأَرْبَعَةِ.

## الشرح والتفسير

### وضع المنافقين للحديث

كان ما مضى إشارة إجمالية عميقة المعنى لمختلف العناصر التي تقف وراء اختلاف وتعارض أحاديث النبي ﷺ، وقد خاض الإمام عليه السلام هنا في شرح ذلك الكلام فقسم الرواة إلى أربعة أصناف وشخص موقف كل صنف بصورة دقيقة. والواقع أن الإمام عليه السلام اعتمد في هذه الخطبة أحد فنون الفصاحة والبلاغة الذي يتمثل في أسلوب الإجمال والتفصيل والذي ورد كراراً في القرآن ليضع مخاطبيه بدقّة في واقع الحدث، حيث خاطب عليه السلام السائل الذي استهل به الخطبة - وإن كان الخطاب للجميع - فقال: «وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةٌ رِجَالٌ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ».



ثم تحدث الإمام عليه السلام عن الطائفة الأولى بصفاتها العامل الأصلي للاختلاف فقال: «رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ، مُتَّصِعٌ<sup>١</sup> بِالْإِسْلَامِ، لَا يَتَأَنَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ<sup>٢</sup>، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُتَعَمِّدًا».

هَبَّ الأعداء لمواجهة الإسلام علانية حين لم يكن يتمتع بالقدرة الكافية غير أنهم هزموا بعد فتح مكة وسيطرة الإسلام، فارتدوا - كسائر المجتمعات البشرية - ثياب النفاق فالتحقوا ظاهرياً بصفوف المسلمين وانهمكوا باطنياً بأعمالهم التخريبية، وكانت إحدى طرقهم التخريبية المهمة أن يكسوا أهدافهم ثياب أحاديث النبي ﷺ ليحرفوا المسلمين ويحققوا اغراضهم، وكان المسلمون - الذين يثقون بالمقابل - يسمعون كلامهم كونهم صحابة رسول الله ﷺ فعاش المجتمع الإسلامي مشكلة كبرى - ولحسن الحظ فقد أفرط هؤلاء في وضع الروايات لصالح الحكام الظلمة كعماوية إلى درجة جعلت أغلب الناس يقفون على دجلهم وستتابع في مبحث التأملات بعض النماذج.

ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأَاهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ<sup>٣</sup> عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ».

يبدو أن أحد أساليب المنافقين أنهم اسبغوا قدسية على الصحابة وأنهم جميعاً مؤمنون صلحاء ومقدسون لينفذوا من ذلك لتحقيق مآربهم (وستعرض لذلك إن شاء الله).

ثم استشهد عليه السلام بالقرآن على صحة كلامه بحيث لا يبقى من مجال للشك في أذهان مخاطبيه فقال: «وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ».

١. «متصنع» من مادة «صنع» على وزن «رُمح» من يحسن ظاهره ويبيدي السيئ حسناً.

٢. «يتحرج» من مادة «حرج» الخشية من الوقوع في الذنب، باب تفاعل.

٣. «لقف» من مادة «لقف» على وزن «وقف» أخذ الشيء بسرعة وتناولته.

وهذا الكلام إشارة إلى آيات كثيرة وردت في سورة (المنافقون)، التوبة، الأحزاب، النساء، البقرة، وسائر السور القرآنية وكشفت النقاب عن وضع المنافقين وفضحت أساليبهم وذكرت حيلهم ومصاندهم.

ثم قال عليه السلام: «ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أُمَّةِ الضَّلَالَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ<sup>١</sup> وَالبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمْ الْأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ». وكانت النتيجة كما خلص إليها الإمام عليه السلام «فأكلوا بهم الدنيا». والمراد من أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالدرجة الأولى، حكام بني أمية الذين استهتروا بجميع شؤون الإسلام بما فيها أحاديث النبي صلى الله عليه وآله ليتأمرؤا على الناس، فكانت أفضل وسائلهم تسخير منافقي عصر النبي صلى الله عليه وآله واذنابهم لتحقيق أهدافهم، وهكذا تكدرت أجواء الأحاديث.

والمؤسف أن أغلب الناس لهثوا خلفهم معصوبي العيون حيث قال عليه السلام: «وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ».

العبارة المعروفة «الناس على دين ملوكهم» وإن لم ترد بهذه الصيغة في الروايات<sup>٢</sup> إلا أنها حقيقية ورد مضمونها في الروايات وكلمات الأعلام حيث إن الطبقة الفاسدة المفسدة إذا وردت الميدان بخطة مدروسة ووسائل إعلامية ودعائية واسعة أمكنها خداع الرأي العام واستقطاب العديد من الناس ولا تقتصر هذه الحقيقة على التاريخ الماضي وصدور الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وآله بل نلمسها اليوم في أغلب البلدان المتقدمة، حيث استحوذ الطغاة على الشعوب وخدعوها وتلاعبوا بأفكارها من خلال الاستعانة بوسائل الاعلام ومعونة المنافقين، ثم اختتم عليه السلام هذا القسم بقوله «فهذا أحد الأربعة».

١. «زور» تعني في الأصل الميل عن الوسط إلى الطرف ولذلك يطلق على الكذب لأنه انحراف عن الحق.  
٢. ذكره والد المرحوم الشيخ البهائي في كتاب «أصول الأخيار إلى أصول الأخبار»، ص ٣٠ بعنوان «المثل السائر» والمرحوم الملا صالح المازندراني في «شرح أصول الكافي»، ج ١٢، ص ٥٦٠؛ ولكن قال في كتاب «كشف الغمة»، ج ٢، ص ٢٣٠ بعد ذكر هذه الجملة: «كما ورد في الحديث والمثل».

## تأملات

## ١. المنافقون على عهد النبي ﷺ

يعلم من له إمام بالقرآن أن المنافقين ذموا بشدة في مختلف السور والآيات ليدل هذا على أن المنافقين لم يكونوا عدّة معدودة، وقد انطلقت خطتهم منذ قدم النبي ﷺ إلى المدينة واستقبل من قبل أكبر قبيلتين هما الأوس والخزرج وشكل الدولة الإسلامية، وهي الفئة التي شعرت بخطورة مصالحها إبان ظهور الإسلام فأعلنت إسلامها في حين كانت تكن العدا للنبى ﷺ والرسالة.

ورغم سعيها الجاد للتخفي، غير أنها كانت تفتضح في الظروف العصيبة التي تشهد العواصف السياسية والاجتماعية، فتارة من خلال اعتزال القتال وأخرى ببناء مسجد ضرار، وأحياناً من خلال التجسس لصالح المشركين على هامش فتح مكة وأخرى عن طريق تهويل قضية الإفك والتي كانت تكشف النقاب عن صورتهم الحقيقية. وقد اتسع نطاق النقاب عقب فتح مكة؛ فأبو سفيان عدو الإسلام الأول وأتباعه اعتنقوا الإسلام لإنقاذ حياتهم، لكنهم كانوا يتحينون الفرص للانقضاض عليه.

## ٢. المنافقون بعد النبي ﷺ

فتح الباب على مصراعيه عقب وفاة النبي ﷺ لاتساع أنشطة المنافقين، فلم يكن من يردعهم بعد انقطاع الوحي ووفاة النبي ﷺ ويحذر الناس منهم ويوجه لهم الضربة القاصمة كما يقول ابن أبي الحديد<sup>١</sup> من جانب آخر فإن الفتوحات وكثرة الغنائم شغلت أغلب المسلمين وجعلتهم يفتنون عن مؤامرات المنافقين، سيما أن أغلب المنافقين شغلوا مناصب حساسة في البلاد الإسلامية على عهد الخلفاء، وإحدى مؤامراتهم الخطيرة وضع الروايات بما يناسب رغبة الخلفاء والتي بلغت ذروتها على عهد معاوية بغية توجيه الضربة للإسلام من جهة والتقرب إلى الخلفاء

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٤١.

من جهة أخرى.

وقد وردت هذه القضية في أغلب المصادر حتى وصل الأمر بمعاوية أن يتواطأ مع بعض الصحابة، فمن وضع الرواية كذا فله كذا. فعمد المنافقون أحياناً إلى تحريف الحديث النبوي، وتغيير مضمونه تماماً، كالحديث المروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلِيَّ مِنْتَبْرِي فَأَقْتُلُوهُ»<sup>١</sup>.

قال الحسن البصري قال أبو سعيد الخدري: «فَلَمْ نَفْعَلْ وَلَمْ نَفْلَحْ» ولكن المنافقين الوضاعين حرّفوا الحديث بأنّه قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلِيَّ مِنْتَبْرِي فَأَقْبَلُوهُ فَإِنَّهُ أَمِينٌ مَأْمُونٌ»<sup>٢</sup>.

قال ابن أبي الحديد: وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرمهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك، حتى أكثروا من فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والقطائع، ويفيضة في العرب منهم والموالي، فكثرت ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبه إلا كتب اسمه وقربه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً، ثم كتب إلى عماله: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٧٦.

٢. شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ٧، ص ٢١٢؛ تاريخ بغداد، ج ١، ص ٢٧٥. وأضاف الخطيب البغدادي بعد نقله لهذا الحديث: لم أجده إلا بسند واحد وأغلب رجال هذا السند مجهولون.

إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقرّ لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله<sup>١</sup>.  
 إلا أن المحدثين إنما يطعنون فيما دون الصحابة ولا يتجاسرون في الطعن على أحد من الصحابة لأنّ عليه لفظ الصحبة<sup>٢</sup>.

### ٣. عدالة الصحابة

هناك رأيان مختلفان بشأن صحابة النبي ﷺ: الرأي القائل: إنهم أفراد صالحون وصادقون وعدول جميعاً ولهم قدسية خاصة، وعليه فروايتهم عن النبي ﷺ مقبولة ولا يرد عليها شيء، وإن بدر منهم خلاف من قبيل التصرفات الخاطئة للخليفة الثالث في بيت المال وإثارة طلحة والزبير لفتنة الجمل وخروج معاوية على إمام المسلمين علي بن أبي طالب وأمثال ذلك، فلا بدّ أن نبرره فنقول: أقصى ذلك أنهم كانوا مجتهدين وأخطأوا في الاجتهاد.

والرأي الآخر: رغم وجود العدول من بين الصحابة والأتقياء، لكن كان بينهم المنافق والظالم الذي تبرأ منه النبي ﷺ وذمه القرآن كراراً حتى لعن البعض منهم، ولا يملك أصحاب نظرية التنزيه المطلق للصحابة من دليل، وكلماتهم تخالف صريح القرآن والتاريخ الإسلامي.

صحيح أنّ القرآن أشاد في بعض آياته بالمهاجرين والأنصار (رضي الله عنهم ورضوا عنه) لكننا إن قارنا ذلك بسائر الآيات التي ذمت بعض الصحابة ووصفتهم بأنهم أداة بيد الشيطان (سورة آل عمران، الآية ١٥٥) وعرف بعضهم بالفساق (سورة حجرات، الآية ٦) واعترض بعضهم في تقسيم النبي ﷺ للغنائم وأنه لم يعمل بالعدالة (سورة التوبة، الآية ٥٨) وفرار البعض الآخر عن الجهاد (سورة الأحزاب،

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٤٤-٤٦.

٢. المصدر السابق، ص ٤٢.

الآية ١٢ و ١٣) يتضح لنا أنّ نظرية تنزيه جميع الصحابة لا تعدو كونها خرافة وكان فئة من موالي الخلفاء عزفت على هذا الوتر بغية قطع الألسن التي ربّما تنطلق بالاعتراض على أعمالهم ولاسيما حكام بني أمية (معاوية وطائفة من رهطه الذين كانوا ظاهراً من الصحابة) تعصبوا لهذه النظرية أكثر من غيرهم ليبرروا من خلالها عظيم جنایاتهم، ولكن لحسن الحظ فإنّ محققي العامّة أدركوا اليوم هذه الحقيقة فألفوا العديد من الكتب في تفنيد نظرية التنزيه<sup>١</sup>.

وخطبة الإمام عليه السلام هذه تدل أولاً؛ على إنّ هذه العقيدة (تنزيه الصحابة) كانت سائدة لدى البعض على عهده فتزعم أنّ فلاناً صحابي وكلامه حجة. وثانياً؛ أنّ الإمام عليه السلام رفض تلك النظرية على أنّ من بين الصحابة منافقين تسللوا إلى الإسلام.

❦❦❦

١. كان ممن انتقد هذه النظرية من علماء العامّة «أحمد حسين يعقوب» في كتاب نظرية عدالة الصحابة و«الشيخ محمود أبورية» في كتاب شيخ المضيرة، وأبوهريرة.



## القسم الثالث

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَزْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ!

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

## الشرح والتفسير

### أحاديث الناسخ والمنسوخ

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى قسمين من أسباب اختلاف الأحاديث وتعارضها فقال: «وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَزْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.»

فهذا الخطأ يعود تارة إلى التساهل والتسامح، وأخرى إلى الجهل بمفاهيم الألفاظ والعبارات، وأحياناً كون الإنسان ليس بمعصوم ويجوز عليه الخطأ والسهو والنسيان، ومهما كان السبب فالنتيجة واحدة وهي النقل الخاطى للآخرين.

مثلاً ورد عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ لِيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ.» فلما بلغ الحديث ابن عباس قال: أخطأ عبد الله في نقل الحديث، إنما مرَّ



النبي ﷺ بقبر يهودي فقال «إِنَّ أَهْلَهُ لَيَبْكُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُعَذَّبُ»<sup>١</sup>.  
ومن هنا اشترط في علم الدراية ضبط الراوي في قبول الحديث حيث ينبغي أن  
يكون ملماً عالمًا بالمطلب فيرويه صحيحاً.  
القضية المهمة أيضاً أن أغلب الأعلام جَوَّزوا النقل بالمعنى، أي أن الراوي ليس  
ملزماً برواية ذات ألفاظ، بل له صياغتها في قالب آخر ويرويه، ونعلم أن هذا العمل  
ليس هيناً وربما يخطئ الراوي في ذلك.  
ثم قال عليه السلام: «قَلَوْ عِلْمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عِلْمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ  
لَرَفَضَهُ!».

وعليه فليس للراوي نية سيئة في هذه الموارد وإن أخطأ في فعله ولعله يضل  
الآخرين دون قصد، وأغلب هذه الأخطاء كون الراوي لم ينقل صدر الرواية وذيلها  
فيتغير مفهومها.

مثلاً قال أحدهم للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: إن الناس يروون عن النبي ﷺ  
أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ». فقال عليه السلام: لعنهم الله فقد أسقطوا صدر  
الحديث، إنما مر رسول الله ﷺ برجلين يسب أحدهما الآخر فيقول له: «قَبَّحَ اللَّهُ  
وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ يُشْبِهُكَ».

فقال عليه السلام: «يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَقُلْ هَذَا لِأَخِيكَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى  
صُورَتِهِ»<sup>٢</sup>، أي على صورة أخيك هذا الذي أنت تسبه الآن.

❦❦❦

ثم قال الإمام عليه السلام في الطائفة الثالثة من الرواة: «وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ  
بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ».

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٤٧.

٢. عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١١٠؛ بحار الأنوار، ج ٤، ص ١١.

مسألة النسخ من المسائل الإسلامية التي حصلت بصيغة محدودة في أصل نزول القرآن، أي أنه نزل حكماً لزمان معين ثم أزيل ليحل محله حكم دائم، مثلاً، أمر المسلمون بادئ الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس في الصلاة واستمر هذا الأمر مدة في مكة ثم المدينة وقد نسخ هذا الحكم لعله ربّما لأن الكعبة تحولت آنذاك إلى معبد للأصنام، ولكن حين رسخ النبي دعائم التوحيد أمر المسلمون في السنة الثانية للهجرة بالتوجه إلى الكعبة، وورد هذا المعنى في الأحاديث النبوية فكان النبي يبيّن حكماً هو في الواقع مؤقت ولكن لم يبيّن زمانه ثم ينسخ ذلك الحكم بحكم دائم، على سبيل المثال قال النبي: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثٍ؛ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَزُورُوهَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ إِخْرَاجِ اللَّحُومِ الْأَضَاحِيِّ مِنْ مَنِي بَعْدَ ثَلَاثِ أَلَا فَكُلُوا وَادْخُرُوا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيدِ أَلَا فَانْبُدُوا وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»<sup>١</sup>.

وعليه يسع نقل الأحاديث الصحيحة للنبي لمن له إحاطة تامة بكل الأحاديث فيعرف الناسخ والمنسوخ ويضع كلاً في محله، وموضوع العام والخاص كذلك حيث يقال أحياناً، حكم عام يشمل جميع الأفراد، مثلاً، قوله ﷺ: «النَّاسُ مُسَلِّطُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ»<sup>٢</sup>.

ثم يقول في موضع آخر: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِي الْإِسْلَامِ»<sup>٣</sup>.

فمن سمع الحكم العام ولم يعلم الخاص يبلغه الآخرين بما يناقض الحكم الخاص، بينما يعلم بعدم التناقض كل من سمعها معاً، ثم قال ﷺ: «فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنسُوخٌ لَرَفَضُوهُ».

ومن هنا فإن بعض اختلاف الأحاديث ناشىء من عدم الإحاطة بروايات الناسخ والمنسوخ دون سوء نية من الرواة.

١. المراد من النبيذ الحلال أن المسلمين لما دخلوا المدينة أصيب البعض ببرودة الماء فأمر النبي أن يلقى في الظرف تمر لتزول برودة الماء ولم يكن بالمقدار الذي يحيله خمراً ومن هنا قال في ذيل الرواية: «وكل مسكر حرام».

٢. وسائل الشيعة، ج ١٠، باب ٤١ من أبواب الذبح، ج ٧.

٣. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٧٢، ج ٧.

## تأمل

## النسخ في أحكام الشرع

رغم أنّ موارد النسخ في آيات القرآن وروايات النبي الأكرم ﷺ محدودة ومعدودة؛ إلا أنّ لهذه المسألة أهميّة خاصة؛ من حيث إرتباطها بالمسائل العقائدية والمسائل المتعلقة بالنبوة والأحكام.

يتساءل البعض: كيف يمكن أن يوحى الله للنبي حكماً ظاهره أبديّ ودائمي؛ لكنه ينسخ بعد مدّة ويحلّ محله حكم آخر غالباً ما يناقضه، مع أنّ علم الله غير محدود وعلم النبي أيضاً يستند إلى الوحي؟ والنسخ كثير في الأحكام العرفية والوضعية وليس ذلك من العجب، لأنّه يدرس الأمور ويضع الأحكام؛ إلا أنّ ضعفها وعجزها يتضح عند العمل فينسخها، ولو علم العيوب والمثالب منذ البداية ربّما لم يضعها؛ إلا أنّ هذا الأمر لا يصدق على الأحكام الشرعيّة، فما معنى النسخ فيها؟ يتضح الجواب عن هذا السؤال من الالتفات إلى نقطة وهي: أنّ النسخ في الأحكام الشرعيّة من حيث تغيير الموضوع؛ بعبارة أخرى أنّ عمر ذلك الحكم كان محدوداً منذ البداية بزمان معين وإن لم يُشر إلى نفاذه لبعض المصالح.

مثلاً، حكم التصدق قبل التجوى الواردة في الآية ١٢ - ١٣ من سورة المجادلة كان لاختبار أصحاب النبي ﷺ وتفهم هذه القضية أنّ أغلب مناجاة الأفراد للنبي لم تكن ضرورية ولا بد من تركها حتى لا يكون هنالك اساءة ظن، ومن هنا لما أمر بالتصدق قبل التجوى تركه جميع الأصحاب سوى عليّ الذي تصدق وناجى النبي في أمر مهم ليفخر بأنّه الوحيد الذي عمل بالآية.

ثم نزلت بعد ذلك آية نسخت التصدق قبل التجوى وعلم الجميع أنّ أغلب نجواهم لم تكن ضرورية فامتنعوا عنها، ومن هذا القبيل النسخ سواء في القرآن أو الحديث حيث يوضع حكم في ظروف معينة لمدّة معينة ثم ينسخ بعد تغيير الشرائط.

جدير ذكره أن النسخ حسب ما ورد هنا يقتصر على زمان النبي الأكرم ﷺ حين فتح باب الوحي ولم يقع أي نسخ بعد النبي<sup>١</sup>.

❦❦❦

١. أنظر المزيد في النسخ، نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٣٩ و ٢٥٠ ذيل الخطبة الأولى وتفسير الأمل، ج ١، ذيل الآية ١٠٦ من سورة البقرة، وأسهب من ذلك في كتاب أنوار الأصول، ج ١، ص ١٧٧.



## القسم الرابع

وَآخِرُ رَابِعٍ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَهُمْ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحَكَّمَ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ.

وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلَامٌ خَاصٌّ، وَكَلَامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُجِبُونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِيءُ، فَيَسْأَلُهُ ﷺ حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِى مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ، فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ، وَعَلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ.

## الشرح والتفسير

### حفظة الحديث

تطرق الإمام ﷺ هنا إلى الصنف الرابع من الرواة السالكون الصراط المستقيم وحملة أحاديث النبي الأكرم ﷺ والأئمة ﷺ الثقة والمبينين لأحكام الدين فقال: «وَآخِرُ رَابِعٍ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ، وَتَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.»

وعليه تغيب فيهم أولى مناشيء تضاد الأخبار: الكذب على الله ورسوله ووضع الأحاديث، حيث إنَّ مجانبة الكذب جزء من ذاتهم وخوف الله وتعظيم النبي بقض إلى نفوسهم الكذب.

ثم قال: «وَلَمْ يَهْمُ<sup>١</sup>، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ».

وهنا زال عنهم المصدر الآخر لاختلاف الأحاديث والذي يتمثل بتساهل الرواة، ثم بين عليه السلام صفة أخرى لرواة الصدق العارفين فقال: «فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ<sup>٢</sup> عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ».

فهذه العبارة العميقة المعنى إشارة إلى الرواة الصادقين المحيطين إحاطة تامة بالأخبار المختلفة؛ ويعرفون الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمحكم والمتشابه، فيجعلون كلاً في موضعه ليبتعدوا عن التناقض والخطأ.

وكلام الإمام عليه السلام بشأن دراسة أساس اختلاف الأحاديث، ليس خاصاً يتعلق بالحديث فحسب، بل يعلمنا درساً أهم وأشمل فلا بد من التوجه إلى الأسس والتعرف على العوامل المؤثرة في السعي لإزالة المعوقات وإلا فإنَّ كلَّ إصلاح يبقى سطحياً وعابراً. ثم أشار إلى سبب آخر لاختلاف الأحاديث والذي يكمل المباحث السابقة، وهو اختلاف استعداد الأصحاب في تعلّم الأحاديث وتفسيرها وفهم معناها فقال: «وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلَامٌ خَاصٌّ، وَكَلَامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُخْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ».

١. «لم يهتم» من مادة «وهم» مطلق الخيال والظن وتعني أحياناً الظن الباطل والخطأ وهذا هو المعنى المراد.  
٢. «جنب» من باب تفعيل ومادة «جنب تعني حسب بعض مصادر اللغة، الحفظ والإبعاد بالمعنى اللازم والمتعدي والمعنى الثاني هو المراد.

ليس المراد من الخاص والعام في هذه العبارة، الخاص والعام الاصطلاحيان في علم الفقه والأصول، بل المراد الخاص والعام اللغويان؛ أي الحكم الخاص بمورد معين والحكم العام، مثلاً ورد في بعض الروايات أن النبي الأكرم ﷺ أمر المسلمين في السنة السابعة للهجرة بعد الحديبية حين أتوا إلى مكة لإتيان مناسك الحج، أن يسرعوا في الطواف حول البيت الحرام (ليشعر المشركون بالخوف من قوتهم وسرعة حركتهم)<sup>١</sup> والحال لم تكن سنة ثابتة ودائمة، وورد في الكلمات القصار من «نهج البلاغة» أنه سئل الإمام عليه السلام عن حديث النبي ﷺ حين قال: «غَيَّرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ».

قال عليه السلام: «إنما قال ذلك (الحكم الخاص) والدين قل، أما الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرئ وما اختار»<sup>٢</sup>.

ثم خاض الإمام عليه السلام في مشكلة أخرى بشأن نقل الأحاديث وهي: «وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّىٰ إِنْ كَانُوا لَيُجِبُونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِيءُ<sup>٣</sup>، فَيَسْأَلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّىٰ يَسْمَعُوا».

الظاهر أن هذه العبارة إشارة إلى الأصحاب الذين لم يكونوا من أهل التحقيق ولا طرح الأسئلة المختلفة في أصول الدين والفروع ومن هنا لم يقفوا على ناسخ ومنسوخ وعام وخاص ومحكم ومتشابه ومجمل ومبين، فلا يسألون عنها ولا يلمون بالمسائل ولكن إن جاء أحد وسأل وتلقى الجواب المطلوب تفاعلوا معه. وقد فسّر بعض الشراح، العبارة المذكورة أن بعض الصحابة لم يكن يسأل النبي لهيبته أو أن كثرة السؤال تحمل على إساءة الأدب فيمتنعون عن السؤال<sup>٤</sup>؛ إلا أن هذا

١. شرح نهج البلاغة للتستري، ج ٧، ص ٢٨٠.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٧.

٣. «طاريء» من «طروء» على وزن «غروب» حادث والخروج المفاجئ ومن هنا يقال للشخص الذي يرد حديثاً والزائر بغتة.

٤. كانت هنالك عوامل أخرى تحول دون السؤال كالاشتغال بالعبادات ظناً منهم أنهم مأمورون بها فقط أو الانهماك في الدنيا التي تغفل الإنسان عن كل شيء.



الاحتمال لا يتناسب والعبارة التي وردت في كلام الإمام حيث قال عليه السلام مواصلاً كلامه؛ «وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ».

وإن رأينا استعداد الإمام للجابة عن كل سؤال وبغض النظر عن الامداد الغيبي والالهام الباطني والتأهب الذاتي فإن ذلك لملازمته الحميمة للنبي وروح السؤال للإحاطة بكل شيء من المسائل الإسلامية.

ثم قال في ختام الخطبة: «فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ، وَعَلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ». وردت عدة عبارات في ذيل هذه الخطبة في بعض المصادر ومنها «الكافي» حيث قال:

«وَقَدْ كُنْتُ أَدْخُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ كُلَّ يَوْمٍ دَخَلَةً وَكُلَّ لَيْلَةٍ دَخَلَةً فَيُخَلِّينِي فِيهَا أَدُورٌ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ وَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَضَعْ ذَلِكَ بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِي... فَمَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَقْرَأْنِيهَا وَأَمْلَاهَا عَلَيَّ فَكَتَبْتُهَا بِخَطِّي وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا وَتَفْسِيرَهَا وَنَاسِخَهَا وَمَنْسُوخَهَا وَمُخَكَّمَهَا وَمُتَشَابِهَهَا وَخَاصَّهَا وَعَامَّهَا وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يُعْطِينِي فَهَمَّهَا وَحَفِظَهَا... وَمَا تَرَكَ شَيْئاً عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْ حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ وَلَا أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ كَانَ أَوْ يَكُونُ وَلَا كِتَابٍ مُنْزَلٍ عَلَيَّ أَحَدٍ قَبْلَهُ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا عَلَّمَنِيهِ وَحَفِظْتُهُ فَلَمْ أَنْسَ حَرْفاً واحداً ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَيَّ صَدْرِي وَدَعَا اللَّهَ لِي أَنْ يَمْلَأَ قَلْبِي عِلْماً وَفَهْماً وَحِكْماً وَتُوراً»<sup>١</sup>.

## وَمِنْ حُجَّتِهِ لِعَلِيٍّ السَّبْأُ

في عَجِيبِ صَنْعَةِ الْكَوْنِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

تتناول الخطبة عجائب خلق السماء والأرض منذ انطلاقة الخليقة ولحد الآن وتشير إلى عدّة أمور منها:

١. قدرة الله العظيمة في خلق الكون.
٢. بداية خلق الأرض والسماء وأنها كانت بادئ الأمر كتلة ضخمة من مادة مذابة كالبحر المتلاطم.
٣. تشكيل كتلة جديدة على سطح هذا البحر المذاب ثم تكون الكرة الأرضية وسائر الكرات السماوية.
٤. ظهور التشققات الأرضية وتكوّن الجبال والقمم التي تمتد لعنان السماء.
٥. تمجيد الله وتسبيحه على هذا الخلق العظيم والاعتبار بهذا الخلق العجيب.

١. سند الخطبة:

رواها الزمخشري في «ربيع الأبرار» ورغم اختلافها مع ما ورد في «نهج البلاغة» فيتضح أنه استقاها من مصدر آخر. كما ذكرها ابن الأثير في كتابه اللغوي «النهاية» في مادتي (يعجز) و (ازر) ويفيد اختلافها مع «نهج البلاغة» أنه رواها من مصدر آخر (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١١٧) لابد من الالتفات إلى أن ابن الأثير أشار لهذه الخطبة في مادة (ازر) و(يعجز) لكنه لم يشر إليها - حسب المصادر - في مادة (ازر).



## القسم الأول

وَكَانَ مِنْ اقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صُنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ  
الزَّائِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، يَبْسًا جَامِدًا، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا، فَفَتَقَهَا سَبْعَ  
سَمَاوَاتٍ بَعْدَ أَنْ تَتَاقَهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ. وَأَرْسَى أَرْضًا  
يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُتَعَنِّجُ، وَالْقَمَقَامُ الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِهَيْبَتِهِ،  
وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ.

## الشرح والتفسير

### بداية خلق الكون

حمل الإمام عليه السلام مخاطبيه إلى بداية خلق الكون ليريه عظمة الخلق وعجائبه  
فقال: «وَكَانَ مِنْ اقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صُنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ  
الزَّائِرِ<sup>١</sup> الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ<sup>٢</sup>، يَبْسًا جَامِدًا».

(اقتدار) من مادة قدرة وجبروت صيغة مبالغة تفيد السلطة التامة، وعليه فانطلاقه  
الخلق العظيم للسماء والأرض هي قدرة الخالق العظيم من جهة وابداعه اللطيف  
والظريف من جهة أخرى، فالفرد ربّما يفقد الدقة والظرافة في فعل عظيم أو يتعذر  
عليه التوسع في هذا الفعل؛ إلا أن القادر المتعال مزج ذلك في خلق الأرض  
والسماء، فهناك العظمة في فعله والدقة واللفظ.

١. «زائر» من «زخور» المملوء و«بحر زائر» البحر الممتليء.

٢. «متقاصف» الجماعة التي يدفع بعضها الآخر من مادة «قصف» على وزن «عصف» بالكسر وفي العبارة إشارة  
إلى الأمواج المتلاطمة التي يضرب بعضها البعض.

فقد ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة على غرار الخطبة الأولى والخطبة ٩١ من «نهج البلاغة» أنّ بداية الخلق كانت من المياه، وقطعاً ليس المراد المياه الطبيعية اليوم، بل الكتل العظيمة المذابة والمتلاطمة التي صنعها الله بقدرته، وقد تحولت هذه المادة المذابة بمرور الزمان إلى مواد جافة فكونت الأرض والكرات السماوية، ويتفق هذا الطرح مع النظريات العلمية المعاصرة بشأن ظهور الكون، جدير ذكره أنّ العبارة (من ماء البحر الزاخر) تفيد أنّ قسماً من هذا البحر الزاخر تحول إلى كرات سماوية وبقي قسم منها وهذا ما ينسجم أيضاً والاكتشافات العلمية التي تقول: ما زالت مواد عظيمة من الكتل الغازية المحرقة أو المواد المذابة في السماء لم تتحول إلى كرات على غرار كرات المنظومة الشمسية.

ثم تحدّث عن ظهور السموات السبع فقال: «ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا، فَفَتَّقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِقَائِهَا<sup>٢</sup>، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ».

والكلام اقتباس مما ورد في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء: «أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا».

ومن الواضح أنّ المشاهدة في هذه الآية ليست المشاهدة الحسية وبالعين، بل المشاهدة الباطنية من خلال العلم والمعرفة، ذهبت النظريات العلمية اليوم إلى أنّ السماء والأرض كانتا في البداية كتلة عظيمة من الغازات والمواد المذابة وقد انفصلت منها بعض القطع الواحدة تلو الأخرى اثر دورانها حول نفسها أو بفعل عوامل أخرى فقدفت في زاوية من الفضاء وكونت الكرات والمنظومات والمجرات.

ثم تطرق عليه السلام إلى خلق الأرض فقال: «وَأَرْسَى<sup>٣</sup> أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ<sup>٤</sup>

١. «اطباق» جمع «طبق» الطبقات على بعضها.

٢. «ارتقاق» الاتصال من مادة «رتق» وضدها «فتق».

٣. «أرسي» من مادة «رسو» على وزن «مسح» الثابت والراسخ.

٤. «أخضر» إشارة إلى عمق البحار التي تبدو لكثرة العمق بهذا اللون.

الْمُتَعَنِّجِرُ<sup>١</sup>، وَالْقَمَقَامُ<sup>٢</sup> الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَّفَ الْجَارِي مِنْهُ لِحَشِيَّتِهِ».

ولعل الكلام إشارة إلى الأمطار الغزيرة التي اجتاحت الكرة الأرضية في بداية خلق الأرض بصيغة بحر عظيم وتخللت هذه المياه فجوات الأرض بمرور الزمان فشكلت اليابسة التي تكون ربع الكرة الأرضية، وهذات المياه لتذلل الأرض لكي يعيش عليها الإنسان وسائر الكائنات.

سوس

١. «متعنجر» المليء بالماء من مادة «تعجرة» على وزن «حنجرة» جريان الماء وما شابه.

٢. «قمقام» البحر العظيم في الأصل من مادة «قمقمة» على وزن «همهمة» بمعنى الجمع ومن هنا يقال قمقام للبحر العظيم والأحداث المهمة التي تجمع فيها المشاكل الكثيرة.



## القسم الثاني

وَجَبَلٌ جَلَامِيدَهَا، وَنُشُوزٌ مُتُونِهَا وَأَطْوَادِهَا، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا،  
وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أَصُولُهَا فِي الْمَاءِ،  
فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ  
أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَارَهَا، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرْزَهَا  
فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنْتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ  
تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ  
رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً! فَوْقَ بَحْرِ لُجِّي  
رَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي، تُكَرِّجُهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَفْخُضُهُ الْعَمَامُ  
الذَّوَارِفُ؛ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى».

## الشرح والتفسير

### خلق الجبال

خاض الإمام عليه السلام بعد بيانه لخلق السموات والأرض واستقرار الأرض في  
موضعها في شرح إحدى الظواهر الأرضية المهمة التي تلعب دوراً مهماً في حياة  
الإنسان وسائر الكائنات الحية فقال: «وَجَبَلٌ<sup>١</sup> جَلَامِيدَهَا<sup>٢</sup>، وَنُشُوزٌ<sup>٣</sup> مُتُونِهَا<sup>٤</sup>»

١. «جبل» من مادة «جبل» على وزن «جبر» الخلق ومنه الجبل المعروف.

٢. «جلاميد» جمع «جلمود» على وزن «خرطوم» الصخرة والجبل.

٣. «نشوز» جمع «نشر» على وزن «نشر» التل وما ارتفع من الأرض. ولهذه المفردة معنى مصدرية: الامتناع عن  
الإتيان بالوظيفة كنشوز الزوجة عن الزوج.

٤. «متون» جمع «متن» المحكم وتأتي بمعنى المستوى والمراد هنا المعنى الأول.



وَأَطْوَادِهَا، فَأَزْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسَهَا فِي الْهَوَاءِ،  
وَرَسَتْ أَصُولُهَا فِي الْمَاءِ».

المفروغ منه علمياً أنّ سطح الكرة الارضية لم تَعْلَهُ المرتفعات قبل أن يبرد، إلا أنّ الشقوق تخللتها بعد برودتها (كالتفاحة التي تمر عليها مدّة فتتصلب) فكانت هذه الشقوق الجبال والوديان العظيمة، وكانت الجبال تتطلق إلى السماء وتغوص جذورها في المواد المذابة في جوف الأرض فتكون سطح الأرض بصيغته الفعلية. ثم وضع أكثر فقال: «فَأَنْهَدَ<sup>٢</sup> جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ<sup>٣</sup> قَوَاعِدَهَا فِي مُسْتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا<sup>٤</sup>، فَأَشْهَقَ<sup>٥</sup> قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَارَهَا<sup>٦</sup>».

تفيد هذه العبارة أنّ جبال الارض بغض النظر عن استوائها خارجياً فإن لها جذوراً عظيمة في أطناب الأرض وهي الجذور التي تشدها معاً من الداخل، بالضبط كالشجرة التي كلما امتد ساقها وأوراقها إلى الأعلى انعمرت جذورها أعمق في الأرض، فالامتداد والاستقرار يرسخ الجذور في الأرض.

ثم ذكر عليه السلام فوائد الجبال وأهمها حفظ استقرار الأرض وسكانها، فقال بعبارات دقيقة وعميقة: «وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرَزَّهَا<sup>٧</sup> فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنْتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ<sup>٨</sup> بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ<sup>٩</sup> بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا».

كيف تهب الجبال الأرض الاستقرار وتحول دون اضطرابها؟ وتتضح الاجابة عن

١. «أطواد» جمع «طود» الجبل الشامخ.

٢. «أنهد» من «النهود» بمعنى الظهور والانفصال.

٣. «أساخ» من «السوخ» على وزن «قول» الغوص في الماء.

٤. «انصاب» جمع «نصب» على وزن «كتب» الأجسام الأعلام وللنصب معنى المفرد أحياناً والجمع أخرى حسب

ما ذكر المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان» ج ١٠، ص ١٢٦.

٥. «أشهق» من «الشهوق» الارتفاع و«أشهق» يعنى رفع.

٦. «أنشاز» جمع «نشز» على وزن «مرض» من «النشوز» ذكرت سابقاً في هذه الخطبة.

٧. «أرز» من مادة «ررّ» على وزن «حظّه» بمعنى ثبت.

٨. «تميد» من «الميد» على وزن «صيد» الحركة والاضطراب.

٩. «تسيخ» من «سوخ» فسرت في الخطبة.

هذا السؤال من خلال قضية هي أنّ نواة جوف الأرض مواد مذابة وغازات تسلط ضغطاً على الدوام على القشرة الخارجية وتظهر أحياناً كبراكين، إلا أنّ الجبال لا تتحمل تلك الضغوط بفعل جذورها المحكمة والمتصلة فتحول دون الاضطراب فتصبح مصدراً لاستقرار القشرة الأرضية.

أضف إلى ذلك فإنّ الجبال تعتبر من العوامل المؤثرة في استقرار الأرض بفعل الضغوط الخارجية الناشئة من جاذبية الشمس والقمر وما يحصل منها من مد وجزر، من جانب آخر فإنّها ملاذات إزاء العواصف التي تصيب سطح الأرض ومن شأنها تهديد حياة الإنسان، ومن أراد المزيد بهذا الخصوص فليراجع الخطبة ٩١ من الجزء الرابع لهذا الشرح وتفيد العبارة «فسكننا على حركتها» استناداً للعبارة «على» أنّ الإمام عليه السلام أشار بوضوح آنذاك إلى حركة الأرض التي كان يقول بسكونها آنذاك جميع علماء الهيئة حيث قال رغم حركة الأرض إلا أنّها مستقرة ولا تعرض سكانها للاضطراب.

وقد أشار المرحوم العلامة شرف الدين صاحب كتاب (مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام) إلى هذه النقطة الظريفة<sup>١</sup>.

ثم قال عليه السلام: «فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً؛ فَوْقَ بَحْرِ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي، تُكْزِكُهُ<sup>٢</sup> الرِّيحُ العَوَاصِفُ، وَتَمْخُضُهُ<sup>٣</sup> العَمَامُ الدَّوَارِفُ؛<sup>٤</sup> إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى».

١. مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١١٧.

٢. «تكركر» من مادة «كركرة» على وزن «حنجرة» يرى البعض أنّها من مادة والبعض الآخر أنّها مادة مستقلة من الرباعي المجزّد وتعني التكرار.

٣. «تمخض» من مادة «مخض» على وزن «قرض» تعني في الأصل حركة اللبن لاستخراج الزبدة ثم اطلقت على كلّ حركة شديدة.

٤. «ذوارف» من مادة «ذرف» على وزن «حرف» سيلان الدمع من العين أو مطلق السيل و«ذوارف» جمع «ذارفة» بمعنى الجاري والصابي.

تبدو للوهلة الأولى في هذه العبارة جملتان متناقضتان؛ فقد قال في الأولى: إنَّ الله بسط الأرض على بحر عظيم لجِّي راكد لا يجري وقال في ذيلها: تكرر الرياح العواصف، إلا أن تأمل العبارة يوضح نفي أي تناقض، فالعبارة الأولى تتحدّث عن استقرار طبيعة البحر، والثانية عن تأثير العوامل الخارجية، أي الرياح الشديدة على سطوح البحار.

وقوله: «وَتَمَخُّضُهُ الْعَمَامُ الذَّوَارِفُ» إمّا لأنّ هذه السحب مقترنة دائماً بالعواصف، أو أنّ سيول الأمطار تسقط على سطوح المحيطات تؤثر عليها وتجعلها متلاطمة.

والعبارة «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى» إمّا إشارة إلى سكون البحار وحركتها التي أشرنا إليها، أو إشارة لما ذكره عليه السلام في هذه الخطبة بشأن خلق الجبال وخلق الأرض والسماء، والآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى»<sup>١</sup> تصرّح بأنّ الخشية وليدة العلم والعلماء ممن يعتبرون بهذه الأمور كما قال في موضع آخر «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»<sup>٢</sup>.

۳۰۰۳

١. سورة النازعات، الآية ٢٦. جدير ذكره أنّ هذه الآية القرآنية وردت في سياق الخلقة وخلق السماء والأرض.

٢. سورة فاطر، الآية ٢٨.

## وَمِنْ خُطْبَتِ ابْنِ عَلِيٍّ السَّنَائِمِ

كَانَ يَسْتَنْهَضُ بِهَا أَصْحَابَهُ إِلَى جِهَادِ أَهْلِ الشَّامِ فِي زَمَانِهِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة في الواقع استغاثة بالله ممزوجة بالدعاء لنصرة جند الإسلام ومواخذه العناصر العاكفة عن نصره الحق واتمام الحجة عليهم أمام الله تعالى، ويشير الكلام إلى مدى امتعاض الإمام عليه السلام عن ضعف أهل الكوفة وعدم مبالاتهم بأمر جهاد طغام أهل الشام؛ الأمر الذي يستفاد من أغلب خطب «نهج البلاغة» ولولا الضعف والنكوص لنحا التاريخ الإسلامي منحى آخر ولكن للأسف...!

❦❦❦

١. سند الخطبة:

لم يذكر صاحب «مصادر نهج البلاغة» سندا لهذه الخطبة؛ لكن يستفاد من كتاب «تمام نهج البلاغة» (وأشرنا لذلك في المتن) أن هذا الكلام كان ذيل الخطبة ١٩٨ ولم يذكر هذا الكتاب سندا آخر غير «نهج البلاغة».



اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِزَةِ، وَالْمُضْلِحَةَ  
غَيْرَ الْمُفْسِدَةَ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ  
نُصْرَتِكَ، وَالْإِبْطَاءَ عَنِ إِعْرَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ  
شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهَدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ  
الْمُعْنِي عَنِ نُصْرِهِ، وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ.

## الشرح والتفسير

### جزاء المتخلفين

تفيد القرائن أنّ هذه العبارات العميقة المعنى المليئة بالأسى واللوعة كانت بعضاً  
من خطبة طويلة اقتطف منها المرحوم السيد الرضي هذا القسم وفصله عنها، ويرى  
البعض أنّه ذيل الخطبة ١٩٨.

والهدف الأصلي لأمر المؤمنين عليهم السلام من هذه الخطبة تعبئة صحبه لجهاد أهل الشام  
الظلمة؛ لكن بصيغة شكوى إلى الله، شكوى من أولئك الذين يسمعون دعوته العادلة  
ويتمردون عليه في الجهاد، الشكوى التي تبيّن مدى مظلومية الإمام عليه السلام ومدى افتقار  
صحابه للشعور بالمسؤولية. فقال: «اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ  
غَيْرَ الْجَائِزَةِ، وَالْمُضْلِحَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةَ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا  
النُّكُوصَ<sup>٢</sup> عَنِ نُصْرَتِكَ، وَالْإِبْطَاءَ<sup>٣</sup> عَنِ إِعْرَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ

١. تمام نهج البلاغة، ص ٤٩١.

٢. «نكوص» مصدر يعني الانسحاب والتراجع.

٣. «إبطاء» التأخير من مادة «بطؤ» على وزن «قفل».

الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً».

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام أكد بهذه العبارات بشأن الدعوة إلى جهاد ظلمة أهل الشام على أربع أو على اعتبار على صفتين:

١. إنّ هذا الكلام كلام على مسار العدل.

٢. لا ظلم فيه قط.

٣. سبب إصلاح الناس.

٤. لا يترتب عليه أي فساد وآثاره الايجابية ظاهرة في دنيا الناس ودينهم.

والبداهة تحكم بضرورة إتباع هذا الكلام المليء بالحق والعدل والصلح

والمصلحة وانحراف من يخالفه عن شرع الله والعقل.

القضية الأخرى أنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّ من يتمرد على دعوته لجهاد أهل الشام

الظلمة إنّما ينكص عن نصره الله واشتداد دينه دون أن يجني الإمام عليه السلام نفعاً خاصاً

من ذلك، كما أراد أن يذكر الإمام عليه السلام ضمناً بأنّ مسير أهل الشام مسير الظلم

والجور وأساس الفساد في دين الناس وديانهم.

وواصل عليه السلام كلامه بإشهاد من في السماء والأرض إلى جانب إشهاد الله فقال:

«وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُعْنِي عَنِ

نَصْرِهِ، وَالْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ».

فقد أتمّ الإمام عليه السلام بهذه الشكوى إلى الله المنبعتة من قلب حزين ملئ بالحنين، الحجة

على المتشاكليين عن الجهاد من جهة وتحذير من جهة أخرى لصحبه الأوفياء ألاّ

يهنوا بسبب ضعف أولئك الأفراد ويعلموا أنّ الله ناصرهم وأولئك الناكسين سيلاقون

جزاء أعمالهم، ويشهد التاريخ أنّهم ابتلوا عقب شهادة الإمام عليه السلام ووليّ عليهم ظلمة

من ولاية بني أمية فلم يرعوا فيهم ذمّة ولم يألوا جهداً في اذقتهم العقاب.

ورد في كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم أنّه قام رجل من بني فزارة فقال للإمام:

تريدنا أن نقاتل أهل الشام فنقتل إختوتنا كما قتلناهم في البصرة يوم الجمل فلن

نفعل ذلك، فنهض مالك الأشتر وقال: أمسكوه (فهو من أفراد العدو) فنهضوا إليه فهرب إلى موضع لبيع الخيل فجعلوا يطأونه بأرجلهم<sup>١</sup>.

العبارة «جَمِيعَ مَا أَشْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَوَاتِكَ» تبدو إشارة إلى الملائكة والإنس والجن، لأنَّ العبارة «اسكنتها» تناسب ذلك وعليه «ما» اطلقت هنا على العاقل وإشهادهم رغم إشهاد الله قبل ذلك تأكيد لهذا الأمر المهم، كما جعل الله إلى جانب ذاته القدسية شهداء كثيرين على أعمالنا.



١. صفين لنصر بن مزاحم، ص ٩٤ و ٩٥.





## وَمِنْ خُطْبَتَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

في تَفْجِيدِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

يستفاد من تعبير المرحوم السيد الرضي أن ما ورد في هذه الخطبة جانب من كلام الإمام عليه السلام اقتطفه السيد الرضي في قسمين:  
القسم الأول: الذي جرى الكلام فيه عن صفات الله الجلالية والجمالية ولا سيما احاطته العلمية بجميع المخلوقات.  
وورد الكلام في القسم الثاني عن صفات النبي وإمداده الغيبي وإزالة الموانع عن مسيرته وتطورها السريع، وبالتالي فإن الخطبة قبسات بشأن التوحيد والنبوة.

❦❦❦

١. سند الخطبة:

لم يذكر سند هذه الخطبة في المصادر المعروفة سوى «نهج البلاغة» وقد روى العلامة المجلسي قسمها الأول عن «نهج البلاغة» في الجزء الرابع من بحار الأنوار.



أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنِ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ  
بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنِ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ،  
الْعَالِمِ بِأَلَا أَحْتِسَابٍ وَلَا أَرْذِيَادٍ، وَلَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، الْمُقَدَّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِأَلَا  
رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ، الَّذِي لَا تَعُشَاهُ الظُّلْمُ، وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ، وَلَا يَرْهَقُهُ  
لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْأَبْصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْأَخْبَارِ.  
ومنها في ذكر النبي ﷺ:

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي الْأَضْطِفَاءِ، فَرَتَّقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ، وَسَاوَرَ بِهِ  
الْمُغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونََ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ، عَنِ  
يَمِينِ وَشِمَالِ.

## الشرح والتفسير

قبسات من صفات الله ورسوله

أشار الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبة الذي ورد في صفات الله  
الجمالية والجلالية إلى اثنتي عشرة صفة، فقال في الصفات الأربع الأولى: «أَلْحَمْدُ  
لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنِ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ  
لِلنَّاطِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنِ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ».

وكما قيل آنفاً فإنَّ الذات الإلهية لامتناهية، ومن البديهي أن تعجز جميع

١. «متوهمين» من مادة «وهم» الظن والخيال كما تعني التفكير وهذا هو المعنى المراد والشاهد على ذلك كلمة  
الفكر قبل ذلك.

مخلوقاته المتناهية من جميع الجوانب عن درك كنه ذاته، وعليه إنما ندرك تلك الذات عن طريق آثاره العجيبة السائدة في عالم الوجود؛ ومن هنا فإن قلنا أوضح من كل شيء وأخفى من كل شيء فذلك ناظر لهذين البعدين؛ من حيث آثار علمه وقدرته ظاهراً تماماً، وخفي من حيث كنه ذاته .

ثم خاض في الصفة الخامسة والسادسة فقال: «الْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَابٍ وَلَا ازْدِيَادٍ، وَلَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، الْمُقَدَّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا زَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ».

لا شك في أن علم الله كذاته لا متناهٍ، فلا يحتاج إلى اكتساب ولا تعلم من آخر، وهذا يقتصر على ذوي العلم المحدود والذين لهم الازدياد من خلال ثلاثة طرق: التجربة وأمثالها، تأثير العلوم في بعضها والانتقال من مسألة لأخرى، وأخيراً التلمذ والتعلم من الآخرين، أما من كان علمه لا متناهٍ فغني عن كل هذه الأمور، كما هو غني عن إحالة الفكر في خلق الكائنات وتقدير كل مخلوق من حيث الكمية والكيفية والقوانين التي تحكمه، فلا حاجة للرجوع إلى الوجدان بخلاف الإنسان الذي يحاول اختراع شيء ربما يستغرق أحياناً لسنوات ويطالع ويستعين بمعلوماته وأفكاره لينجح في محاولته.

وقال في الصفة السابعة والثامنة: «الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلْمُ، وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ».

ثم تطرق إلى الصفة التاسعة والعاشرية لايضاح هذا المطلب فقال: «وَلَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ». ولعل هذه العبارات تشير إلى أن ذاته القدسيّة جليلة دائماً عن طريق الآثار ولا يعترها الليل والنهار، أو إشارة إلى غناه عن الضياء بخلاف الإنسان في المشاهدة والاحاطة بالاشياء.

وقال في الصفة الحادية عشرة والثانية عشرة المكملة والموضحة لما سبق من صفات «لَيْسَ إِذْرَاكُهُ بِالْإِبْصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْإِخْبَارِ». فهذه الأمور مرتبطة بالجسم والجسمانيات وذوي العلوم الناقصة والمحدودة، هو ليس من قبيل الأجسام ولا

١. «يرهقه» من مادة «رهق» على وزن «شفق» غشي الشيء أو القهر والغلبة كما وردت بمعنى تسلط الشيء.

محدود في إحاطته العلميّة.

وهنا يرد هذا السؤال: لم يركز الإمام عليه السلام في عدّة خطب على هذه المضامين ويؤكد عليها ويصر على غنى علم الله عن الأمور المذكورة، ما سرّ هذا التأكيد؟ نقول في الجواب: إنّ إحدى أعظم المشاكل في معرفة الله، قضية مقايسته بالمخلوقات، كونه يتعامل طيلة حياته معها فيقيس بها كلّ شيء، المخلوقات المحدودة من جميع الجوانب، العلم والقدرة والزمان والمكان والإدراك والشهود والتقلب والزوال، فإذا دار الكلام عن معرفة الله استعان - عالماً أو جاهلاً - بذلك القياس فيهوي في وادي التشبيه الخطير.

ومن هنا فإنّ هذا المعلم الرباني يحذر كراراً من الانزلاق إلى الهاوية والمقايسة بين الله وأيّ من مخلوقاته التي تبعد عن معرفة الله وتخلق لديه أوهاماً يتعبد بها.

والحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «كُلُّ مَا مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلُكُمْ مَزْدُودٌ إِلَيْكُمْ»<sup>١</sup>. إشارة رائعة لهذا المطلب.

ولذلك كان الأئمة عليهم السلام دائمي المراقبة لصحبهم وأتباعهم حذراً من السقوط في مستنقع التشبيه أو التعطيل، في حين سقط فيه العديد ممن لم يسر على نهجهم ويتبعهم، ومن نماذج هذا الانحراف الخطير، الإيمان بتجسم الله وتشبيهه بمخلوقاته والاعتقاد بإمكانية رؤيته ومشاهدته الحسية في الدنيا أو على الأقل في الآخرة والتي يلتزم بها الأعم الأغلب.

وأورد الإمام عليه السلام كلمات قصيرة عظيمة المعنى بشأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

في القسم الآخر من هذه الخطبة الذي ذكره السيد الرضي تحت عنوان «وَمِنْهَا فِي ذِكْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله» فبيّن عليه السلام سبعا من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي تشير إلى رفعة مقامه وسعة إصلاحاته في المجتمع الإسلامي فقال: «أُرْسِلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي

الإِضْطِفَاءِ، فَرَتَّقَ<sup>١</sup> بِهِ الْمَفَاتِقَ<sup>٢</sup> وَسَاوَرَ<sup>٣</sup> بِهِ الْمُغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحَزُونََةَ<sup>٤</sup>، حَتَّى سَرَّحَ<sup>٥</sup> الضَّلَالَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ».

المراد من الضياء أحد الاحتمالات: نور الإيمان أو العلم أو القرآن أو الوحي أو جميعها، أي أن الله بعث النبي ﷺ بنور الوحي والقرآن والإيمان ليضيء بها الكون العبارة «قَدَّمَهُ فِي الإِضْطِفَاءِ»، ربّما إشارة إلى خاتمية النبي ﷺ (لأنه لو لم يكن خاتماً سيرد ديناً أسمى من دينه) أو إشارة لأفضليته على جميع الأنبياء والخلق، المراد من «مفاتق» الاختلافات الواسعة التي سادت مجتمع الجزيرة وقضى عليها النبي ﷺ، ووحدهم تحت لواء الإسلام.

العبارة «وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ» إشارة إلى قطع أيدي الظلمة والطغاة عن المستضعفين والمحرومين والذي حصل ببركة ظهور الإسلام والذين سلموا جميعاً لقدرة الدين الجديد.

والعبارة «وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ» يمكن أن تكون إشارة إلى حل المشاكل المعنوية والعقائدية والاخلاقية أو المشاكل المادية والاجتماعية أو جميع ذلك في ظل ظهور الإسلام.

وتشير العبارة «حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ» إلى نهاية جميع المفاسد التي أشير إليها في العبارات السابقة، أي زوال أنواع الضلال اليمين والشمال ومن جميع الجوانب بالنبي ﷺ ورسالته.

وربّما تشير العبارة «عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ» إلى الإفراط والتفريط أو إشارة لكل الطرق التي تؤدي إلى الفساد، قطعاً هذه الإصلاحات ليست مختصة بزمان ظهور

١. «رتق» من «رتق» على وزن «حتم» الاتصال.

٢. «مفاتق» المواضع المنشقة جمع «مفتق» على وزن «مكتب» من مادة «فتق» (ضد رتق).

٣. «ساور» من «المساورة» الغلبة والسيطرة من مادة «سور» على وزن «غور».

٤. «حزونة» ضد سهولة، الخشن والغلظ في الأرض.

٥. «سرح» من «التسريح» الترك والطرده ومن هنا يقال للطلاق تسريح ومادته الأصلية «سرح» و«سروح» الاطلاق والتحرير.

النبي ﷺ فلو عملنا اليوم بالتعاليم والوصايا الإسلامية لتحققت وحدة الأمة الإسلامية ولقطعت أيدي الطغاة والظلمة ولهانت جميع الازمات والمشاكل الاجتماعية، فكل ذلك من آثار التعاليم الإسلامية.





## وَمِنْ حُطْبَتَيْ لِبْنِ عَلِيٍّ السَّالِمِيَّةِ

يَصِفُ جَوْهَرَ الرُّسُولِ، وَيَصِفُ الْعُلَمَاءَ، وَيَعِظُ بِالتَّقْوَى<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة كما أشرنا من ثلاثة مقاطع: أشار عليه السلام في المقطع الأول عقب شهادته لله بالعدل إلى جانب من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي تشير إلى طهارة جوهر ذات النبي من جميع الجهات، وتطرّق ضمناً إلى لطف الله بالمطيعين من عباده وإمداده الغيبي لهم.

وتحدث في المقطع الثاني عن العلماء الربانيين وصفاتهم البارزة وكيفية تعاملهم مع الآخرين.

وأورد في الختام مواضع كثيرة من شأن العمل بها تربية روح الورع والتقوى لدى الإنسان بعبارة موجزة بليغة.

١. سند الخطبة:

روى الأمدى في «غرر الحكم» جانباً من هذه الخطبة مع اختلاف يدل على أنه اقتبسها من مصدر آخر غير «نهج البلاغة».



## القسم الأول

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ وَعَدْلٌ، وَحَكَمٌ فَصَلَّ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،  
وَ سَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ  
عَاهِرٌ، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ.

أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمًا، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا.  
وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُثَبِّتُ  
الْأَفْئِدَةَ، فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ.

## الشرح والتفسير

### النسب الطاهر للنبي ﷺ

استهل الإمام عليه السلام خطبته - كسائر الخطب - بالشهادتين (وإن دلت الواو في  
«وأشهد» أنه كانت قبلها بعض المطالب) فقال: «وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ وَعَدْلٌ، وَحَكَمٌ  
فَصَلَّ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَ سَيِّدُ عِبَادِهِ».

التعبير (عَدْلٌ) الذي له معنى مصدرى، للتأكيد، أي أن ذات الله عين العدل،  
والعبارة التي أتت به بصيغة الفعل الماضي (عدل) تأكيد آخر و(حكم) له معنى واسع  
يشمل حكم الله في جميع الجوانب التكوينية والتشريعية، وأنه فصل وفرقان بين  
الحق والباطل على الدوام.

والعجيب أن ابن أبي الحديد نسب الضمير في (أنه) إلى القضاء والقدر ويعتقد  
بأنه كان قبل هذه العبارة (وفصله السيد الرضي، ووافقه عدد من الشراح، في حين  
تشير العبارة «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» إلى أن الشهادة السابقة شهادة

مرتبطة بالله، بالإضافة إلى أن «حكم عدل» من صفات الله لا صفات القضاء والقدر<sup>١</sup>. ويشير وصف النبي الأكرم ﷺ في العبارة المذكورة بالعبودية قبل الرسالة إلى أن أعظم فخر للإنسان عبودية الله والعبارة «سَيِّدُ عِبَادِهِ» تأكيد آخر لهذا المعنى، نعم كل ما هنالك في عبودية الله، ثم قال في ذكر صفات النبي ﷺ: «كُلَّمَا نَسَخَ اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا».

إشارة إلى أن نوره ﷺ في صلب آدم كان ينتقل من صلب لآخر ولما كان يظهر عدّة أبناء من نسله كان نوره المبارك في الفرع الأفضل من ذلك النسل وما زال كذلك حتى انتقل من صلب عبد الله لرحم آمنة بنت وهب.

ثم أضاف: «لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ<sup>٢</sup>، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ». وهونفس المضمون الذي ورد في زيارة وارث في الإمام الحسين عليه السلام: «أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ نُورًا فِي الْأَصْلَابِ الشَّامِخَةِ وَالْأَزْحَامِ الْمُطَهَّرَةِ، لَمْ تُنَجَّسْكَ الْجَاهِلِيَّةُ بِأَنْجَاسِهَا وَلَمْ تُلِيسْكَ مِنْ مُدْلِهَمَاتِ ثِيَابِهَا»<sup>٤</sup>.

وهو ذات المعنى الذي ورد في النبي الأكرم ﷺ: «لَمْ يَزَلْ يَنْقُلُنِي اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى الْمُطَهَّرَاتِ حَتَّى أَخْرَجَنِي فِي عَالَمِكُمْ هَذَا لَمْ يُدَنَّسْنِي بِدَنَسِ الْجَاهِلِيَّةِ»<sup>٥</sup>.

والعبارة الواردة في هذه الخطبة والزيارة والرواية بالإضافة إلى بيان فضل النبي

١. هنالك عبارات في كتاب «تمام نهج البلاغة» الذي أورد عبارات مكتملة لهذه الخطبة تشير بوضوح إلى أن

الضمير في «إنه» يرجع إلى الله تعالى لا إلى القضاء والقدر (تمام نهج البلاغة، الخطبة ٢٢، ص ٢٩٩).

٢. «نسخ» من «النسخ» على وزن «مسخ» تعني في الأصل انتقال الشيء، ومن هنا يقال حين ينتقل الظل إثر

-بركة الشمس: «نسخت الشمس الظل» كما يقال لكتابة شيء على كتابة أخرى استنساخ، لأنها تنقل المطلوب.

ومنه النسخ في الأحكام لأن حكماً يحل محل آخر والنسخ في العبارة إشارة إلى انتقال النطفة من الأب إلى

الأب الآخر والذي تنتقل عن طريقه الصفات من الآباء إلى الأبناء.

٣. «عاهر» الشخص الفاسق والفاجر.

٤. مصباح المتهجد، ص ٧١٧.

٥. بحار الأنوار، ج ١٥، ص ١١٧؛ مجمع البيان، ج ٣-٤، ص ٤٩٧.

الأكرم ﷺ تعلمنا جميعاً هذا الدرس وهو أن فترة تربية الإنسان بغية بلوغ المقامات الرفيعة تبدأ من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات وأن العامل الوراثي أحد عوامل تبلور شخصية الإنسان، وإن لم يكن العامل الفريد، وهناك الكثير الذي يقال بهذا الخصوص سنتعرض له في الأبحاث القادمة على ضوء مناسبة الكلام إن شاء الله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى السائرين على نهج رسول الله ﷺ الذي بين صفاته في العبارات السابقة ليشير إلى ضرورة تربية بعض الطوائف في كل عصر في ظل تعاليم النبي ﷺ وليواصلوا مسيرته، فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا».

إشارة إلى أن هذا الطريق لا يخلو في أي عصر ومصر من سالكيه ولا تتوقف خطط الخير والحق والطاعة؛ فهؤلاء من ذوي الإرادات الصلبة والنيات الطاهرة ولذلك شملتهم الطاف الله، العبارة «وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَةِ عِصْمًا» ربّما تشير إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام أوصياء النبي ﷺ حماة الحق وأمناء طاعة أوامر الله، كما ورد في الزيارة الجامعة: «وَالْحَقُّ مَعَكُمْ وَفِيكُمْ وَمِنْكُمْ وَإِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ وَمَعْدِنُهُ». وما ورد في الحديث الذي رواه مصادر الفريقين: «عَلَيَّ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ يَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ»<sup>١</sup>.

وربّما تشير إلى القرآن وسنة المعصومين عليهم السلام أو العلماء ولا يبعد جمع هذه التفاسير الثلاثة في مفهوم العبارة، ثم بشر أولئك السائرين بأنهم ليسوا وحيدين إزاء زخم مشاكل الطاعة وأن نصرة الله منجزة لهم دائماً، فقال: «وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ<sup>٢</sup> عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُثَبِّتُ الْأَقْيَدَةَ. فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ».

نعم، فالله لا يترك عباده المؤمنين فينطق ألسنتهم ويرسخ إرادتهم ويقوي

١. بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٣٧٦؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٩٧.

٢. الضمير «يقول» يعود إلى «الله» الذي ذكر سابقاً والمعنى أن الله يجعل لسانهم ناطقاً ويجري عليه الخير.

عزائمهم؛ وقد ورد هذا الأمر كراراً في القرآن: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾<sup>١</sup>.  
 وقال في موضع آخر: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>٢</sup>.  
 وهذا ما نلتمسه كل يوم في الصلوات اليومية ونسأل الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ  
 نَسْتَعِينُ﴾<sup>٣</sup>.



١. سورة طه، الآية ٤٦.  
 ٢. سورة إبراهيم، الآية ٢٧.  
 ٣. سورة الفاتحة، الآية ٥.

## القسم الثاني

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمُهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيَفْجَرُونَ عُيُونَهُ. يَتَوَاصِلُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسِ رَوْيَةِ وَيَضْرُونَ بِرِيَّةٍ، لَا تَشْوِبُهُمُ الرَّيْبَةُ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ. عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ، فَعَلِيهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصِلُونَ، فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبَدْرِ يُنْتَقَى، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ، وَهَدَّبَهُ التَّمْجِيزُ.

## الشرح والتفسير

### حفظة علم الله

تطرق الإمام عليه السلام بعد أن فرغ من ذكر جانب من أبرز صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى الساترين على نهجه أي العلماء والعرفاء وخلص المؤمنين فبين عشرًا من صفاتهم، والحق أن من تحلى بهذه الصفات فهو من أولياء الله وخاصة أتباع النبي صلى الله عليه وآله فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمُهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيَفْجَرُونَ عُيُونَهُ».

تشير هذه الصفات الثلاث إلى أن هذه الطائفة من عباد الله تمكنوا بتوفيق الله وإلهاماتهم الباطنية من تحصيل العلوم وحرسوا هذه العلوم وبلغوها طالبها، فهم الحفظة والحارسون والناشرون لتلك العلوم وعلى غرار ري عيون الماء المتدفقة للأراضي العطشى وإنماء مختلف الأشجار والأزهار والنباتات فهم ينشرون الدين في قلوب عطشى للمعارف ويغرسون في نفوسهم الفضائل الإنسانية. ولعل العبارة «يَصُونُونَ مَصُونَهُ» تعني ما ذكر آنفاً؛ أي أنهم يتحفظون على

١. «مستحفظين» من مادة «حفظ» من يحفظ ما يودع إليه.



العلوم الربانية عمّن لا يستحقها، أو بمعنى أنهم صانوا هذه العلوم بأمانة وجهدوا في إيصالها من جيل لآخر من خلال تأليف الكتب ونشرها.

وواصل كلامه بالإشارة إلى أربع صفات أخرى فقال: «يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسِ رَوِيَّةٍ<sup>١</sup> وَيَضُدُّوْنَ بِرِيَّةٍ<sup>٢</sup>».

فقد أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق إلى الأبعاد العلمية لأولئك العلماء الربانيين وتطرق هنا إلى جوانبهم العلمية؛ وربما كان المراد من «يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ» ولاية الله وأوليائه التي ربطت هذه الفئات مع بعضها؛ أو الولاية بمعنى الحب والمودة التي الفت قلوبهم.

وتشير العبارة «وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْمَحَبَّةِ» إلى أن هذه المحبة القلبية تتجلى حين لقائهم بالفعل والقول.

وتشير العبارة الثالثة إلى أن جلساتهم مركز تبادل العلوم والمعارف؛ فكلّ منهم يملأ إناء الآخر بعلمه كما ورد في العبارة الرابعة «وَيَضُدُّوْنَ بِرِيَّةٍ» ثم قال في بيان صفتين أخريين «لَا تُشَوِّبُهُمُ الرِّيَّةُ، وَلَا تُشْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ». ولعل العبارة (ريبة) تشير إلى أن مبانيهم العقائدية وإيمانهم على درجة من الرسوخ بحيث لا يشوبه أدنى شك وارتياب أو أن حياتهم نقية وطاهرة بحيث لا يشك أحد في حسن سريرتهم ودقة أعمالهم كما يمكن أن تشير العبارة «وَلَا تُشْرِعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ» أنهم لا يتلوثون بالغيبة أو أنهم على درجة من الطهر بحيث لا يسمح الآخرون لانفسهم باغتيالهم.

طبعاً لا تتنافى هذه التفاسير المتعددة ويمكن جمعها معاً في مفهوم العبارة السابقة.

ثم قال على سبيل التأكيد: «عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَقَهُمْ».

١. «روية» صفة مشبهة من «ري» على وزن «حتى» زوال العطش.

٢. «برية» تركيب من الباء الجازة و«رية» اسم المصدر من «ري» على وزن «حتى» الري من العطش.

لا ينافي هذا التعبير الاختيار في الأعمال لأنّ الإنسان إن انطلق مختاراً إلى الله أتته الإمدادات الغيبية والعنايات الإلهية، وبغض النظر عن ذلك فإنّ الله أودع البشرية منذ البداية أرضية الصلاح والسعادة لتطوي بها مسيرة التكامل.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين من صفات أولئك العلماء الربانيين فقال: «فَعَلَيْهِ يَتَّخَاثُونَ، وَبِهِ يَتَوَاصِلُونَ».

نعم! حبّهم لأحدهم الآخر لله وإرتباطهم ناشيء من علاقتهم المشتركة بالكمالات، أمّا المنافع المادية والصلات الحيوانية والاشترار في المقامات الدنيوية ليست سبباً قط في إرتباطهم وحبّهم لبعضهم البعض.

ثم بيّن في ختام هذه الفقرة بتشبيه رائع كيفية انتخاب هذه الفئة من بين سائر الناس وقال: «فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى<sup>١</sup>، فَيُؤَخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِصُ، وَهَذَبَهُ التَّمْحِصُ<sup>٢</sup>».

أجل! هؤلاء بذور عالم الخليفة المنتقى الذين اختارهم خالق عالم الوجود للتهذيب والكمال ليجعلهم بهيئة شجرة طيبة أكلها دائم بتوفيق الله ومدده الغيبي. وزبدة الكلام أنّ هؤلاء الأعلام الذين يتصفون بهذه الصفات ويطوون مراحل التكامل في ظل عناية الله ويزدادون كلّ يوم قرباً من الله لم يبلغوا هذا المقام عبثاً، فقد جدوا واجتهدوا في إصلاح أنفسهم وجلاء قلوبهم من صدأ الأهواء وأخلصوا نياتهم واجتازوا الامتحان الإلهي الشاق فبلغوا ذلك المقام، وتلك عاقبة كلّ من سلك طريقهم.

❦❦❦

١. «ينتقى» من «النقاوة» بمعنى الطاهر والخالص. وتعني الاصطفاء والاختيار حين تأتي في باب افتعال.  
٢. «التمحيص» التطهير والإخلاص وورد بهذا المعنى أيضاً من مادة «محص» على وزن «فحص»، وإن تضمن التمحيص تأكيداً أكثر ولما كان الامتحان سبب التنقية والتطهير فقد وردت هذه المفردة بمعنى الامتحان.



## القسم الثالث

فَلْيَقْبَلِ امْرَأً كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلِيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلِيَنْظُرَ امْرُؤًا فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مَقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنَزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوِّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ. فَطُوبَى لِمَنْ يَلْبَسُ قَلْبَ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُزِيدِيهِ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَةَ هَادٍ أَمْرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ، وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ، فَقَدْ أَقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ.

## الشرح والتفسير

### المهتدون

خاطب الإمام عليه السلام هنا الجميع داعياً إياهم إلى سلوك سبيل العلماء الربانيين الذين بين صفاتهم في القسم السابق، والواقع أنه استعرض هنا مراحل السير والسلوك إلى الله فقال: «فَلْيَقْبَلِ امْرَأً كَرَامَةً<sup>١</sup> بِقَبُولِهَا، وَلِيَحْذَرْ قَارِعَةً<sup>٢</sup> قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلِيَنْظُرَ امْرُؤًا فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مَقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنَزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوِّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ».

فالإمام عليه السلام لفت في الخطوة الأولى إنباه الجميع إلى قصر عمر الدنيا وفناء الحياة

١. «الكرامة» تعني في الأصل الشرف، الشخصية، المثل، الاحترام والنعمة وما معناها في العبارة فيرى البعض أنها مفعول به فقال: مفهوم الجملة أنه ينبغي على كل إنسان أن يقبل الكرامة الإلهية والنعمة بقبول هذه الصفات البارزة، وعليه فالكرامة بمعنى كرامة الله وإشارة إلى نعمه، الاحتمال الآخر «كرامة» من قبيل المفعول له ومفهوم الجملة كل إنسان يقبل هذا الكلام للكرامة والمحبة.

٢. «قارعة» من مادة «قرع» بمعنى الضرب وقارعة تطلق على الحوادث المهمة والصعبة: كالموت والزوال. فأحد أسماء القيامة «القارعة» لأنها تقترن بحوادث صعبة.

وحلول الموت حتى لا يكونوا كأصحاب الدنيا الذين نسوا الآخرة ورأوا الدنيا خالدة. وهذه هي حالة اليقظة التي تمثل المرحلة الأولى في السير والسلوك إلى الله، وهل من عامل لليقظة أنجع من ذكر الموت وحلول الأجل؟

وواصل كلامه بالإشارة إلى طهارة واصطفاء دليل الطريق فقال: «فَطُوبَى لِمَنْ يَلْبَسُ قَلْبَ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُزِدِيهِ<sup>١</sup>».

وبالنتيجة فإنه يظفر بطريق السلامة بمعونة من يبصره وبطاعته للمرشد الهادي الذي يأتمر به فيبلغ الطريق قبل أن تغلق بوجهه أبوابه وتتقطع سبله «وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ يَبْصُرُ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَةَ هَادٍ أَمْرُهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ».

وهكذا يوصي الإمام عليه السلام أتباعه أن يسلكوا الطريق فلا يسيروا عليه دون دليل وهاد فيبلغوا الهدف في ظل هداية العلماء الربانيين والسائرين السابقين مادامت الفرصة سانحة وأبواب الهدى مشرعة.

واختتم الإمام عليه السلام كلامه بالدعوة إلى التوبة وجلاء صدأ الذنب عن القلب والذي يعد الشرط الأصلي لسلوك هذا الطريق فقال: «وَأَسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ<sup>٢</sup>، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ».

فيفتح بهذا الطريق مسار القرب إلى الله بوجه الإنسان ويشمل بخاصة لطف الله.

## تأمل

### الحاجة إلى المرشد في السير والسلوك

تضمنت هذه الخطبة بعض الإشارات إلى نقطة وهي: هنيئاً لمن اقتفى آثار الهادي وواصل طريقه ببصيرة من يبصره بالطريق وأطاع من يهديه إلى الطريق القويم.

١. «يردي» من مادة «رذى» على وزن «رعد» بمعنى الهلكة، أو السقوط المقرون بالهلكة و«يردى» (من باب أفعال) يعني يهلك.

٢. «حوبه» تعني في الأصل الحاجة التي تسوق الإنسان إلى المعصية، ثم اطلقت على مطلق المعاصي أو الكبائر.

وتشير هذه الخطبة وماورد في أمثالها من «نهج البلاغة» هذا السؤال: هل طي المقامات المعنوية التي يعبر عنها بالسير والسلوك إلى الله تتطلب استاذاً خاصاً طوى هذا الطريق وخبر مطباته وآفاته فيأخذ بأيدي السائرين الجدد ويوصلهم إلى الهدف؟ بعبارة أخرى: هل تكفي التعليمات الكلية التي وردت في الكتاب والسنة لسلوك هذا الطريق أم أن كلّ سالك لهذا الطريق بحاجة إلى استاذ بما يناسب استعداده وروحيته ليعينه في تشخيص الجزئيات؟ وكما لا تكفي نصائح اطباء لجميع المرضى، بل يحتاج كلّ مريض إلى فحص وتشخيص للمرض ليصف له العلاج، فهل بلوغ المقامات المعنوية كذلك؟

طبعاً سياق الآيات القرآنية والروايات الإسلامية أن لجميع المؤمنين من خلال الإتيان بما ورد في الكتاب والسنة والالتزام بالأحكام الشرعية والإلتفات إلى لطائف هذين المصدرين العظيمين، الوصول إلى ذروة الإيمان والمسارة إلى القرب الإلهي. فإننا لا نجد في سيرة صحابة النبي الإكرم ﷺ وأصحاب الأئمة المعصومين عليهم السلام من انتخاب أستاذ خصوصي، حتى الروايات التي وردت كإجابة لسؤال بعض الأفراد مفيدة لعامة المؤمنين.

يستدل أنصار انتخاب الأستاذ الخاص أحياناً بهذه الأمور:

١. تشير قصة الخضر وموسى عليه السلام إلى أن الله اصطفى مرشداً لموسى وكان مكلفاً بطاعة أوامره.

٢. ربّما من هذا القبيل قصة موسى وشعيب عليه السلام.

٣. يلمس مثل ذلك في قضية لقمان وابنه.

٤. آية السؤال في القرآن المجيد: «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»<sup>١</sup> تأمر

الجهال بطرح مشاكلهم العلمية والفكرية على العلماء.

٥. مضى في الخطبة ١٠٥ من «نهج البلاغة» أن الإمام عليه السلام قال: «أَيُّهَا النَّاسُ

١. سورة الأنبياء، الآية ٧.

اسْتَضْبِحُوا مِنْ شُعْلَةٍ مِضْبَاحٍ وَاعِظُوا مَثْعَطًا».

٦. قال الإمام السجادة عليه السلام: «هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرْشِدُهُ وَذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ سَفِيهُ يَعْضُدُهُ»<sup>١</sup>.

٧. يمكن أن تكون العبارات الواردة في هذه الخطبة شاهد آخر على هذا المطلب؛ لكن أغلب ما ذكر كدليل على هذا المطلب لا يخلو من مناقشة، فالذي يفهم ممّا ورد في آيات القرآن بشأن موسى والخضر لا علاقة له بهذا المطلب. فقد أمر موسى عليه السلام بأن يتعلم من الخضر بعض العلوم بخصوص العالم البشري أو عدم الاعتراض على بعض الحوادث التي يستهجن ظاهرها ومن هنا لما رأى موسى عليه السلام بعض الأمور انفصل عن الخضر وواصل طريقه ولا صلة لهذا الأمر بطي المقامات المعنوية والسير والسلوك إلى الله على هدى المرشد.

كما لا يلمس أدنى شيء ممّا ذكر في القصة، طبعاً لا يمكن إنكار أنّ الإنسان يسعه التعلم ممن لازم النبي وتعلم منه العديد من المطالب والتجارب. كما يشاهد في قضية لقمان وولده سلسلة من المواعظ الكلية ذات الطابع العام وقد أوردها القرآن بهذه الصفة.

آية السؤال أيضاً بخصوص مسألة التقليد والرجوع إلى العلماء والمجتهدين، كما استدل بذلك في كتب الأصول، بعبارة أخرى إشارة لبيان الأحكام بصورة كلية، لا الأحكام الخاصة والشخصية.

وقد اقتضت الإشارة إلى هذا المطلب في رواية «البحار» وبعض خطب «نهج البلاغة».

وزبدة الكلام إن أردنا التسليم بانتخاب الاستاذ المرشد كشرط ضروري في طي المقامات المعنوية، فإنّ ذلك لا ينسجم مع ظواهر الكتاب والسنة وسيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام؛ ولكن إن أردنا التسليم به كمساعد لطي هذا الطريق،

فالأمر يبدو حسناً؛ إلا أنه لا ينبغي الغفلة عن قضية أساسية وهي أن هذا الموضوع استغل طيلة التاريخ وحتى في هذا الزمان من قبل الطالحين والمنحرفين، وفي بعض الموارد خلط بأفكار المتصوفة وتعاليمهم الشاذة لكي لا تبعد السالك عن مقام القرب فحسب، بل أبعدته عن الله تماماً.

فإن رأى الإنسان حقاً أنه بحاجة لمثل هذا الاستاذ، عليه أن يتشدد في اختياره خشية أن يسلم نفسه للشيطان ظاناً أنه الخضر والمرشد إلى الله، وإنما ننصح الجميع لاسيما الشبان الأتقياء الذين يفتشون عن الاستاذ أن يعكفوا بالدرجة الأولى على الكتب الحسنة التي ألفها العلماء الأتقياء الورعون المعروفون ومن ثم اصطفاء الاستاذ الذي ينشدون.

والجدير بالذكر أيضاً ما يراه البعض أن الاستاذ ضرورة في بداية الطريق فإذا ما سار على الدرب فلا حاجة لذلك الاستاذ ولا بد من الانفتاح على التعاليم الإسلامية الواردة في الكتاب والسنة.

يستفاد من الروايات والتواريخ الإسلامية أنه كان للنبي الأكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام أصحاب خاصين حملة أسرارهم كعلي عليه السلام بالنسبة للنبي ﷺ و«كميل» و«الأصبع بن نباتة» و«ميثم» و«رُشيد الهجري» وأمثالهم وكذلك سائر الأئمة؛ ولكن لا علاقة لهذا الموضوع بمسألة الاستاذ والتلميذ في أمر السير والسلوك بحيث يعين الاستاذ كل يوم درساً جديداً لطبي الطريق ويكون لكل تلميذ دروسه الخاصة، بل كما قيل إن أولئك كانوا حملة أسرار المعصومين عليهم السلام وعلومهم التي يعجز عن إدراكها الآخرون.

على كل حال لا شك في أن وجود الأستاذ الخبير والعالم بالطريق يستفيد منه الإنسان في طبي الطريق المعنوي، الأستاذ الثقة من جميع الجوانب لمن الأمور الحسنة، إلا أن الأمر ليس كما يذهب إليه من عدم إمكانية بلوغ هذه المقامات بالكتاب والسنة وما فيهما من تعاليم، والمهم أن يكون للإنسان عزم وإرادة على طبي



هذا الطريق وإلا فالطريق واضح وسالك إن توكل الإنسان على الله فهو هاديه ومرشده.

ونؤكد في الختام ثانية أنّ هنالك العديد من الطالحين الذين أضلوا الكثير من الشبان بهذه العناوين الزائفة على أنه المرشد والدليل فلا بد من الاحتياط والحذر الشديد في التعامل مع هؤلاء الشياطين الذين يتلبسون بلباس الإنس.

## فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

كَانَ يَدْعُو بِهِ كَثِيرًا

### نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة في الواقع مركبة من سلسلة من الأدعية العميقة المعنى والقيمة للغاية كان الإمام عليه السلام يدعو بها في أغلب الأوقات وتتكون من قسمين: القسم الأول: الحمد والثناء على الله الذي غدانا بهذه النعم المعنوية والمادية ولم يحجبها عنا.

وسأل الإمام عليه السلام الله ثلاثاً من خلال ثلاثة أقسام قصيرة وعميقة تشرع كل منها بـ«اللهم»، وغالباً ما تنطوي هذه الأدعية على جانب معنوي، وإن لم تخل من بعض العبارات المادية، ومن المناسب التضرع بها عقب الصلاة أو القنوت وفي سائر الأوقات التي يقبل فيها الإنسان على الدعاء لينال بركاته وفضله.

❦❦❦

#### ١. سند الخطبة:

ورد في «مصادر نهج البلاغة»، أن «السيد ابن باقي»، معاصر «المحقق الحلي»، ذكرها في كتاب «الاختيار»، كما في «نهج البلاغة»، سوى العبارة الأخيرة التي رواها بصيغة أخرى وأضاف لها سائر العبارات التي تشير إلى أنه استقاهها من مصدر آخر غير «نهج البلاغة». وستردها إشارات أخرى بمصادر هذا الدعاء في ذيل الخطبة ٢٢٥.



## القسم الأول

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضْبِحْ بِي مَيِّتًا وَلَا سَقِيمًا، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوِقِي بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُوذًا بِأَسْوَأِ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي، وَلَا مُرْتَدًّا عَن دِينِي، وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنْ إِيْمَانِي، وَلَا مُلْتَبِسًا عَقْلِي، وَلَا مُعَذَّبًا بِعَذَابِ الْأَمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصْبَحْتُ عَبْدًا مَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي. وَلَا أُسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أُعْطَيْتَنِي، وَلَا أَنْقِي إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي.

## الشرح والتفسير

### اللهم كل شيء لك

هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام ليس خطبة، بل دعاء عميق المعنى جمع فيه جميع خير الدنيا والآخرة.

فقد حمد الله واثى عليه على إنقاذه له من عشرة أشياء من شأن كل منها سلب رزق الدنيا والآخرة، فقال في أربعة أقسام منها: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُضْبِحْ بِي مَيِّتًا وَلَا سَقِيمًا، وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوِقِي بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُوذًا بِأَسْوَأِ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعًا دَابِرِي<sup>٢</sup>».

العبرة «لَمْ يُضْبِحْ» إشارة إلى أنّ الإنسان يمكنه النجاح في حياته حين يكون سليماً نشيطاً منذ تباشير الصباح ولا بدّ من شكر الله على هذه النعمة.  
العبرة «وَلَا مَضْرُوبًا عَلَى عُرْوِقِي بِسُوءٍ» فسرها طائفة من شراح «نهج البلاغة»

١. «عروق» جمع «عرق» على وزن «حرص» مجازي الدم في البدن واطلقت على أصل كل شيء وجذره.  
٢. «دابر» تعني في الأصل الظهر أو الشخص التابع ومن هنا يطلق على الأولاد والأجيال التي تعقب الإنسان «دابر».

بأنها إشارة إلى الأمراض التي تشوّه شكل الإنسان كالبرص والجذام، وذلك كناية عن هذا المعنى في عرف العرب، بينما فسّر البعض العروق بمعنى الأعضاء وأنّ العبارة إشارة إلى سلامة أعضاء الإنسان التي تعد من أعظم النعم. وفسّر البعض الآخر العروق بمعناها الأصلي؛ يعني إشارة إلى أنّ خلق العروق من الآفات، من النعم العظمى التي تستحق الحمد والثناء، ونعلم اليوم أنّ أحد الأمراض الشائعة والخطيرة انغلاق عروق القلب والدماغ الذي يعدّ العامل المهم للسكتة القلبية والدماعية.

النعمة الأخرى الكبرى هي بقاء نسل الإنسان ووجود الأولاد الصالحين الذين تعود أعمالهم الصالحة على آبائهم وأمهاتهم والتي أشير إليها بالعبارة «وَلَا مَقْطُوعاً دَابِرِي».

ثم أشار إلى ست نعم أخرى تستحق الحمد والشكر: «وَلَا مُزْتَدّاً عَنِّ دِينِي، وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشاً مِنِّ إِيْمَانِي، وَلَا مُلْتَبِساً عَقْلِي، وَلَا مُعَذِّباً بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِنِّ قَبْلِي».

ما أكثر أن يشمل الإنسان بداية أمره بالنعم الربانية العظيمة لكنه قد يفقدها في أثناء مواصلته الطريق؛ وهناك عدد من العبارات المذكورة إشارة إلى تداوم النعم؛ نعمة الدين والإيمان والعقل، وعليه فالشمول بالنعمة يستحق الحمد والثناء وبقاؤها ودوامها كذلك، فالنعم آيلة للزوال لولا لطف الله.

العبارة «وَلَا مُنْكَرًا لِرَبِّي» بعد العبارة «وَلَا مُزْتَدّاً عَنِّ دِينِي» من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

العبارة «وَلَا مُعَذِّباً بِعَذَابِ...» إشارة إلى العذاب الأليم والشاقّ الذي أصاب بعض الناس كالصاعقة، العواصف الشديدة والزلازل العظيمة والآفات العصبية في بدن الإنسان وروحه.

١. «ملتبس» من مادة «لبس» على وزن «حبس» بمعنى الخطأ و«ملتبساً عقلي» بمعنى إرتباك الفكر والعقل.

العبارة «وَلَا مُسْتَوْحِشًا مِنْ إِيْمَانِي» إشارة إلى أنّ الإنسان يمتلك الإيمان أحياناً لكنّه يخشى أن يلوّث بالمعاصي أو يخشى من زواله.

تضرع الإمام عليه السلام: أحمدك وأشكرك على إفاضة الإيمان المقرون بالسكينة. ولما كان أحد أهم مقامات العارفين والمقربين، التسليم لأمر الله والاعتراف بالنقص تضرع الإمام عليه السلام مواصلاً دعاءه: «أَصْبَحْتُ عَبْدًا مَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لِي. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أُعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَّقِي إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي».

أعظم فخر للإنسان أنه عبد لله كما ورد على لسان الإمام: «إِلَهِي كَفَى بِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا»<sup>١</sup>.

والتعبير «ظَالِمًا لِنَفْسِي» إشارة إلى أنّ الإنسان لا يسعه قط أداء حق العبودية حيث تضرع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «إِلَهِي مَا عَبْدُنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»<sup>٢</sup> فلا بد أن يكون الآخرون أولى بهذا الاعتراف بالتقصير.

١. خصال الصدوق، ج ٢، ص ٤٢٠، ح ١٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٣.



## القسم الثاني

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أَضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أَضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ!  
اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعةٍ تَرْجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي!  
اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!

## الشرح والتفسير

### النعم المكملة

حمد الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة، الله وأثنى عليه على ما يغذيه به من نعم كبرى ويتضرع هنا إلى الله ويسأله النعم المكملة لتلك النعم السابقة من خلال ثلاث عبارات استهلها بـ «اللهم»: «اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أَضَامَ<sup>١</sup> فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أَضْطَهَدَ<sup>٢</sup> وَالْأَمْرُ لَكَ!». فهذه العبارات الأربع التي تعود جميعاً إلى التوحيد الأفعالي تشير إلى أن الغنى والهدى والنصر وغلبة الأعداء وجميع المشاكل ميسرة في ظل لطف الله؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾<sup>٣</sup>.

١. «أضام» من «الضيم» على وزن «غيم» بمعنى الظلم والإذلال.

٢. «أضطهد» من مادة «ضهد» على وزن «مهد» بمعنى قهر و«الاضطهاد» بمعنى التأكيد في القهر.

٣. سورة فاطر، الآية ١٥.



وقال تعالى: «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي»<sup>١</sup>.

وقال تعالى: «إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ»<sup>٢</sup>.

ثم تضرع في الدعاء الثاني وطلب فقال: «اللهم اجعل نفسي أولَ كريمةٍ تنتزِعُها مِن كرائمِي، وأوَّلَ وديعةٍ تزجِعُها مِن ودائعِ نعيمِكَ عِنْدِي!». «

كريمة» تعني في الأصل، الشخص القيم والأشياء النفيسة وهي هنا إشارة إلى أعضاء الإنسان المهمة كالعين والأذن واللسان التي تذكر كنعمة إلهية ووديعة ربانية لتكون إشارة إلى لطف الله ورحمته وإلى أن النعم ودائع تسترد في خاتمة المطاف.

على كل حال فمضمون هذا الدعاء ورد بصيغة أخرى في أدعية سائر المعصومين عليهم السلام؛ جاء في دعاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في أعمال ليلة النصف من شعبان: «اللهم أمتغننا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا»<sup>٣</sup>.

حقاً إن الإنسان إذا فقد أواخر عمره نعمة قدرة الروح والبدن والبصر والسمع فإنما يتحول إلى ميت متحرك تصبح حلاوة شهد الحياة مرارة على لسانه بحيث يتمنى الموت والخلاص من هذه الحالة في كل لحظة.

من البديهي أنه ليس المراد في هذه الأدعية أن الله يأخذ من الإنسان في البداية أواخر عمره، روحه ثم بصره وسمعه، بل المراد أن أعضاءه تبقى سليمة حتى أواخر عمره.

وتضرع في الدعاء الثالث: «اللهم إنا نعوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَن قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَن دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعُ بِنَا هَوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِن عِنْدِكَ!». «

تعوذ الإمام عليه السلام بالله في هذا الدعاء من ثلاث معاصي ودواهي عظمي:

١. أن ينسى الإنسان أوامر الله ونواهيه ويمرّ عليها غير مُبالٍ.

١. سورة الأعراف، الآية ١٧٨.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٦٠.

٣. بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٤١٣، دعاء ليلة النصف من شعبان.

٤. «تتابع» من مادة «تتابع» (مصدر باب تفاعل) بمعنى الحمل بسرعة نحو الشيء.

٢. أن تتسلل وساوس الشيطان إلى قلب الإنسان فتصدّه عن الحقّ.

٣. أن تستولي أهواء النفس على الإنسان فتصدّه عن هدى الله.

يقيناً، لو استجيبت هذه الأدعية الثلاث التي تبدأ بـ (اللهم) لنال الإنسان جميع خير الدنيا وسعادة الآخرة فما أحرانا أن نستحضر هذه الأدعية فإذا شعرنا بحالة الدعاء أقبلنا على الله وطلبنا منه ذلك.

أورد الإمام عليه السلام الكلام في القسم الأول والثاني من هذا الدعاء، بصيغة المتكلّم؛ لكنّه ذكره في القسم الأخير بصيغة المتكلّم مع الغير ليسأل الله صالحه وصالح جميع المسلمين.



## وَمِنْ خُطَبَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

### خُطْبَتَا بِصِيفَيْنِ<sup>١</sup>

#### نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة من خطب «نهج البلاغة» المهمة التي أوردتها الإمام عليه السلام في يوم صيفين، فاشتملت على مباحث مهمة تتمحور في أربعة أقسام:

١. الحقوق المتبادلة بين الوالي والرعية (الحاكم والشعب) تناول فيه القانون الكلي بشأن الحقوق فقال: الحق دائماً ذو حدين؛ فمن كان له حق على آخر فلا آخر أيضاً حق عليه، وهذه مسألة مهمة سنتعرض لها إن شاء الله.

٢. شرح في القسم الثاني حقوق الحاكم على الأمة وحقوق الأمة على الحاكم وأكد هنا استحالة صلاح الأمة دون صلاح الحاكم، والعكس، أي كل من هذين الأمرين يؤثر في الآخر.

٣. القسم الثالث إجابة الإمام عليه السلام لأحد أصحابه حيث أثنى كثيراً على الإمام

١. سند الخطبة:

ورد في «مصادر نهج البلاغة» ذيل هذه الخطبة رواها قبل السيد الرضي المرحوم الكليني في «روضة الكافي» ج ٨، ص ٣٥٢ عن الإمام الباقر عليه السلام. وما ورد في «الكافي» أكثر مما ورد في «نهج البلاغة» وتختلف بعض عباراته عما في «نهج البلاغة» دون تغيير في المعنى (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٢٩).

وعبر له عن وفائه التام، فتواضع الإمام للغاية في الردّ عليه وصرّح له: بأنني لا استسيغ أي مدح وثناء فالعظمة لله وحده.

٤. جرى الكلام في القسم الرابع عن العلاقة الصحيحة بين الحاكم والشعب وأكد على ضرورة ابتعاد الحاكم عن التملق، والاستعداد لسماع النقد والمعارضة لينطلق المجتمع نحو الصلاح والسداد.

## القسم الأول

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ. وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعِذْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلِكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفْضُلًا مِنْهُ، وَتَوْسَعًا بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ.

## الشرح والتفسير

### سعة حجم الحقوق

دعا الإمام عليه السلام في مستهل هذه الخطبة جميع صحبه إلى أداء وظائفهم من خلال بيان حقه على الأمة فقال: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ».

فقد أشار عليه السلام إلى قضية مهمّة في باب الحكومة الإسلاميّة كانت تختلف في الواقع عن جميع الحكومات آنذاك، فالحكومات المستبدة كانت ترى كلّ شيء لها والرعية كالعبيد ما عليهم إلا الطاعة العمياء وإن كان لها من شيء فهو منه وبالفضل وليس حقاً من حقوقهم عليه، بينما يصرّح الإمام عليه السلام، بأنّ الحكومة الإسلاميّة حقوق متبادلة؛ حق الحاكم على الأمة وحق الأمة على الحاكم وكلاهما ثقل وذو مسؤوليّة.

ثم أشار إلى قاعدة كلية وشاملة في الثقافة الإسلامية فقال: «فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ ١، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ ٢، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ».

حيث أشار عليه السلام في الواقع إلى أمرين:

الأول: أن الجميع عارفون بالحق وكل يتحدث عنه ويتشدد به لحفظ مصالحه، بينما تراه في غاية التشدد حين العمل لأداء حقوق الآخرين، وكأنه يرى الحق أحادي الجانب.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في الأمر الثاني إلى هذا الأمر الأساسي وهو ليس هنالك من حق أحادي الجانب في أي مورد؛ فإن كان لأحد حق، كان عليه مثله؛ مثلاً، للأستاذ حق على تلميذه، كونه علمه ورباه، وللتلميذ قطعاً حق على أستاذه، فعليه أن لا يألو جهداً في تعليمه وتربيته، كونه وضع فكره وعمره وشبابه تحت تصرفه، وإن كان للدائن حق على المدين في ضرورة أداء الدين في وقته، فإن للمدين حقاً متبادلاً في أن يمهل إن تعذر عليه التسديد في الوقت المطلوب \* وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ٣.

وإن كان للرجال حقوق على النساء، فللنساء مثل ذلك على أزواجهن: \*وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ\* ٤.

بل للأبناء عليهما حقوق كثيرة، كما أن للأبناء حقوقاً على الآباء والأمهات، ومن أراد الوقوف على سعة الحقوق المتبادلة للناس على بعضهم فليراجع رسالة الحقوق

١. «تواصف» من مادة «وصف» بمعنى أن بعض الأشياء وصف لبعضها الآخر. وتعني في الخطبة أن الناس في

الكلام كل يؤدي بشأن الحق.

٢. «تناصف» من مادة «نصف» على وزن «هدف» وعلى وزن «حرص» الانصاف ومعنى «تناصف» أن كل شخص

يراعي الانصاف بحق الآخر.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٨٠.

٤. سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام ١، حتى الحيوان له حق على الإنسان إن كان مملوكه ٢.

ثم أشار عليه السلام إلى حق الله على العباد حتى أن هذا الحق ليس أحادياً، وإن كانت عبارة حق العباد على الله ليست مناسبة من جوانب؛ إلا أن هذا الحق يبدو بلباس التفضل: «وَلَوْ كَانَ لِأَخْدَ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لَلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ».

فالكلام إشارة إلى أن قدرة الله تقتضي من جانب أن لا يترك عباده ويلطف بهم من جميع الجهات وتقتضي عدالته من جانب آخر أن لا يصيب الإنسان أدنى ظلم، سواء في عالم التشريع أم عالم التكوين، وعليه فهناك فارق بين الله وعباده؛ فلعل العباد يفرطون بحقوق الآخرين إثر عجزهم أو الحاجات التي تضطرهم لهجر العدالة، لكن كيف يرضى القادر المطلق والعاقل على الاطلاق بضياع حقوق عباده؟! ومن هنا يمكن استثناء الحق المتبادل بشأن الله واقتصار الحق عليه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفْضُلاً مِنْهُ، وَتَوْشَعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ».

وبعبارة أخرى أن الله جعل لعباده حقاً عليه إزاء حقه عليهم، وإن كان هذا الحق تفضل دون أن يكون لعباده دين عليه، كونهم لا يؤدون جزءاً من شكره مهما أطاعوه وعبدوه إزاء ما غمرهم به من نعم، ومن هنا لم يستثن حتى الله تعالى من هذا الأمر؛ أي كما له تعالى حق على العباد فهم كذلك لهم حق عليه، وإن كان هذا الحق من باب التفضل، لا الاستحقاق.

١. أورد المرحوم العلامة المجلسي رسالة الحقوق للإمام السجاد عليه السلام في بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٠.  
٢. ورد في كتاب الحج من «وسائل الشيعة»، باب تحت عنوان «حقوق الدابة الواجبة والمندوبة» وهو مهم للغاية وأشير لهذا المعنى في الخطبة ١٦٧.



## تأمل

## الثواب استحقاق أم تفضّل؟

ورد هذا البحث لدى علماء الكلام منذ القدم، هل الثواب الإلهي استحقاق أم تفضّل؟ بمعنى إن أطاع العباد أوامر الله فهل على الله إنابتهم، وإلا كان ذلك قبيحاً عليه؟ أم ليس للعباد أي شيء على الله إن إمتثلوا أوامره وتركوا نواهيه، وإن أثابهم فمن باب اللطف والرحمة، وإلا كان عين العدل؟ قال بعض المتكلمين الذين يميلون لمذهب الأشاعرة بالتفضّل بينما ذهب مذهب الاعتزال للقول بالاستحقاق.

يرى القائلون بالاستحقاق أنّ إزام العباد بالطاعة يتضمن مشقّات، فإن كان الإلزام هدفاً فهو ظلم وقبيح ولا يصدر من الحكيم، وإن كان له هدف فليس ذلك الهدف سوى الثواب الجميل، وعليه إن لم يعط الله الثواب استلزم القبح المحال على الله، أمّا القائلون بالتفضّل فيقولون: إنّ الله غمرنا بالنعمة لو فنيّا أعمارنا في طاعته لم نؤد شكر جزء من نعمه، وعليه فلا نستحق منه شيئاً ليلزم بإعطائه.

إلا أنّ المذهبيين كأنهما غفلاً نقطة الالتفات إليها يكشف النقاب عن هذه المسألة ويجلي الحق، وهي أنّ استحقاق الثواب حين يقدم أحد خدمة لآخر فيتوقع عليها الأجر والثواب، بعبارة أخرى، قال المذهبان بالثواب أو ما يشبهه على طاعة أوامر الله؛ فالمذهب الأوّل يقول: إنهم تلقوا أجرهم من قبل بصيغة نعم إلهية، والثاني يرى أنّهم لا بدّ أن يحصلوا عليه لاحقاً.

والحال نعلم أنّ لجميع الأوامر والنواهي مصالح تعود لنفس المكلفين، فالصوم والصلاة والحج والجهاد سبب صفاء الروح وتكامل النفس والعزّة والرفعة وترك الذنب والغيبة والخمر والقمار ينقذهم من المفساد والانحرافات، وعلى هذا الأساس فإنّ المكلفين إنّما يخدمون أنفسهم في الطاعة وترك المعصية، فهل لهم أن يروا لأنفسهم أجراً على الله إزاء خدمتهم لأنفسهم؟!!

يبدو الأمر أشبه بالطبيب الرؤوف بمرضه فينصحه مجاناً ويزوده بالدواء فيلتزم بها المريض ويشفى من مرضه، فلو ذهب هذا المريض إلى الطبيب وطالبه بالأجر على طاعته لأوامره، ألا يتعجب منه الجميع ويضحكون عليه؟  
وجميع الأوامر والنواهي كذلك، فالنبي الأكرم ﷺ طبيب دوار بطبه وكل ما ذكره لصالح المكلفين، وعليه فلا مجال لبحث قضية ثواب الناس إزاء الطاعة سواء استحقاقاً أم تفضلاً.

نعم كتب الله على نفسه الثواب ووعد به بلطفه وكرمه وحثاً لعباده على طاعته التي توجب كما لهم والله لا يخلف وعده لاستحاله خلف الوعد على الحكيم القادر والعالم، قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾<sup>١</sup>.  
وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾<sup>٢</sup>.

﴿﴾

١. سورة الأنعام، الآية ١٢، وورد هذا التعبير في الآية ٥٤ مع إضافة كلمة «رتبكم».

٢. سورة آل عمران، الآية ٩.



## القسم الثاني

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلَا يُسْتَوْجِبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ. وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأَلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَدْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيُسِّتَ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بَرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَاكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعَمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقِّ عُطْلٍ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فَعِلَ! فَهُنَاكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ.

## الشرح والتفسير

### حق الوالي والرعية

أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق إلى حق الله على الناس وتطرق هنا إلى حق الناس على بعضهم وأهمها حق الوالي على الأمة وحق الأمة على الوالي فقال: «ثُمَّ

جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ».

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام اعتبر حقّ الناس على بعضهم فرعاً من حقّ الله على الناس وناشئ من حقوقه، وبعبارة أخرى فإنّ حقّ الله وحقّ الناس ليسا في عرض بعضهما، بل في طول بعضهما.

ثم قال: «فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ».

بعبارة أخرى لا حقّ أحادي الجانب من هذه الحقوق، بل هي ثنائية جميعاً كما ورد في القسم السابق، فإنّ كان لأحد حقّ على الآخر كان هناك حقّ لذلك الآخر عليه، وعليه فهذه الحقوق متساوية ومتلازمة؛ ليس بمعنى إن لم يلتزم أحد بوظيفته كان على الآخر عدم الالتزام بها؛ مثلاً، لو لم يقم الولد بطاعة والده يتمرد الأب على تربيته وأداء نفقته، أو إن لم تعمل طائفة من الرعية بوظيفتها يقطع الوالي عنها الخدمات، بعبارة أخرى، أنّ هذه من قبيل اللّازم والملزوم في مقام الجواب، لا في مقام التحقق والعمل؛ أي كلاهما واجب، سواء عمل الطرف المقابل بوظيفته أم لا.

ولمزيد من الإيضاح إليك هذا المثل، إن أدّت الرعية ما عليها من ضرائب وخراج سوف لن يتقاعس الوالي عن وظيفته في توفير الأمن لهم وتعليم وتربية أولادهم ومعالجة مرضاهم وجرحاهم، لأنّ كلاً من هاتين الوظيفتين مستقلة وليست مشروطة بالأخرى في مقام العمل، وإن تشابكتا كوجوبين في مقام التشريع. وقال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ<sup>٢</sup>، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ».

١. «تتكافأ» بمعنى تتساوى من مادة «كفو» على وزن «كفر» التساوي في المقام والمنزلة والقدرة، ثم اطلقت على كلّ شبيه ومثيل.

٢. «رعية» من مادة «رعى» على وزن «سعى» بمعنى الحفظ والمراقبة والمراعاة. ومنه «الراعي» لأنّه يحفظ الماشية ويقال للحاكم «راعي» لأنّه يرعى الناس ويطلق على الناس «رعية» لأنهم تحت رعاية وحفظ الحكومة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في فلسفة هذين الحقيين فقال: «فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأُلْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ».

فرعاية هذه الحقوق لها في الواقع آثار مادية مهمة ومعنوية فالعبارة «فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِأُلْفَتِهِمْ» إشارة لآثارها المادية والظاهرية والعبارة «عِزًّا لِدِينِهِمْ» لآثارها المعنوية والروحية، وإلى هذه الحقيقة أشارت العبارتان بعدها إلى صلاح الرعية والوالي وفسادهما تداخلاً مع بعضهما ولكل منها أثره على الآخر، فالوالي الفاسد يسوق الرعية إلى الفساد والرعية الصالحة تضطر الوالي لقبول الحق والعدل، وإن صلحا معاً توفرت أفضل الظروف لرقى المجتمع وتطوره.

ثم خاض في الآثار السلبية لتقاعس الطرفين في أداء الحقوق، بعبارة أوضح وأبلغ عدّد هذه الآثار الواحد تلو الآخر فقال: «فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَدْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَسَّسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ».

فقد بيّن الإمام عليه السلام هنا سبعة آثار مهمة لأداء الحقوق المتبادلة بين الوالي والرعية؛ أولها: العزّة والاقْتدار، وثانيها: قيام مناهج الدين وضعف البدع، وثالثها: ارتفاع راية العدل في البلاد الإسلاميّة، ورابعها: إحياء السنّة، وخامسها: كنتيجة لما سبق، صلاح الوسط الاجتماعي، وسادسها: الطمع في بقاء الحكومة ودوامها، وسابعها: يأس الأعداء، وقد اتضح هذا الأمر على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث كان أعظم مؤدّ لحقوق الأمة وكانت أغليبتها الساحقة تؤدي حق الطاعة فبدت واضحة تلك الآثار السبعة.

١. «اذلال» جمع «ذل» على وزن «ظل» بمعنى جادة محكمة ومستقيمة وبسبب كثرة المرور عليه أصبحت قوية، وأصل هذه الكلمة مأخوذة من «ذلت».

وأما في عهد أمير المؤمنين عليه السلام وإن أُحييت السنن الإسلامية والعدل والقسط إلى حد معين، غير أن الانحرافات التي حدثت عقب وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله طيلة ٣٥ سنة الواحد تلو الآخر والتي أدت في الختام إلى الخروج على حكومة عثمان، وبالتالي قتله، جعلت من المتعذر إعادة المسيرة لما كانت عليه خلال المدّة القليلة لحكومة الإمام علي عليه السلام وبقاء العناصر الخطيرة من الحكومات السابقة كعواوية وبني أمية وبني مروان، الحقيقة التي يعترف بها كل من تمنع بهذه الحقيقة من التاريخ الإسلامي دون تعصب وباستطاعة المسلمين اليوم الظفر بعزتهم واقتدارهم بالاستلها من كلمات الإمام عليه السلام وانسجام الولاية والرعايا والحكام والشعوب.

ثم تناول الإمام عليه السلام الآثار السيئة لتعاقس الوالي والرعية عن حقوق بعضها البعض وقال: «وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَاءُ، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْأِدْغَالُ<sup>٢</sup> فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ<sup>٣</sup> السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النَّفُوسِ».

فبين الإمام عليه السلام أيضاً سبع مفاصد لعدم الانسجام بين الحاكم والشعب والذي لمسناه كراراً في حكومات الجور؛ اختلاف الكلمة، الظلم والجور، البدعة والخداع، ترك المنهاج الواضح، العمل بالأهواء والاستبداد، ثم تطرق اثر ذلك إلى النتيجة النهائية لهذه الأوضاع المؤسفة فقال: «فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقِّي عَطْلًا، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلِ فِعْلٍ! فَهُنَالِكَ تَذَلُّ الْأَبْرَارُ، وَتَعَزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ».

فهذه الأمور الخمسة نتيجة مباشرة وغير مباشرة لحكومات الجور، فالناس في ظل هذه البيئة يعتادون على إبطال الحقوق ولا يكثر ثون لرواج الباطل فتصبح هذه

١. «اجحف» من «الإجحاف» هضم حقوق الآخرين ومادته الأصلية «جحف» على وزن «محو» بمعنى إزالة الشيء.

٢. «ادغال» إدخال ما يفسد الشيء. من مادة «دغل» على وزن «دخل» الدخول في مكان خفية لاغفال الصيد.

٣. «محاج» جمع «محجة» الجادة الواضحة والسوية من «الحج» بمعنى القصد فالإنسان يقصد دائماً الطريق

الأمور قضايا عادية لمسنا نماذجها طيلة التاريخ وفي عصرنا، فمن الطبيعي أن لا يشق طريقه صوت الأخيار والأطهار الذين يتبنون الحق ويناهضون الباطل وينحون من الميدان، وبالعكس تكون المناصب الحساسة بيد الأشرار والملوثين المسيرين لذلك الجو، الأمر الذي حدث على عهد حكومة الخليفة الثالث؛ فنفي أبوذر وتسلب مروان وواصل أمثال معاوية ذلك الطريق فقتل من على شاكلة عمار حتى بلغ الأمر يزيد وابن زياد فقتلا أظهر نسل النبي ﷺ وصحبه.

ومن البديهي أن يمسك الله لطفه في هذه الظروف عن الرعية وواليتها ويؤاخذهم بتبعات أعمالهم.





## القسم الثالث

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّصَاحِحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغِ حَقِيقَةِ مَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةَ بِمَبْلَغِ جُهِدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنَ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ أَمْرٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا أَمْرٌ وَإِنْ صَغُرَتْهُ النُّفُوسُ، وَأَقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

## الشرح والتفسير

### ضرورة التعاون في أداء الحقوق

دعا الإمام عليه السلام هنا الجميع بما فيهم الوالي والرعية لما فرغ من الوصية بشأن حق الوالي والرعية بالتعاون مع بعض، ثم أشار إلى ثلاثة أمور اجتماعية مهمة فقال في القسم الأول: «فَعَلَيْكُمْ بِالتَّصَاحِحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ».

ثم أتجه صوب الأمور الثلاثة المهمة فقال بادئ الأمر - بغية عدم اغترار الأفراد وأن لا يظنوا أنهم أتوا بوظيفتهم بهذا الخصوص بأحسن وجه ويتوقفوا بالنتيجة عن الحركة - «فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنْ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغِ حَقِيقَةِ مَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةَ بِمَبْلَغِ جُهِدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنَ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ».

وهذا أصل كلّي أنّ الإنسان إن رضي تماماً عن عمله ولم ير فيه نقصاً وخللاً،

كفَّ عن الحركة وتعثرت مسيرته نحو الكمال، والأمر كذلك فليس للسمو والتكامل وجلب رضى الله من حدود ليقنع بها الإنسان، فلا بدَّ من الاعتراف بالتقصير دائماً وبذل الجهد على الدوام، وعليه فليس هنالك من يستغني عن وعظ الآخرين، لأنَّ النقص والتقصير يبدو أظهر للآخرين، بينما يحول حبَّ الذات دون رؤيته.

ورد في حيث مفصل عن الزهري، قال: «دخلت مع علي بن الحسين عليه السلام على عبد الملك بن مروان قال: فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين عليه السلام فقال: يا أبا محمد لقد بين عليك الاجتهاد، ولقد سبق لك من الله الحسنى وأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله قريب النسب وكيد السبب... وأقبل يشني عليه ويطريه، قال: فقال علي بن الحسين عليه السلام: كل ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره على ما أنعم...؟ كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقف في الصلاة حتى تورم قدماه، ويظماً في الصيام حتى يعصب فوه، فقيل له: يا رسول الله! ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول صلى الله عليه وآله: أفلا أكون عبداً شكوراً.. والله لو تقطعت أعضائي وسالت مقلتي علي صدري لن أقوم لله جلَّ جلاله بشكر عشر العشر من نعمة واحدة من جميع نعمه التي لا يحصيها العادون، ولا يبلغ حدَّ نعمة منها في جميع حمد الحامدين»<sup>١</sup>.

ثم قال في بيان ذلك الأمرين: «وَلَيْسَ أَمْرٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنَزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا أَمْرٌ وَإِنْ صَغَرَتْهُ النَّفُوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ<sup>٢</sup> الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ».

إشارة إلى ضرورة إدراك الجميع لهذه الحقيقة أن ليس أحد من الأقوياء ولا الضعفاء في المجتمع غني عن الآخر، فالله لم يودع شخصاً كلَّ شيء، فقد جعل في

١. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٥٦، ح ١٠.

٢. «اقتحمت» من «الإقحام» الإخفاء أو الدخول في عمل دون تروٍّ وتعني الاحتقار والازدراء ومادته «فحم» على

كلّ رأس فكراً وفي كل بدن قوّة وقدرة؛ صغيراً كان أم كبيراً، وعليه فليس لمن كان مقتدرأً من حيث الفكر والإدارة والقوة البدنية أن يرى نفسه غنياً عن عون أضعف أفراد المجتمع، كما لا ينبغي للأفراد الضعفاء والعاجزين ظاهرياً أن يتصوروا أنّهم ليس لهم دور في إدارة شؤون المجتمع.

روي عن الإمام الرضا عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «غريبان: كَلِمَةٌ حَكِيمَةٌ مِنْ سَفِيهِ فَأَقْبَلُوهَا وَكَلِمَةٌ سَفِيهِ مِنْ حَكِيمٍ فَأَعْفِرُوهَا فَإِنَّهُ لَا حَكِيمَ إِلَّا ذُو عَشْرَةٍ وَلَا سَفِيهِ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ»<sup>١</sup>.

والتاريخ يحتفظ في ذاكرته بالعديد من مثل هذه الحوادث منها ماورد في المعتصم:

لما خرج ملك الروم، وفعل في بلاد الإسلام ما فعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه، وبلغه أنّ امرأة هاشميّة صاحت وهي اسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه، فأجبتها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، ونهض من ساعته وصاح في قصره: النفير النفير، وبلغه أنّ عمورية عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطينية، فتجهز بما لم يعهد من السلاح وحياض الأدم وغير ذلك، وفرّق عساكر ثلاث فرق، فخرّبوا البلاد الروم وقتلوا كثيراً وأحرقوا ووصلوا إلى فانورية، ثم اجتمعوا في عمورية وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وكانت في غاية الحصانة.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في كتابه المسمى بالمسامرة فتح عمورية فقال: فتحها المعتصم في رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وسبب فتحها أن رجلاً وقف على المعتصم فقال: يا أمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة قد لطمها عالج على وجهها، فنادت: وامعتصماه، فقال العالج: وما يقدر عليه المعتصم يجيء على أبلق ينصرك! وزاد في ضربها، فقال المعتصم: وفي

أيّ جهة عمورية، فقال له: الرجل هكذا، وأشار إلى جهتها، فردّ المعتصم وجهه إليها، وقال: لبيك أيتها الجارية، لبيك هذا المعتصم بالله أجابك، ثمّ تجهز إليها في اثني عشر ألف فرس أبلق وفي هذه التلبية يقول له في قصيدة أبوتمام حبيب الطائي:

لَبِيْتُ صَوْتاً رَطِيباً قَدْ هَرَقْتُ لَهُ كَأْسَ الْكُرَى وَرَضَابَ الْحَرْدِ الْعَرَبِ  
فلما حاصرها وطال مقامه عليها، جمع المنجمين، فقالوا له: إنا نرى أنّك ما تفتحها إلّا في زمان نضج العنب والتين، فبعد عليه ذلك واغتمّ لذلك، فخرج ليلةً متجسّساً في العسكر يسمع ما يقول الناس، فمرّ بخيمة حدّاد يضرب نعال الخيل، وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة بضرب نعال الخيل ويقول: في رأس المعتصم، فقال له معلمه: أتركنا من هذا، مالك والمعتصم فقال: ما عنده تدبير، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة على قوّته ولا يفتحها، لو أعطاني الأمر ما بتّ غداً إلا فيها، فتعجّب المعتصم ممّا سمع وانصرف إلى خيامه وترك بعض رجاله موكلاً بالغلام، فلما أصبح جاءوا به فقال: ما حملك يا هذا على ما بلغني عنك؟

فقال: الذي بلغك حقّ، ولكن ما وراء خيائك، وقد فتح الله عمورية فقال: قد وليتكم، وخلع عليه وقدمه على الحرب، فجمع الرماة، واختار منهم أهل الإصابة وجاء إلى بدن من أبدان الصور وفي البدن من أوّله إلى آخره خطّ أسود من خشب، عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر، فحمى السهام بالنار وقال للرماة: من أخطأ منكم ذلك الخطّ الأسود ضربت عنقه، وإذا بذلك الخطّ خشب ساج، فعند ما حصلت فيه السهام المحميّة قامت النار فيه واحترق، فنزل البدن كما هو، وتحامى الرجال، ودخل البلد بالسيف، وذلك قبل الزمان الذي ذكره المنجمون، وفي ذلك يقول أبوتمام حبيب الطائي في قصيدته التي امتدح بها المعتصم عند فتح عمورية:

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنْ الكُتُبِ      فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجَدِّ وَاللَّعِبِ  
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي      مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ<sup>١</sup>

## تأمل

### الحكومات الشعبية

كثر الكلام في عالمنا المعاصر عن الحكومات الجماهيرية؛ لكنها غالباً ما تنتهي إلى دكتاتوريات مرئية وغير مرئية تقتصر على حفظ مصالح الأقوياء والغاصبين، كونها تفتقر إلى العنصر المعنوي والورع السياسي.

وقلنا غير مرئية، كون الطغاة يستعينون بالوسائل الاجتماعية المتطورة وأبواق الدعاية في غسل أدمغة الجماهير ويصادرون آراءهم بوعودهم المعسولة، والنموذج الواضح في عصرنا: الديمقراطية الأمريكية

أضف إلى ذلك فإن آراء هذه الحكومات في أفضل صورة حكومة النصف زائد واحد ونتيجة ذلك الاصطفاف بين الطبقة الحاكمة والنصف ناقص واحد، وقد رأينا في عصرنا مراراً الحكومات التي تتسلم الحكم من خلال آراء الشعب وحيث لم يعملوا لصالح الجبارة فقد سعوا بشتى الوسائل لإسقاطهم، فنجحوا في أغلب الحالات، وكل ذلك كونهم يفتقرون في حكومتهم المادية للغاية للشرط الأساس المتمثل بالعنصر الروحي، وعدم شعورهم بالمسؤولية أمام الله.

وما ورد في كلام الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة يشير إلى سيادة الشعب بأحسن صورها، فقد تطرق بادئ الأمر إلى العنصر المعنوي للحكومة وذكر الجميع أنكم تفرقون بنعم الله بحيث لا يسعكم شكر عشر أعشارها مهما اجتهدتم في طاعته ثم يوصي الحكام أنكم لا تستغنون عن مساعدة كل فرد في المجتمع

١. الفتوحات الإسلامية، احمد بن زيني دحلان (٢ مجلد)، الطبع مؤسسة الحلبي القاهرة (١٣٨٧ق-).

مهما بلغت من القوة والعلم والتجربة والفتنة، فلا بد لكم من إشراك الجميع والاستعانة بهم.

ثم ذكر الجماهير بعدم اعتزال المساهمة في إدارة شؤون المجتمع كيفما كانت أعمارهم ومستوى علومهم، فلا بد من تضافر الجهود والتركيز على عنصر التقوى في تشكيل الحكومة المرضية لله والمجتمع<sup>١</sup>.

❦❦❦

١. تمز علينا حين كتابة هذه السطور حادثان مهمتان هزتا العالم الإسلامي: الأولى: حادثة الإهانة الأليمة للنبي ﷺ بتلك الصور المستهجنة التي عكستها أجهزة الإعلام الغربية والتي انطلقت من الدانمارك لتعم أكثر البلدان الأوربية وموجة استنكار المسلمين التي عمّت العالم وقاطعوا بضائع تلك الدول حتى اضطروا للتراجع ودخلوا مرحلة الاعتذار.

أما الحادثة الثانية فكانت الجريمة التي انتهكت حرمة ضريح العسكريين عليهم السلام حيث استيقظ المسلمون يوم الأربعاء عام ٢٠٠٦ ليروا أيادي الاستعمار والاستكبار والعملاء الرعاع قد أحالوا الضريح إلى ركام من التراب من خلال خطة مدبرة مسبقاً، فأجج مشاعر العالم الإسلامي برمته دون الاقتصار على الشيعة، مستنكرة تلك الجريمة التي سعت لبث الفرقة بين المسلمين وإثارة الحرب الأهلية، جدير ذكره أن كل هذه الأمور كانت تهدف إلى مواجهة الحكومات الشعبية التي تسلمت الأمور في العراق وفلسطين. «اللَّهُمَّ فَرِّقْ بَيْنَهُمْ وَشَدِّدْ سُلْطَانَهُمْ وَخُذْهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ».

## القسم الرابع

فَأَجَابَهُ عليه السلام رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، يُكْثِرُ فِيهِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُ سَمْعَهُ وَطَاعَتَهُ لَهُ؛ فَقَالَ عليه السلام:

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلَالُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعِظَمِ ذَلِكَ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لِمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَطَفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَزَادَ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِ عِظَمًا. وَإِنْ مِنْ أَسْحَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ، وَقَدْ كَرِهَتْ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْأَطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعِظَمَةِ وَالْكِبَرِيَاءِ. وَرُبَّمَا اسْتَخَلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ الثَّقِيَّةِ فِي حُقُوقِ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضِ لَأَبْدُ مِنْ إِمْضَائِهَا.

## الشرح والتفسير

### الشكر على الواجب

لما بلغ الإمام عليه السلام العبارة الأخيرة من القسم السابق «فَأَجَابَهُ عليه السلام رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، يُكْثِرُ فِيهِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُ سَمْعَهُ وَطَاعَتَهُ لَهُ؛ فَقَالَ عليه السلام».

لم يذكر شراح نهج البلاغة من كان ذلك الشخص، إلا أن المرحوم الكليني ذكر في «الكافي» كلاماً طويلاً بين أمير المؤمنين عليه السلام وذلك الرجل، ثم قال: ولم يشاهد



أحد ذلك الرجل بعد ذلك الكلام<sup>١</sup>.

ومن هنا احتمال المرحوم الكليني أن ذلك الرجل هو الخضر عليه السلام الذي كان يرد في بعض المواقع الحساسة على الإمام عليه السلام فيؤدي وظيفته ثم يختفي عن العيون: على كل حال حسب رواية «الكافي» فإن ذلك الرجل قال:

«أنت أميرنا ونحن رعيتك، بك أخرجنا الله عز وجل من الدل وإعزازك أطلق عباده من الغل، فاختر علينا وأمض اختيارك واثمر فأمض ائتمارك فإنك القائل المصدق والحاكم الموفق والملك المخول لا نستحل في شيء معصيتك ولا نقيس علماً بعلمك، يعظم عندنا في ذلك خطرك ويجلّ عنه في أنفسنا فضلك».

فردّ عليه الإمام عليه السلام فأستأنف مدحه وثنائه وتكررت هذه القضية مراراً ثم اختفى

الرجل<sup>٢</sup>.

على كل حال ما ورد في «نهج البلاغة» أن الإمام عليه السلام أجابه: «إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظَّمَ جَلَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعَظْمِ ذَلِكَ كُلِّ مَا سِوَاهُ».

يبدو واضحاً تماماً هذا المعنى من خلال الالتفات إلى أن ذات الله وجود مطلق من جهة ولا متناهي من حيث العلم والقدرة وكل ما سوى الله، قطرة إزاء بحر عظيم متلاطم، كما ورد ذلك في خطبة همام في صفات المتقين: «عَظْمَ الْخَالِقِ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ». فمن تطلع لقرص الشمس كان ضوء الشمعة لا شيء بنظره.

ثم أضاف عليه السلام: «وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظَمَتْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَطَفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَزْدَادَ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ عِظْمًا». هذا الكلام في الواقع جواب على مديح ذلك الرجل المحب للمولى عليه السلام، أي لا تظن أن

١. الكافي، ج ٨، ص ٣٥٥.

٢. المصدر السابق.

كلامك يسوقني للكبر والغرور، فأولاً: أنا عرفت الله بعظمته وما سواه صغير حقير بنظري. وثانياً: أنا مشمول بنعم جمّة وعليّ أن أخضع أكثر من الآخرين لولي نعمتي. وقال مكملًا ومؤكداً هذا الكلام: «وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ الْحَالَاتِ الْوَلَاةَ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ، وَقَدْ كَرِهَتْ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أَحِبُّ الْأَطْرَاءَ<sup>٢</sup>، وَاسْتِمَاعَ الشَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ».

صحيح أنه طبق بعض الاحتمالات كان ذلك المادح هو الخضر عليه السلام ولم ينطق سوى بالحق وما أورده كان في الإمام، بل أكثر من ذلك، إلا أن الإمام أشار إلى أمر ضروري وهو أنني لا استحسن حتى الشناء بالحق فلعله يخلق انطباعاً لدى السامع فيظن أنه يحب هذا الكلام ويتصف بالكبر والفخر والعجب الذي يؤثر سلباً على علاقة الإمام بالأمة.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَلَوْ كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَن تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعِظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ».

«وَرُبَّمَا اسْتَحَلَّى النَّاسُ الشَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُشْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَا بُدَّ مِنْ إِمضَائِهَا».

ورد في النسخة الموجودة في المتن المذكور «وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ» إشارة إلى تقوى الإمام عليه السلام وخشيته في أداء حقوق الناس، بينما ورد في بعض نسخ «نهج البلاغة» ومتن «الكافي» «بقية» ومعنى ذلك، ما زالت لكم عليّ بقية حقوق لا بدّ أن أجدّ في أدائها، فقد أبان الإمام عليه السلام في هذه العبارة غاية رفعته، حيث بيّن عدم إكترائه بالمدح والثناء من جانب ومنتهى خضوعه لله من جانب آخر وبالتالي اعترافه بعدم أداء الحقوق بصورة كاملة، الأمر الذي قلّما نجده في زعيم طيلة التاريخ.

١. «اسخف» من «السخف» على وزن «قفل» و«سخافة» ضعف العقل والجهل.

٢. «إطراء» من «الطراوة» الجديد، وتعني المدح والثناء من باب الإفعال.

## تأملان

## ١. المدح والثناء

مدح الآخرين والثناء عليهم على نوعين؛ نوع ايجابي وبناء وسبب حركة الخدام ويأس الخونة ورقبي المجتمع، والآخر مدعاة للخراب والتخلف وتقوية شوكة الظلمة، وللنوع الأول ثلاثة شروط: الأول، مدح من يستحق المدح، الثاني، عدم خروج المدح عن حده، والثالث، ألا يكون هدف المادح التقرب إلى الممدوح وتحقيق الاطماع.

قال النبي ﷺ: «إِذَا مُدِحَ الْفَاجِرُ اهْتَزَّ الْعَرْشُ وَغَضِبَ الرَّبُّ»<sup>١</sup>.

وورد في حديث آخر: «الثناء بأكثر من الاستحقاق مَلَقٌ وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الْإِسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أَوْ حَسَدٌ»<sup>٢</sup>.

ولا ينبغي الغفلة عن هذا الأمر في ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار قابلية الممدوح؛ حذراً من أن يدعو المدح للغرور ويحرفه عن الحق، كما ورد في قصار كلمات الإمام علي عليه السلام: «رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ»<sup>٣</sup>.

لا شك في أن كل هذه الأمور مع أخذها بنظر الاعتبار فإن المدح والثناء دلالة على التقدير ومعرفة الحق ومدعاة لتشجيع الأخيار والصالحين.

وتعقد اليوم العديد من التجمعات لتكريم المهرة من خدمة المجتمع والعلماء الأعلام وأصحاب الكفاءات العالية وتقدم لهم الجوائز تقديراً لجهودهم مثلاً، للكتاب جراء أفضل كتاب للسنة والعمال والفلاحين النموذجيين ورسائل السلام والصدقة في العالم وتكريمهم وتقديرهم، والتي تلعب دوراً بناءً إن لم تكتسب صبغة سياسية وتقدم الروابط على الضوابط وحفظ الشرط الثالث المذكور في حسن نية المشرفين.

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٢.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٤٧.

٣. المصدر السابق، الكلمة ٤٦٢.

إلا أن النوع الثاني يناقضه تماماً؛ أي إذا مُدِحَ الأشرار وغير المستحقين وأثني عليهم أكثر من الحد وكانت دوافع ذلك العوامل السياسية والحبّ والبغض الشخصي تشجّع الطالحون ويئسّ الفضلاء والخيرون، فينفرد المتملقون في الميدان والمجتمع ويتفوق الصادقون المخلصون.

قال علي عليه السلام: «إِيَّاكَ وَالْمَلَقُ فَإِنَّ الْمَلَقَ لَيْسَ مِنْ خَلَائِقِ الْإِيمَانِ»<sup>١</sup>.

وقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «أُخْشُوا فِي وُجُوهِ الْمُدَّاحِينَ التُّرَابِ»<sup>٢</sup>.

والنقطة الأخيرة في هذه الرسالة ونرى من الضروري ذكرها أن للمدح أحياناً جانباً إيجابياً ويتصف بالشروط المذكورة، لكنه يخلق حالة شاذة لدى الرأي العام ويتهم الممدوح بحب المادح وهذا ما ينبغي أيضاً الابتعاد عنه، وأكثر ما ورد في هذه الخطبة من هذا القبيل.

## ٢. أسنة التملق

التملق كما قيل، المدح والثناء الذي يتجاوز الحدود والكلام الجُزَاف في فضائل الأفراد للتقرب منهم والاستفادة من منافعهم المادية، حتى ذكر الصفات الحقيقية لشخص دون الإشارة إلى نقاط ضعفه يعدّ نوعاً من التملق، وأبعد من ذلك ما يفعله بعض المتملقين ممّن جعل نقاط الضعف كنقاط القوّة والتملق عادة لأرباب القدرة والجاه والذي يعتبر من أعظم المخاطر التي تهدد الولاية والحكام والمدراء، لأن أول شرائط الإدارة المعرفة بالحقائق المتعلقة بحيز الإدارة والمتملقون يغطون الحقائق ويخفونها عن انظار المدراء والمسؤولين فيخلق ما لا يحصى من المفاسد. والعجيب أن الزعماء الضالين غير المؤهلين غالباً ما يشجعون المتملقين ويمتعظون من قول الحق ويشعرون بالهدوء الكاذب من تملق المتملقين.

١. غرر الحكم، الحكمة ٢٦٩٦.

٢. من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١١.

وقد عدَّ الإمام عليه السلام التملق من أسوأ الأمراض أو مرض لا علاج له «أدوى الداء الصلف»<sup>١</sup> واحد معاني الصلف التملق والآخر مدح الذات.  
 وقال في موضع آخر: «إِنَّمَا يُحِبُّكَ مَنْ لَا يَتَمَلَّقُكَ»<sup>٢</sup>.  
 وقال: «لَيْسَ الْمَلَقُ مِنْ خُلُقِ الْأَنْبِيَاءِ»<sup>٣</sup>.  
 ولا ينبغي أن ننسى أن التملق يتم تارة بصورة مباشرة وأخرى غير مباشرة أو عن طريق النشر أو الشعر أو العمل وكل آثاره السيئة متساوية.



١. عيون الحكم والمواعظ، ص ١١٧.

٢. المصدر السابق، ص ١٧٧.

٣. المصدر السابق، ص ٤٠٩.

## القسم الخامس

فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَطُنُّوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقِّ قِيلَ لِي، وَلَا الِتِمَاسِ إِعْظَامِ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مِنْ اسْتِثْقَالِ الْحَقِّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلِ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلَا تَكْفُؤا عَنْ مَقَالَةِ بِحَقِّي، أَوْ مَشُورَةِ بَعْدَلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُحْطِيَءَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَأَرْبَ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى.

## الشرح والتفسير

### لا تتملقوا أمامي

جانب مهم من هذه الخطبة - كما أشرنا - في بيان حقوق الوالي والرعية وقد غير الإمام عليه السلام مسار الخطبة بعد أن أثنى عليه أحد الحاضرين إلى جانب خاص من حقوق الوالي والرعية وهو ترك المدح والثناء على الولاية والحكام. ثم خاض هنا آخر الخطبة في آفة أخرى من آفات الحكام والناس في أن إرتباطهم ببعضهم علاقة تملق وكتمان الحقائق المريرة لصعوبتها وترك النقد الصائب والبناء فقال: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلِّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةَ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ».

١. «بادرة» من «البدور» على وزن «غروب» تعني في الأصل المسارعة إلى القيام بعمل و«بادرة» الحركات السريعة والخاطئة التي تصدر من الغاضب.

إشارة إلى أن العاديين من الأفراد حين يقفون بين يدي الجبابة يخفون شخصيتهم الحقيقية ويتحفظون عن كل نقد وشكوى واعتراض حذراً من أن يغضبوا عليهم، ويسعون بالعكس إلى الأمن من سرهم بالمدح والثناء والتعلق، ومن هنا فلا تتضح لهم قط الحوادث الحقيقية في المجتمع فيغفون في وادي الضلالة والجهل. يطمئن الإمام عليه السلام كل مخاطبيه بضرورة بث ما لديهم من شكوى ومشكلة فهم أحرار في ما يقولون بشأن الحكومة والمجتمع.

نعم فهذه إحدى الفوارق البارزة بين حكام العدل والجور، ورد في «العقد الفريد»: وقام رجل إلى هارون الرشيد، وهو يخطب بمكة، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾<sup>١</sup>. فأمر به فضرب مائة سوط، فكان يئن الليل كله ويقول: الموت! الموت! فأخبر هارون أنه رجل صالح، فأرسل إليه واستحلّه فأحلّه<sup>٢</sup>.

وجاء في نفس هذا الكتاب أيضاً: جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال:....، إن الوقت لا ينتظرك، وإن الرب لا يعذرک، قال: صدقت: ومن قال مثل مقالتك، فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك، من هاهنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه<sup>٣</sup>.

بينما رأينا مراراً في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام أن عدداً من المنافقين تفوهوا بأسوأ الكلمات بحضرته كالأسعث بن قيس وبعض الخوارج، فلم يتعرض لهم قط.

ثم قال مواصلاً ذلك الكلام: «وَلَا تَنْظُرُوا بِي اسْتِثْقَالاً فِي حَقِّي قِيلَ لِي، وَلَا اِلْتِمَاسَ اِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتِثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ».

إشارة إلى أن الذين لا يطيقون سماع الانتقاد أعجز عن ممارسة الإصلاح، ومن هنا يوغلون كل يوم في مزيد من الظلم والفساد، وشجع الإمام عليه السلام في تأكيد هذا

١. سورة يوسف، الآية ٣.

٢. العقد الفريد، ج ١، ص ٥٣. (طبق نقل شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٤٤٧ و ٤٤٨).

٣. المصدر السابق.

الكلام جميع مخاطبيه ببيان الحق صراحة وذكر المشاكل الفردية والاجتماعية والتأكيد على العدالة الاجتماعية فقال: «فَلَا تَكْفُرُوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقِّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي».

الجملة «فَأِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ» كانت مبرراً لبعض مخالفتي عصمة الأئمة وأكثروا الضجيج بشأنها، بينما العبارة «إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي» تفسرها بصراحة، فمفهوم العبارة الأولى أنني كإنسان لا آمن الخطأ، ومفهوم العبارة الثانية لي وضع آخر في ظل رعاية الله، شبيه ما أورده القرآن بشأن النبي يوسف عليه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ»<sup>١</sup>.

إشارة إلى أن يوسف عليه السلام كإنسان يخشى عليه أن يتلوث بأهواء امرأة العزيز، إلا أن مشاهدة برهان الرب الذي يشير إلى مقام وعصمة يوسف ومعرفته الرفيعه بالله، حفظته من ذلك.

أضف إلى ذلك فإن الإمام عليه السلام في مقام تربية وتعليم أصحابه فيرشداهم إلى احتمال الخطأ على أنفسهم مهما كانوا؛ لكنه يضع نفسه في زمرةهم تواضعاً، على كل حال لا ينبغي التذرع بهذه العبارة إزاء كل الأدلة على عصمة النبي والإمام. قال النبي الأكرم عليه السلام: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ. قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ اللَّهُ تَعَالَى أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ»<sup>٢</sup>.

والشاهد البليغ الآخر على ما قلنا ما أورده الإمام عليه السلام أواخر الخطبة ٩٧: «وَإِنِّي لَعَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَا جِ مِنْ نَبِيِّ وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الرَّاحِ الْقُطْبَةُ لَقُطاً». وعلى هذا الضوء فالإمام عليه السلام يؤيد أنه سائر على الصواب دائماً بلطف الله ولا سبيل للخطأ إليه.

١. سورة يوسف، الآية ٢٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٣٢٩.



ثم قال في إكمال وتأيد الكلام المذكور: «فإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَأَ رَبِّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى».

وكما ذكر فإن رواية في «الكافي» حيث وردت هذه الخطبة أطول مما ورد في «نهج البلاغة»، والسيد الرضي اقتطف في الواقع جوانب من الخطبة.

ونقرأ في رواية «الكافي» قسماً آخر من هذه الخطبة: «يقال: لم ير الرجل بعد كلامه هذا لأمير المؤمنين، فأجابه وقد عال الذي في صدره فقال والبكاء يقطع منطقته وغصص الشجا تكسر صوته إعظماً لخطر مرزئته ووحشة من كون فجيئته.

فحمد الله وأثنى عليه، ثم شكوا إليه هول ما أشفى عليه من الخطر العظيم والذل الطويل في فساد زمانه وانقلاب جدّه وانقطاع ما كان من دولته ثم نصب المسألة إلى الله عزّ وجلّ بالامتنان عليه والمدافعة عنه بالتفجع وحسن التناء، فقال: يا رَبَّانِي العباد ويا سكن البلاد أين يقع قولنا من فضلك وأين يبلغ وصفنا من فعلك أنى نبليح حقيقة حسن ثنائك أو نحصي جميل بلائك فكيف وبك جرت نعم الله علينا وعلى يدك اتّصلت أسباب الخير إلينا، ألم نكن لذلّ الدليل ملاذاً وللعصاة الكفار إخواناً فبمن إلّا بأهل بيتك وبك أخرجنا الله عزّ وجلّ من فظاعة تلك الخطرات، أو بمن فرج عنا غمرات الكربات...»<sup>١</sup>.

١. الكافي، ج ٨، ص ٣٥٨، ح ٥٤٥. تتمة هذا البحث في «الكافي» لطيفة للغاية فيمكن الرجوع إلى ما ذكر. فقد اغضضنا المواصلة حتى لانخرج عن أسلوبنا في الشرح.

## وَمِنْ كَلِمَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

### فِي التَّظَلُّمِ وَالتَّشْكِيِّ مِنْ قُرَيْشٍ<sup>١</sup>

#### نظرة إلى الخطبة

كما قيل في سند الخطبة فإن هذه الخطبة والخطبة ١٧٢ والخطبة ٢٦ تشترك مع بعضها في أقسام مختلفة وتبدو أنها رسالة كتبها الإمام عليه السلام أو آخر حكومته في الرد على طائفة من أصحابه، فقد أصرت طائفة على الإمام أن يبين رأيه في الأحداث التي أعقبت عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعصر الخلفاء.

فكتب الإمام عليه السلام بناءً على إصرارهم هذه الرسالة وأمر بقراءتها على الناس حتى لا يتمكن المخالفون من تزيف الحقائق وتحريف التاريخ. أشار الإمام عليه السلام إلى قضيتين أساسيتين في هذه الخطبة:

#### ١. سند الخطبة:

ورد جانب من هذه الخطبة في الخطبة ١٧٢ وجانب آخر في الخطبة ٢٦ وكما مضى في سند الخطبة ١٧٢ يبدو أن هذه الخطبة جانب من رسالة كتبها الإمام أو آخر خلافته وبين فيها باختصار الحوادث التي وقعت عقب وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى ذلك الزمان وأمر أن تقرأ على الناس. وأضاف صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغة» أن المرحوم الكليني في كتاب «كشف المحجّة» (ص ١٨٠) طبق نقل السيد ابن طاووس في كتاب الرسائل. ويحتمل أيضاً أن الإمام بين بعض هذه الخطبة في مختلف المناسبات لأكثر من مرة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٣٢).

الأولى: إنه شكاً قريشاً لله أنهم اتحدوا على هضمه حقّه وأنهم قالوا له صراحة عليك أن تتنازل عن حقك في الخلافة!

الثانية: إن الإمام عليه السلام شرح علّة عدم قيامه لأخذ حقّه لأنّه لم يجد أعواناً على هذا الأمر وقد رأى الخطر محققاً بأرواح أهل بيته.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي  
وَأَكْفَوُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا:  
أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَعْمُومًا، أَوْ مَتَّ  
مُتَّسِفًا. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛  
فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى، وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا،  
وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلَقَمِ، وَالْمِ لِقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشَّفَارِ.  
قال الشَّريفُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ، إِلَّا  
أَنِّي ذَكَرْتُهُ هَاهُنَا لِاخْتِلَافِ الرَّوَايَتَيْنِ.

## الشرح والتفسير

### تحمل الصعاب

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة قائلاً: «اللهمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ  
أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَوُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ  
أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي».

بالرغم من أن الإمام عليه السلام قال هذا الكلام أواخر عهد خلافته، لكن هنالك خلاف  
عند شراح «نهج البلاغة» والمؤرخين بشأن الزمان، فهل المراد قضية السقيفة  
والأحداث التي أعقبت وفاة النبي الأكرم عليه السلام أم الشورى التي تألفت من ستة

١. «اكفؤوا» من «الإكفاء» بمعنى قلب الإناء بحيث يسكب كل ما فيه، ومادته الأصلية «كفاء» على وزن «دفع»  
بمعنى التولي.

أشخاص أم الزمان الذي نكت فيه العهد طلحة والزبير واشعلا فتنة حرب الجمل؟  
ويبدو الاحتمال الأول هو الأقوى من بينها ثم الثاني، بينما يستبعد الاحتمال  
الثالث فتمرد طلحة والزبير لا يعدّ من اجتماع قريش على الإمام.

العبارة «أَشْتَعِدُكَ» من «الإستعداد» بمعنى الاستعانة أو الشكوى لأحد.  
العبارة «إِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي» ربّما تشير إلى أنّ غاصبي الخلافة استندوا إلى  
القراية من النبي الأكرم ﷺ في حين كان الإمام أقرب إليه من غيره.  
العبارة «أَكْفُوْا إِنَائِي» يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ النبي الأكرم ﷺ هو الذي  
ملأ هذا الإناء وسلّمه إلى الإمام وعرّفهم به أنّه الأولى بالخلافة من الجميع كراراً؛  
لكنهم قلبوا إناء ماء الحياة رأساً على عقب.

أمّا قوله إنّهُ أولى بهذا الحق منهم جميعاً فهذا ممّا ثبت بالدليل العقلي والنقلي  
لكل منصف؛ فليس هنالك من يمتلك شجاعته أو ورعه وتقواه وزهده.

نقل ابن أبي الحديد في شرح الخطبة ١٧٢ حين ذكر هذه العبارة، عبارات شبيهة  
أخرى تدل جميعاً على أنّ عليّاً عليه السلام كان يرى الخلافة حقّة المسلم وقد غصبه  
الآخرون، ثم قال: فسّرت الإماميّة والزيدية هذه العبارات حسب ظاهرها ولم يروا  
غير علي عليه السلام يليق بها، وأضاف قائلاً: رغم أنّ هذا هو الظاهر الذي ذهبوا إليه لكننا  
نعتبرها كالمتشابه من الآيات فلا نحملها على ظاهرها<sup>١</sup>.

هذا الكلام العجيب ناشىء عن نوع من التعصب والذهنية المريضة ومعنى ذلك  
أننا لا نقبل سوى ما نرغب فيه، يقول جزءاً من المتشابهات، في حين يرد المتشابه  
عندما يكون هنالك إبهام وإجمال في الكلام، لا مثل هذا الكلام الواضح الصريح.  
ثم أشار الإمام عليه السلام إلى منطق مخالفيه العجيب: «وَقَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ  
تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُنْفَعَهُ، فَاضْبِرْ مَعْمُوماً، أَوْ مَتَّ مُتَأَسِّفاً».

حقاً هذا منطق رهيب أن يعترف الإنسان ببعض الأمور أنّها حق لكن لا بدّ من

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣٠٧.

التنازل عنها استجابة للقوة والغطرسة فإما أن يصبر ويتحمل أو يموت كمدأ من القهر، وهذا هو الشعار الذي يهتف به الاستكبار العالمي خفية أو علانية: «المُلْكُ لِمَنْ غَلَبَ» ولا بدّ هنا من سؤال ابن أبي الحديد: هل هذه العبارة جزء من المتشابه وينبغي تأويلها وعدم حملها على الظاهر؟!

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدًا، وَلَا ذَابًّا وَلَا مُسَاعِدًا، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ<sup>٢</sup> بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ».

تشير هذه العبارة إلى أن الناس انسأقت للحكومة آنذاك فهذا طمعاً وذاك خوفاً وثالث حقداً وبغضاً ورثه من المعارك الإسلامية السابقة، وأخيراً الغفلة الجهالة، كان من الطبيعي أن يتعذر على الإمام في ظل تلك الشرائط أن ينهض ليشكل حكومة العدل الإسلامي وهي الامتداد لحكومة النبي الأكرم عليه السلام.

ومن هنا قال إثر ذلك: «فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى<sup>٣</sup>، وَجَرَعْتُ رِيْقِي عَلَى الشَّجَاءِ، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلَقِمِ<sup>٥</sup>، وَالْمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشَّفَارِ<sup>٧</sup>».

إشارة إلى أنه لا ينبغي قط أن يفسر سكوتي على تلك الأوضاع بالدليل على الرضى، بل إنني أتأوه بشدة من الانحرافات التي أعقبت وفاة النبي الأكرم عليه السلام في الحكومة الإسلامية؛ لكن لم يكن أمامي سوى الصبر والسكوت.

وعقب اختتام الخطبة: «قال الشَّريفُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَقَدْ مَضَى هَذَا الْكَلَامُ فِي أَثْنَاءِ خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ، إِلَّا أَنِّي ذَكَرْتُهُ هَاهُنَا لِاخْتِلَافِ الرَّوَايَتَيْنِ».

١. «رافد» من مادة «رفد» على وزن «رطب» بمعنى المعونة والعتاء والمساعدة.

٢. «ضننت» من مادة «ضن» على وزن «فن» تعني في الأصل البخل الشديد؛ لكنها هنا التحفظ الشديد عن الشيء المطلوب.

٣. «قذى» هذه المفردة تقابل تماماً الصفاء والإخلاص ويطلق القذى على الأشياء الملوثة التي تقع في الماء والشوك الذي يدخل في العين ويؤذيها.

٤. «شجى» من مادة «شجو» على وزن «هجو» بمعنى الحزن والشدة كما يطلق على ما يعترض حنجرة الإنسان.

٥. «علقم» نبتة مرّة للغاية ويطلق عليها أيضاً «حنظل» وتطلق هذه المفردة على كل شيء مر.

٦. «وخز» بمعنى اللسع والثقب والأذى.

٧. «شفار» جمع «شفرة» على وزن «دفعة» السكين.



## وَمِنْ كَلِمَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

في ذِكرِ السَّائِرِينَ إِلَى الْبَصْرَةِ لِحَزْبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه العبارات القصيرة إلى الجرائم المتعددة التي إرتكبها أصحاب الجمل الذين انطلقوا برفقة عائشة وطلحة والزبير في طريقهم إلى البصرة ليتمردوا على الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبيثوا التفرقة في صفوف أهل البصرة الذين كانوا متحدين على بيعة الإمام وطاعته، فقد نهب أصحاب الجمل بيت مال المسلمين ونحّوا خزانه وقتلوا طائفة من شيعة الإمام وفئة ممن قاومتهم وإرتكبوا بعض الجنایات التي لا يأتيتها من كان له أدنى حظ من الإيمان.

٤٠٠٨

١. سند الخطبة:

قال صاحب «مصادر نهج البلاغة»، مصادر هذا الكلام هي مصادر الكلام السابق، لأنّ كلامه فصل من رسالة كتبها الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمر بأن تقرأ على الناس (ليقفوا على ما حدث منذ وفاة النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى عصر خلافته). ثم قال: «لذلك ذكر هذا الكلام متصلاً بالكلام السابق في بعض نسخ نهج البلاغة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٣٣).





فَقَدِمُوا عَلَى عُمَالِي وَخُرَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ وَعَلَى أَهْلِ  
مِصْرَ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ  
جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْرًا؛ وَطَائِفَةً عَضُّوا  
عَلَى أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ.

## الشرح والتفسير

### جنايات أصحاب الجمل في البصرة

كما ورد في سند الخطبة فإنَّ هذا الكلام في الواقع جانب من رسالة طويلة كتبها  
الإمام عليه السلام لتسجل في التاريخ وعدم نسيان الحوادث المريرة التي حدثت بعد النبي  
الأكرم عليه السلام.

أشار الإمام عليه السلام في هذا الكلام القصير إلى الجنايات العظمى للناكثين الذين  
أثاروا فتنة حرب الجمل قال: «فَقَدِمُوا عَلَى عُمَالِي وَخُرَّانِ مَالِ بَيْتِ الْمُسْلِمِينَ  
الَّذِي فِي يَدَيَّ».

ثم أضاف قائلاً: «وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي؛ فَشَتَّتُوا  
كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ».

وأشار إلى جريمتهم الكبرى الثالثة وقال: «وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً  
مِنْهُمْ غَدْرًا؛ وَطَائِفَةً عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ».

١. «عَضُّوا» من مادة «عَضَّ» على وزن «سَدَّ» تعني في الأصل العض بالأسنان ثم استعملت لمن يتابع عمله بجد  
والعبارتان «عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ» من هذا القبيل.

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلى ثلاث من جرائمهم البشعة: نهب بيت المال، بث الفرقة والنفاق في صفوف المسلمين وقتل عدد من الأبرياء من المسلمين الصالحين الصادقين.

ورد في حوادث الجمل<sup>١</sup>، عندما أقبلت عائشة - إلى البصرة - على جملها فنادت بصوت مرتفع: أيها الناس، أقلوا الكلام واسكتوا، فأسكت الناس لها، فقالت: إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غير وبدل، ثم لم يزل يغسيل ذلك بالتوبة.. ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرتهم بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان.

قال (الراوي): فماج الناس واختلطوا، فمن قائل: القول ما قالت، ومن قائل يقول: وما هي وهذا الأمر، إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها، وارتفعت الأصوات وكثر اللفظ حتى تضاربوا بالنعال، وتراموا بالحصا.

ثم إن الناس تمايزوا وصاروا فريقين: فريق مع عثمان بن حنيف، وفريق مع عائشة وأصحابها<sup>٢</sup>.

هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بشأن بث النفاق والفرقة بين المسلمين الذين كانوا متحدين من قبل الفئة الباغية التي شقت عصا المسلمين وزرعت الفتنة بينهم إلى يوم القيامة.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣١٥.

٢. المصدر السابق.

## وَمِنْ كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لَمَّا مَرَّ بِطَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَابِ بْنِ أُسَيْدٍ  
وَهُمَا قَتِيلَانِ يَوْمَ الْجَمَلِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام القصير الذي اقتطفه المرحوم السيد الرضي من كلام طويل يبين في الواقع ثلاث نقاط: إحداها، إعرابه عن أسفه على قتل طلحة الذي ما كان ينبغي أن يسلك هذا الطريق الخاطئ وله تلك السوابق في الإسلام فيقتل تلك القتلة الغريبة تحت السماء.

الأخرى، أن أمراء معركة الجمل الذين قتلوا خزّان بيت مال المسلمين في البصرة وشيعة الإمام سينا لون جزاءهم.  
والثالثة، أن أولئك (وأمثالهم) لم يكونوا مؤهلين لما كان يدور في أذهانهم.

١. سند الخطبة:

رواها أبو الفرج الاصفهاني في «الأغانى» والمبرد في «الكامل» وابن عبد ربه في «المقد الفريد» وابن الأثير في «النهاية». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٢٥).



لَقَدْ أَضْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيباً! أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ  
قَرَيْشٌ قَتَلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاجِبِ! أَدْرَكْتُ وَثْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ،  
وَأَفْلَتَنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ، لَقَدْ أَتَلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ  
فَوَقِصُوا دُونَهُ!

## الشرح والتفسير

### المشهد المروع بعد الجمل

كما قيل، فإن الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما مرّ بعد حرب الجمل بجسد طلحة بن  
عبدالله وعبدالرحمن بن عتاب اللذين صرعا غريبين على التراب.  
وطلحة بن عبدالله هو صاحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المعروف الذي بايع الإمام بعد  
مقتل عثمان ولكن حين لم تتحقق آماله في الوصول إلى حكومة بعض الولايات  
الإسلامية، رفع لواء المعارضة واتحد مع الزبير وعائشة واشعل فتيل حرب الجمل  
واكتوى بنارها.

ولم يكن عبدالرحمن بن عتاب من الصحابة؛ ولكنه يعتبر من التابعين، وكان أبوه  
عتاب ممن أسلم في فتح مكة وولاه النبي صلى الله عليه وآله إمرة مكة، وكان لوالده آنذاك اثنتان  
وعشرون سنة وقال له النبي لو كان هنالك من هو أفضل منك لذلك الأمر لولّيته،  
واستمر ذلك حتى عهد أبي بكر وتوفي مع أبي بكر في نفس اليوم، لكن للأسف فإن  
ابنه عبدالرحمن انحرف عن الجادة وأصبح ألعوبة بيد طلحة والزبير ووسيلة لتحقيق  
أطماعهما حتى قتل في حرب الجمل فكان جسده في العراء قرب جسد طلحة.

قيل: لما قتل عبدالرحمن بن عتاب في الجمل حمل يده المقطوعة عقاباً وألقى بها في اليمامة وتعرّف الناس على خبره من خاتمه الذي خط عليه اسمه. على كل حال، أعرب الإمام عليه السلام في بداية الخطبة عن اسفه لقتل طلحة فقال: «لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيباً!».

التعبير (أبو محمد) دلالة على نوع من الاحترام والأسف على غربته لسوابق طلحة الحسنة في الإسلام، حيث كان ممن صحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن الأشداء في الذب عن بيضة الإسلام؛ ولكن للأسف فإن حبّ الجاه والمقام والحسد دفعه لشن حرب دموية ضد خليفة المسلمين الذي نصب من جانب الله والمبايع من قبل الأمة والتي خلفت أكثر من سبعين ألف قتيل.

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكُؤَاكِبِ!».

صحيح أن طلحة والزيير وأمثالهما يستحقون ذلك العقاب، لكن الإمام عليه السلام أعرب عن امتعاضه بكلّ حبّ ورافة وعاطفته الخاصة بالنظر لسوابقه في الإسلام ليته لم يقتل في هذا الطريق وتكون هذه العاقبة، فجميع الأنبياء والأوصياء وأولياء الله يرجحون كفّ الخاطئين وحتى المجرمين الطغاة عن مسيرتهم والالتحاق بصفوف المؤمنين والصالحين.

ثم قال عليه السلام: «أَدْرَكْتُ وَثْرِي<sup>١</sup> مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَسْتَنِي<sup>٢</sup> أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ». هنالك خلاف بين الشراح بشأن المراد من «بني عبد مناف» من هم؛ قال البعض: إنّ المراد بهم طلحة والزيير وعبدالرحمن الذين أشير إليهما آنفاً. وأشكل ابن أبي الحديد على أنّ طلحة والزيير لم يكونا من بني عبدمناف، وأجيب أنّهما يتصلان بعبد مناف من جانب الأم وإن لم يتصلا به من طرف الأب.

١. «وثر» على وزن «سطر» و«وثر» على وزن «فطر» بمعنى الجناية أو الأذى ويطلق على القصاص ووردت بهذا المعنى في العبارة المذكورة.

٢. «أفلستني» من «الإفلات» وردت بمعنى الخلاص والهروب وهي هنا الهروب.

واعترض المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغة على هذا الكلام من جهتين: الأولى أنّ الانتساب إلى القبائل في عرف العرب عن طريق الأب؛ وليس الأم، والأخرى أنّ أم الزبير وإن انتهى نسبها لعبد مناف كونها بنت عبدالمطلب إلا أنّ أم طلحة كانت من اليمن. ولم يذكر العلامة التستري بعد هذين الاعتراضين، من الأفراد المرادون ببني عبد مناف.

وربما كان في أهل الجمل غير عبد الرحمن، بنو عبد مناف الذين إرتكبوا بعض الجرائم وقتلوا هناك؛ إلا أنّ أسماءهم لم ترد في التاريخ لعدم شهرتهم. فبنو جمح طائفة من قريش كانت في معسكر أهل الجمل؛ ولما رأوا المعركة ليست لصالحهم فروا ولم يقتل منهم سوى اثنان.

واختتم عليه السلام هذا الكلام قائلاً: «لَقَدْ أَتَلَعُوا<sup>١</sup> أَعْنَاقَهُمْ<sup>٢</sup> إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوَقَصُوا<sup>٣</sup> دُونَهُ!».

هذا الكلام إشارة إلى طلحة والزبير وأمثالهما الذين يفتقرون لأهلية الخلافة بوجود الإمام عليه السلام بل ليس لهم أهليتها حتى مع عدم وجود الإمام عليه السلام، فحبّ الجاه والتعلق بالدنيا يحول دون أهلية زعامة الأمة الإسلامية.

## تأملان

### ١. حبّ دنيا وعواقبه المشؤمة

كان طلحة والزبير من السابقين إلى الإسلام الذين قاتلوا ببسالة دفاعاً عن النبي والإسلام، كما كانت لهما مكانتهما المميزة بعد النبي الأكرم عليه السلام إلى درجة أنّ عمر لم يتمكن من تجاوزهما في الشورى التي شكّلها لانتخاب الخليفة من بعده؛ لكن حبّ الجاه والمقام والتعلق بالدنيا أخرجهما عن طريق الحق فغيرا مسارهما والتحقا

١. «أتلعوا» من «الإتلاع» بمعنى مدّ العنق من مادة «تلع» على وزن «طرب» بمعنى رفع العنق.

٢. «وقصوا» من «الوقص» على وزن «نقص» بمعنى الكسر.



بصفوف المنافقين.

فمن جانب غارا على بيت مال المسلمين في البصرة وقتلا خزان بيت المال واستغلاه لإثارة معركة الجمل.

ومن جانب، آخر أججا نيران فتنة الجمل التي راح ضحيتها مئات الآلاف من المسلمين وأسا للحروب الأهلية.

ومن جانب ثالث، أخرجنا زوج النبي ﷺ من بيتها وجعلوها مطية لأهوائهم السياسية فانتهدكا من خلال ذلك حرمة النبي الأكرم ﷺ.

ومن جانب رابع، كلاهما قتل في تلك المعركة ولم يحققا اطماعهما الشخصية، وبالطبع سيدوقا وبال أمرهما يوم القيامة بما سوّدا به صحيفة أعمالهما.

هذه كلّها نتائج حبّ الجاه وحبّ الدنيا، الأمر الذي عدّه جميع الأنبياء والأولياء مصدر جميع الذنوب فقد قال الرسول الأكرم ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»<sup>١</sup>.

وقد بيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقة بوضوح بعبارات موجزة عقب الجمل طبق رواية المرحوم الشيخ المفيد، قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة في قضية معركة الجمل: «مرّ الإمام عليه السلام بعد الجمل بطلحة قتيلاً فقال: أجلسوه، فأجلسوه، فقال: «لَقَدْ كَانَ لَكَ قَدَمٌ لَوْ نَفَعَكَ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَضَلَّكَ فَأَزَلَّكَ فَعَجَّلَكَ إِلَى النَّارِ»<sup>٢</sup>.

## ٢. الكفاءة الشرط الأول لكل عمل

صرّح الإمام عليه السلام مختتماً خطبته المذكورة بأن طائفة اشترأت أعناقها لنيل الحكومة الإسلامية؛ وحيث لم تكن جديرة بها فقد كسرت رقبتها، إشارة إلى أن كلّ عمل ومشروع يتطلب كفاءة معينة ولا يكفي مجرد الرغبة بالشئ بغية الوصول إليه

١. روى المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» حديثاً مشهوراً في شعب الذنوب ودوافعها عن الإمام زين العابدين عليه السلام جاء في آخره: «فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفته ذلك: حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ». (الكافي، ج ٢، ص ١٣١، ح ١١، باب ذنب حبّ الدنيا).

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٤٧.

ولا يمكن شغل مواقع العظماء بالمجان إلا أن يعدّ الإنسان الأسباب العظيمة.  
صحيح أن البعض استند إلى تلك المواقع دون إعداد تلك الأسباب؛ ولكنهم  
واجهوا الهزيمة والخسران في خاتمة المطاف إثر سوء إدارتهم.



## وَمِنْ كَلَامِ إِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ

في وَصْفِ السَّالِكِ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

كما يتضح من عنوان الخطبة خاض الإمام عليه السلام في هذا الكلام الموجز البليغ، في التعريف بالسالك إلى الله والسائر على الطريق وعدَّ سبب موفقيته إلى إحياء العقل وإماتة أهواء النفس وصرح أنّ بارقة من نور أطفاف الحق تقتدح في قلبه في ظلّ هذا العمل؛ الذي يضيء المسير ويوصله إلى مقام النفس المطمئنة ورضى الله.

٤٣٧٨

١. سند الخطبة:

نقل صاحب «مصادر نهج البلاغة» هذا الكلام عن «غرر الحكم» للآمدني باختلاف كبير يدل على أنه رآها في مصدر آخر غير «نهج البلاغة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٣٦).



قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ  
لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرَقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ  
إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارَ الْأَقَامَةِ، وَتَبَعَتْ رِجْلَاهُ بِطَمَأْنِينَةٍ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ  
وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

## الشرح والتفسير

### سالك طريق الحق

طرح الإمام عليه السلام في هذا الكلام العميق المعنى، دورة عرفانية إسلامية من خلال عبارات موجزة واستعرض شرائط السير والسلوك إلى الله ونتائجه ومقاماته فقال: «قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ<sup>١</sup>، وَلَطَفَ غَلِيظُهُ<sup>٢</sup>».

إحياء العقل إشارة إلى الانفتاح على الأدلة العقلية لتكامل الإيمان والحسن والقبح العقليين لتكامل الفضائل الأخلاقية، وهكذا فإن مفردة العقل هنا تشمل العقل النظري والعقل العملي.

أما النفس فلا تعني القضاء على الغرائز النفسانية، بل المراد تهذيبها بحيث لا يسعها القذف بالإنسان في مصائد الشيطان وتصده عن سبيل الله.

المفردة «جَلِيلٌ» في العبارة «دَقَّ جَلِيلُهُ» إشارة إلى الأبدان السمينية والتي أصبحت بهذه الصورة إثر كثرة الأكل والافراط في أكل الأطعمة الدسمة، ويخفف

---

١. «الجليل» بمعنى الكبير أو القيم من «الجلال» بمعنى العظمة وهو هنا إشارة إلى الجسم الإنساني القيم.  
٢. «غليظ» تعني في الأصل الخشن وتعني هنا الفلظة الأخلاقية التي تزول في ظل الرياضة النفسية وتتحول إلى لطافة خلقية.

الوزن بترك الشهوات.

والمفردة «غليظ» في «لَطْفَ غَلِيظُهُ» إشارة إلى أن الخلق الخشن والرذائل الأخلاقية تتلطف في ظل الرياضة النفسانية.

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب آثار هذه الحركة العقلانية والرياضة الشرعية ليعدّ ثمارها الطيبة في ثلاث فقال: «وَبَرَقَ لَهُ لَأَمِعَ كَثِيرُ الْبُرُقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ».

وهذا هو نور المعرفة والمعنويات التي تتجلى للإنسان إثر الرياضات العقلانية والنفسانية وتضيئ له الطريق كما يقول القرآن المجيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ»<sup>١</sup>.

فقد شبّه السائرين على الدرب بالسالكين لطريق صحراوي مظلم؛ ولكنهم يشملون بالعنايات الربانية، يبرق لهم بريق من السماء فينير لهم الطريق ليلج لهم عمق الصحراء. صرّح بعض العارفين المسلمين بثلاث مراحل لأنوار الهداية الربانية التي تحصل إثر الرياضات النفسانية، المرحلة الأولى التي تسمى «اللوائح»؛ وهو نور يشرق في باطنهم؛ ولكنه لا يدوم طويلاً. المرحلة الثانية، التي تسمى «اللوامع» التي لا تزول بسرعة؛ ولكنها تنطفئ بالتالي، والمرحلة الثالثة، «الطوابع» التي تدوم مدّة مديدة وتصون السالك إلى الله من الانحراف.

وقال في القسم الثاني من تلك الآثار: «وَتَدَافَعَتْهُ<sup>٢</sup> الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارَ الْإِقَامَةِ».

على غرار ما ورد في القرآن الكريم: «لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»<sup>٣</sup>.

١. سورة الحديد، الآية ٢٨.

٢. «تدافعت» من «التدافع» بمعنى الدفع والطرده وتعني أحياناً التماس البدني والمعنى الأول هو المراد هنا من مادة «دفع» على وزن «فخر» بمعنى الدفع.

٣. سورة الأنعام، الآية ١٢٧.

وقال على لسان أهل الجنة: «إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ \* الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ»<sup>١</sup>.

ثم قال في القسم الثالث من تلك الآثار: «وَوَيْبَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةٍ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ».

وكأنه ماورد في القرآن: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً \* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي \* وَادْخُلِي جَنَّتِي»<sup>٢</sup>.

نعم! الإنسان في مسير القرب إلى الله في كلِّ زمان يكون عرضة لوساوس شياطين الجنِّ والانس ويهزه خوف الضلال حتى يبلغ ما يزيل عن سماء روحه غيوم وساوس النفس والشيطان، ويقدم في كيانه بريق معرفة الله فيعيش السكينة التامة ويستحق الخطاب «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي \* وَادْخُلِي جَنَّتِي».

ثم اختتم هذا الكلام بالتأكيد على هذه الحقيقة: «بِمَا اسْتَغَمَلَ قَلْبُهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ».

نعم! وهذا ما أشير له في الآيات المذكورة: «ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً».

## تأمل

### مقامات السير والسلوك

إن رواج التعبير بالسير والسلوك في تعبيرات أهل العرفان في عصرنا والعصر القريب منه مقتبس في الواقع من القرآن حين قال: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ»<sup>٣</sup>.

وآيات التوبة مثل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا»<sup>٤</sup>. (بالنظر إلى

١. سورة فاطر، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

٢. سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٣٠.

٣. سورة الانشقاق، الآية ٦.

٤. سورة التحريم، الآية ٨.



أَنَّ التوبة في الأصل تعني العودة). والآية الشريفة «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»<sup>١</sup>.  
الواقع أَنَّ روح الإنسان كالغواص الذي وطئ عالم المادة واقترب بالجسم  
المادّي ليغوص في أعماق بحار هذا العالم ويحمل معه الجواهر النفيسة هناك  
ويخرجها معه.

ويربط الغواصون أحياناً جسماً ثقيلاً بأرجلهم ليلبغ بهم أعماق البحار فان أتموا  
بحثهم طرحوا ذلك الجسم الثقيل ثم يعودون إلى سطح الماء، والسعيد من يعلم اين  
هذه الجواهر النفيسة.

الهدف من هذا السير والسلوك إلى الله الذي يشرع بالتربية وتهذيب النفس  
والتوبة والإنابة والرياضات الشرعية، هو العبور من النفس الأمّارة بالسوء إلى  
النفس اللوامة ومن هناك إلى النفس المطمئنة والوصول إلى رفعة مقام راضية  
مرضية. العبور الذي ينتهي بالتالي بالمكاشفات وإزالة الحجب عن عين الإنسان،  
حيث قال النبي الأكرم ﷺ لذلك الشاب السعيد الذي رآه مواقيت الفجر في صلوات  
الجماعة وبدت عليه آثار قيام الليل: «هذا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ»<sup>٢</sup>.

هناك مقامات ومراحل متفاوتة لهذا السير والسلوك يراها العرفاء والسالكون  
ويعتقد البعض بأنهم اقتبسوها من الآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام.  
فقد أوجز بعضهم النظام اليومي للسالكين إلى الله في أربعة أمور: المشاركة،  
المراقبة، المحاسبة والمعاقبة أو المؤاخذة.

وعلى هذا الضوء يشترط السالك على نفسه في الصباح أن لا يتقدم خطوة في  
غير رضى الله؛ ثم يراقب أعماله طيلة النهار ويفرغ ليلاً للحساب فإن بدر منه خلاف  
عاقب نفسه بحرمانها من اللذائذ وما ترغّب فيه.

وورد اثنا عشر منزلاً ومقاماً لهذا النظام في رسالة السير والسلوك للفقير الكبير

١. سورة البقرة، الآية ١٥٦.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٥٣، ح ٢.

المرحوم العلامة بحر العلوم، ثم يرد الإنسان بعد طيها عالم الإخلاص ومصدقه ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾<sup>١</sup>.

وقد ذكرت في هذه الرسالة الآداب الخمسة والعشرون لبلوغ هذا المقام<sup>٢</sup>.  
المؤسف أن هذه المسألة استغلت كثيراً لاسيما في عصرنا وقد تشبث بها الصوفيون أساس الانحرافات في العقيدة والعمل ليجعلوه شماعه ويتصورون أنهم سالكون إلى الله، بينما هم غالباً مصداق ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً \* الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾<sup>٣</sup> ولكن هنالك بعض الأفراد الذين يتحركون على هدي الكتاب والسنة ولا يحدون عن مسير القرآن وقول المعصومين وهؤلاء هم السائرون والسالكون الحقيقيون.

وقد اعتبر أمير المؤمنين علي عليه السلام إمام العارفين في كلامه الموجز كما بيناه أن أساس سلوك طريق الحق هو إحياء العقل وإماتة النفس وإصلاح الأخلاق، وبين الثمرات الثلاث المهمة لهذا السلوك بصيغة غاية في الروعة والجمال والبلاغة.



١. سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

٢. راجع خلاصة هذه الرسالة وسائر المناهج التي اعتمدها بعض كبار عارفي عصرنا في كتاب الأخلاق في القرآن، ج ١، ص ١٣٣.

٣. سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.



## وَمِنْ كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال بعد تلاوته: «الهاكم التكاثر» \* حتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ»<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

يمكن تقسيم هذه الخطبة إلى أربعة أقسام وإن كانت واردة في تفسير قوله تعالى: «الهاكم التكاثر» \* حتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ»<sup>٢</sup>.

الحديث في القسم الأول عن جهل المتبقيين، بمصيرهم كيف لا يتعظون بمن يتوسدون التراب ويبن في القسم الثاني، كيفية أحوال الماضين وكيف رقدوا تحت التراب وتوسدوا القبور الباردة المظلمة، لا يخبر بهم أحد، خلت بيوتهم ونسيت حياتهم.

القسم الثالث، كأن الإمام يحدثهم ويردون عليه بلسان الحال بما يهز ويوقظ.

١. سند الخطبة:

أورد هذا الكلام على بن محمد شاعر الليثي في كتاب «عيون الحكم والمواعظ» الذي ألفه سنة ٤٥٣ للهجرة وكان متأخراً عن السيد الرضي؛ ولكن الاختلافات والتعبيرات في عدة عبارات من الخطبة تشير إلى أنها اقتبست من مصدر آخر غير «نهج البلاغة». كما فسر ابن الأثير مفرداتها الصعبة في كتابه «النهاية» (واحتمالاً كان لديه مصدر آخر غير «نهج البلاغة»). (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٤٥ بتلخيص طفيف).

٢. سورة التكاثر، الآيتان ١ و ٢.

وتحدث الإمام عليه السلام في القسم الرابع عن أواخر أيام العمر كيف يبأس الأطباء عن العلاج ولا ينفع الدواء ويقترب الإنسان كلَّ آن من نهايته ويبتعد عن أهله وقرابته ويتوقف لسانه ويفقد سمعه ويستحوذ الموت على كيانه، والتمعن في هذه الخطبة يؤثر في الإنسان ويوقظه مهما كان قاسي القلب.

## القسم الأول

يَا لَه مَرَامًا مَا أَبْعَدَهُ! وَزُورًا مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطْرًا مَا أَفْطَعَهُ! لَقَدْ اسْتَحْلُوا مِنْهُمْ  
أَيَّ مُدْكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ  
الْهَلْكَى يَتَكَاثِرُونَ! يَزْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوْتًا، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ وَلَا أَنْ  
يَكُونُوا عَبْرًا، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخِرًا؛ وَلَا أَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْبَبَى  
مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا  
مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ، وَلَوْ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ،  
وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ  
جُهَالًا، تَطْوُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِثُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَزْتَعُونَ فِيمَا  
لَقَطُّوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا؛ وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ  
عَلَيْكُمْ.

## الشرح والتفسير

### التفاخر الفارغ بدل الاعتبار!

كما مضى فإن هذه الخطبة إحدى خطب أمير المؤمنين علي عليه السلام الجامعة الشاملة  
والمؤثرة.

وقد أشاد ابن أبي الحديد إشادة عجيبة بهذه الخطبة وعدّها فريدة من حيث  
الفصاحة والبلاغة وقال: ومن تأمل هذا الفصل علم صدق معاوية في علي عليه السلام:  
«وَاللَّهِ مَا سَنَّ الْقَصَاحَةَ لِقُرَيْشٍ غَيْرُهُ».

ثم قال: وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب في مجلس وتلي عليهم، أن يسجدوا له

كما سجد الشعراء في مواضع الشعر.

وأضاف: وإني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أنّ طبعه مناسب لطباع الأسود، ثمّ يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظة بكلام يدل على أنّ طبعه مشاكلة لطباع الرهبان لابس المسوح الذين لم يأكلوا لحماً ولم يريقوا دماً فيكون كالمتبع في زهده. وأقسم لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظّة وأثرت في قلبي وجيباً وفي أعضائي رعدة وكم قال الواعظون والخطباء في هذا المعنى وكم وقفت على ما قالوه وتكرر وقوفي عليه فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام<sup>١</sup>.

واستناداً لما قيل يجدر بنا أن نتوقف عند شرحنا لهذه الخطبة على عمق كلام الإمام عليه السلام فنستفيد منها بما فيه الكفاية ونلمس آثارها في أنفسنا وأرواحنا. وكما ورد في عنوان الخطبة فإنّ هذا الكلام في الواقع تفسير لأول آيتين من سورة التكاثر ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

ونلقي بادئ الأمر نظرة إجمالية على تفسير الآيتين:

ذكر المفسرون المعروفون تفسيريّن لهما:

(الف) المراد أنّ تكاثركم أنساكم الله والقيامة حتى خرجتم من الدنيا وحللتهم القبور.

(ب) المراد أنّ تكاثركم وتفاخركم أنساكم الله والقيامة حتى زرتم المقابر لإثبات أفضليتكم فعددتهم قبور موتاكم فخراً على من سواكم.

طبعاً الأصح التفسير الثاني، لأنه: أولاً زيارة القبور مستبعدة جداً بمعنى الدفن في القبور وثانياً، لو كان التفسير الأوّل صحيحاً فلا بدّ من القول: «تزوروا القبور» أي يكون الفعل بصيغة المضارع لا الماضي، لأنّ المخاطبين أحياء.

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٥٢ فصاعداً (بتلخيص).

يدور كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة حول المحور الثاني وهذا دليل واضح على ترجيح هذا التفسير.

فقال الإمام عليه السلام: «يَا لَهُ مَرَامًا<sup>١</sup> مَا أَبْعَدَهُ! وَزَوْرًا<sup>٢</sup> مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطْرًا<sup>٣</sup> مَا أَفْطَعَهُ!».

نعم، فالعظام البالية تحت التراب والأجساد المتفسخة ليس فيها ما يدعو للفخر، فما أحرأهم بالاعتبار بدل هذا الافتخار وهم يرون بأم أعينهم أنهم سيحملون ليوسدوا هذا التراب وينقطعوا عن الأهل والقرابة فيفقدون من هذا السبات العميق والنوم الوبيل. ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «لَقَدْ اسْتَخْلَوْا<sup>٤</sup> مِنْهُمْ أَيَّ مُدْكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ<sup>٥</sup> مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ!».

فسر بعض الشراح العبارة «لَقَدْ اسْتَخْلَوْا»: «أنهم سيدكروا من مات منذ مدة وأصبح تراباً ففي التفسير الأول «اسْتَخْلَوْا» وجدوهم خالين وفي التفسير الثاني بمعنى ذكر الأموات.

ثم وبخهم توبيخاً شديداً وذمهم فقال: «أَفِيْمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بَعْدِي الدَّهْلَكِي يَتَكَاثَرُونَ!».

تري مامدى جهل الإنسان الذي يريد أن يفخر بتلك العظام النخرة ويجعل أمواته في عداد الأحياء ويعدهم من الأدلة على كثرته. ثم قال: «يَبْرُ تَجْعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوْتًا<sup>٦</sup>، وَحَرَكَاتٍ سَكَنْتَ».

١. «المرام» بمعنى الهدف والمطلوب ومن مادة «روم» على وزن «قوم» بمعنى الطلب والقصد.

٢. «الزور» بمعنى الزائر ويطلق على المفرد والجمع.

٣. «الخطر» تعني أحياناً الأمر الخطير وأخرى الأمر المهم والمعنى الثاني هو المراد؛ أي أن هؤلاء كانوا يرون كثرة قبور موتاهم مهمة والحال هذا فخر بغيض وموهوم.

٤. «أفطع» من مادة «فضاعة» بمعنى القبيح والبغيض.

٥. «استخلوا» من مادة «خلو» على وزن «غلو» بمعنى الخلو والمضي.

٦. «تناوشوا» من مادة «تناوش» ومن «نوش» على وزن «خوف» بمعنى تناول الشيء بسهولة أو بقوة والتناوش من مكان بعيد الأخذ عن بعد.

٧. «خوت» من مادة «خوى» على وزن «هوا» تعني في الأصل خلت وتعني أحياناً تهدمت وهذا هو المراد بها في العبارة المذكورة.



وأضاف: «وَلَا نَ يَكُونُوا عِبْرًا، أَحَقُّ مِن أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَرًا؛ وَلَا نَ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحَجَى<sup>٢</sup> مِن أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ!».

فقد أكد الإمام عليه السلام في هذه العبارات على هذه النقطة أن نظرة هؤلاء للأمم مقلوبة تماماً وقد أخطأوا في مسارهم حتى عاد القبيح لديهم حسناً، فعلى هؤلاء أن ينظروا إلى الأمم بعين الاعتبار؛ ويشاهدوا أوضاع أخيارهم تحت التراب ويتأملوا مصيرهم على ضوء قانون الموت الذي لا استثناء فيه قط.

ورد في الخبر أنه لما سار علي عليه السلام بصحبه إلى صفين بلغ سبابط المدائن وأطرافه (الموضع الذي كان يوماً مركز أقوى الحكومات ولكن انتهى فيه كل شيء). فالتفت أحد أصحابه إلى آثار كسرى فأنشد قائلاً:

جَرَّتِ الرِّيحُ عَلَى مَكَانِ دِيَارِهِمْ فَكَانَتْهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

ولم يكتب الإمام عليه السلام بهذا المقدار فقال هلاً قرأت هذه الآيات: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَابٍ وَعُيُونٍ \* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ \* وَنِعْمَةَ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ \* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ<sup>٣</sup>»<sup>٤</sup>.

وخاض الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه في بيان هذا الموضوع، لم هذا الفخر على الآخرين بهذه الأجساد الميتة الخاوية بدل الاعتبار «لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعُسُوءَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةٍ جَهَالَةٍ».

ثم قال: «وَلَوْ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ<sup>٥</sup> الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَالًّا<sup>٦</sup>، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَالًا، تَطْوُونَ فِي

١. «جناب» من مادة «جَنَب» الضلع واستعملت بمعنى الجانب والناحية والطرف و«جناب ذلّة» في العبارة بهذا المعنى.

٢. «أحجى» من «ججا» على وزن «رضا» العقل، وأحجى أعقل.

٣. سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.

٤. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٧.

٥. «ربوع» جمع «ربع» على وزن «رفع» البيت والمسكن.

٦. «ضلال» جمع «ضال».

هَامِهِمْ<sup>١</sup>، وَتَسْتَبِثُونَ<sup>٢</sup> فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ<sup>٣</sup> فِيمَا لَقَطُوا<sup>٤</sup>، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَبُوا؛  
وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ<sup>٥</sup> وَنَوَاحٍ<sup>٦</sup> عَلَيْكُمْ».

العبارة «ضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةٍ جَهَالَةٍ» إشارة إلى غرقهم في بحر الجهل  
و«ضرب» تعطي معنى الغرق بقرينة آخر هذه العبارة.

والجملة «تَطْوُونَ فِي هَامِهِمْ» إشارة إلى أن أجسام الناس حين تتعفن وتصبح  
تراباً فإن ذلك التراب ينتقل إلى سطح الأرض بفعل بعض العوامل كالرياح والأمطار  
والسيول وتقلب التربة بواسطة الإنسان وهذا الإنسان الغافل يمر عليها ولا يدري  
ماذا يفعل، وذكر «الهام» (أعلى الرأس) كون أهم شيء في جسم الإنسان جمجمته  
وإلا فإن الجسد بأكمله أصبح تراباً يطأه الآخرون.

الجملة «تَسْتَبِثُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ» إشارة إلى أن المزارعين يلقون بذورهم على  
الأرض الممزوجة بتراب أجساد الماضين ومع ذلك هم غافلون.

الجملة «تَرْتَعُونَ فِيمَا لَقَطُوا» تعني أحياناً ما ذكر وأخرى أنه تتناثر من  
أجسادهم قطع والمزارعون يلقون عليها بذورهم وينتفعون بشمارها.

الجملة «تَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَبُوا» ربّما هي إشارة إلى أنهم عاشوا مدّة في تلك  
البيوت فلما انتهوا ووسدوا التراب حللتم في مساكنهم وذهب بعض الشراح إلى أن  
العبارة «خربوا» تعني الخلو من السكنة، وقيل المراد منه أنها خربة لتركها الذكر

١. «هام» جمع «هامة» أعلى الرأس.

٢. «تستبثون» من مادة «نبت» على وزن «ضبط» الإنبات وتعني الزراعة.

٣. «ترتعون» من مادة «رتع»، على وزن «قطع» تعني في الاصل الرعي وكثرة اكل الحيوانات؛ ولكن تستعمل  
أحياناً بشأن الإنسان بمعنى اللعب والمرح وكثرة الاكل والمعنى الثاني هو المراد في العبارة.

٤. «لَقَطُوا» من مادة «لظ» لفظوا وطرحوها وغالباً ما تعني الطرح من الفم وبما أن الكلام يطرح من الفم فلذلك  
يطلق عليه اللفظ والمعنى الأول هو المراد في العبارة.

٥. «بواك» جمع «باكية» تعني في الأصل بكاء النساء والعزاء.

٦. «نوايح» جمع «نائحة» المرأة التي تنوح والاختلاف بينهما أن النواح بكاء وصوت وألغاز وذكر مطالب بينما  
البكاء مفهوم عام.

والعبادة على غرار العمران في الآية الشريفة «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ»<sup>١</sup> الذي فسّر بذكر الله والعبادة.

نعم إن هؤلاء لم يؤدوا حق المساكن وخربوها عملياً بالغرور والغفلة ونسيان ذكر الله وإن كانت في الظاهر عامرة وورثوها للغفلة وارتحلوا. الجملة «وَأِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَّكُ» إشارة لطيفة إلى هذه النقطة أنكم تكون وتتأوهون على الأموات؛ ولكن الدهر يبكيكم وينوح عليكم على مدى غفلتكم وجهلكم بمصيركم وتنسون أنكم ملتحقون بهم عما قريب.



## القسم الثاني

أُولَئِكَ سَلَفٌ غَايَتِكُمْ، وَفُرَاطٌ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِرِّ،  
وَخَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكًا وَسُوقًا. سَلَكَوا فِي بُطُونِ الْبِرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتْ  
الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ؛ فَأَصْبَحُوا فِي  
فَجْوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يَنْمُونَ، وَضِمَارًا لَا يُوجَدُونَ؛ لَا يُفْزِعُهُمْ وَرُودُ  
الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزَنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَخْفَلُونَ بِالرَّوَاكِفِ، وَلَا يَأْذَنُونَ  
لِلْقَوَاصِفِ. غُيِّبًا لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُودًا لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا  
فَتَشَتَّتُوا، وَآلِفًا فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ  
أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سَقُوا كَأَسَا بَدَلْتَهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَسًا،  
وَبِالسَّمْعِ صَمَمًا، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا، فَكَانَتْهُمْ فِي أَرْجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى  
سُبَاتٍ. جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَسُونَ، وَأَجْبَاءٌ لَا يَتَزَاوَرُونَ. بَلِيَّتٌ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ،  
وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْأَخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ  
وَهُمْ أَخْلَاءٌ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا، وَلَا لِلنَّهَارِ مَسَاءً.

أَيُّ الْجَدِيدِينَ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا، شَاهَدُوا مِنْ أخطَارِ دَارِهِمْ  
أَفْطَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكَلِمَاتُ الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ  
إِلَى مَبَاءَةٍ، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا  
بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا.

## الشرح والتفسير

### العالم العجيب بعد الموت

بعد أن وبَّخ الإمام عليه السلام بشدة أولئك الذين يزورون قبور موتاهم ويفخرون

بالأجساد البالية لأخيارهم، خاض في هذه النقطة أن مصيرهم من شأنه أن يكون عبرة ودرسا وموعظة قيمة لمن يخلفهم فقال: «أُولَئِكَمُ سَلَفُ غَايَتِكُمْ<sup>١</sup>، وَفَرَّاطُ<sup>٢</sup> مَنَاهِلِكُمْ<sup>٣</sup>، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ<sup>٤</sup> الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ<sup>٥</sup> الْفَخْرِ، مُلُوكًا وَسُوقًا<sup>٦</sup>».

التعبير «سَلَفُ غَايَتِكُمْ» إشارة إلى أن هؤلاء بلغوا آخر نقطة في حياتهم التي هي الموت الذي سبقوكم إليه وعلى الخلف أن يعتبر بمصير سلفه.

العبارة «فَرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ» إشارة إلى أن الناس كأنهم في قافلة ينطلقون إلى الموت فهناك طائفة تتقدم القافلة وأخرى تسير خلفها.

التعبير «مَقَاوِمُ الْعِزِّ» إشارة إلى أن ذوي القدرة ينبغي عليهم أن يطوروا هذا الطريق كالأخرين.

وشبهه الناس في العبارة «وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ» بالذين يشتركون في سلسلة من المسابقات العظيمة والواسعة لكسب مزيد من الفخر فقد قال الإمام عليه السلام: كل أولئك سيبلغون في الختام منزلاً اسمه القبر.

ثم قال بكلمة واحدة: «مُلُوكًا وَسُوقًا» الكل يذهبون الملوك والرعايا. وقال لمزيد من الايضاح: «سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ».

ورغم أن البرزخ يطلق عادة الذي يتوسط الدنيا والآخرة كما ورد في القرآن

١. «الغاية» النهاية وتعني هنا الموت.

٢. «فَرَّاطُ» من مادة «فَرَط» على وزن «شَرَط» السرعة والمجلة و«فَرَّاطُ» جمع «فَرَّاطُ» تطلق غالباً على متقدم القوم إلى الماء ثم اطلق على كل من يتقدم في أمر.

٣. «مَنَاهِلُ» جمع «مَنَهْل» من مادة «نَهَلَ» على وزن «أَهْل» موضع الشربة الأولى و«مَنَهْلُ» يقال لموضع ما لشرب الشاربة من النهر.

٤. «مَقَاوِمُ» جمع «مَقَامُ» وقيل جمع «مَقَامَةٌ» وكلاهما بمعنى مجلس.

٥. «حَلَبَاتُ» جمع «حَلْبَةٌ» على وزن «دَفْعَةٌ» الدفعة من الخيل في الرهان.

٦. «سُوقُ» جمع «سُوقَةٌ» على وزن «كُوفَةٌ» الرعية والناس من «سُوقُ» على وزن «فُوقُ» لأن الرعاة يسوقونهم إلى الأهداف المطلوبة.

المجيد: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»<sup>١</sup> ولكن البرزخ هنا يعني القبر بقريته العبارات التي أعقبتها كما ورد في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْبَرْزَخُ الْقَبْرُ»<sup>٢</sup> طبعاً أحياناً القبر بمعناه المادي من قبيل ما ورد في هذه الخطبة وأحياناً أخرى بمعناه غير المادي من قبيل ماورد في الحديث المشهور: «الْقَبْرُ إِمَارَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيْرَانِ»<sup>٣</sup>.

ثم قال موضعاً أكثر: «فَأَضْبَحُوا فِي فَجَوَاتٍ<sup>٤</sup> قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونُ، وَضِمَاراً<sup>٥</sup> لَا يُوجَدُونَ؛ لَا يُفْرِعُهُمْ وَرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنْكُرُ الْأَخْوَالِ، وَلَا يَحْفَلُونَ<sup>٦</sup> بِالرَّوَاغِفِ<sup>٧</sup>، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ<sup>٨</sup>. غُيِّبَ لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لَا يَخْضَرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشْتَتُوا، وَالْأَفَافُ<sup>٩</sup> فَافْتَرَقُوا».

ما ورد في هذه العبارات الملهبة إشارة بالظاهر لجسم الأموات، وإن كانت لأرواحهم في العالم الآخر احساس وخوف ورعب وهم وحزن. نعم ففي لحظة يغمض الإنسان - اليقظ والضاحك أو المهموم المحزون النشط أو الكسل - عينيه عن الدنيا وتنتهي عنده جميع ظواهر الحياة حتى يتحول إلى حجرة خالية من الروح.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى فقال: «وَمَا عَن طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَّتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأَسْأَبَدَ لَتَهُمْ بِالنُّطْقِ

١. سورة المؤمنون، الآية ١٠٠.

٢. بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢١٧.

٣. المصدر السابق، ص ٢١٤؛ صحيح الترمذي، ج ٤، كتاب صفة القيامة، باب ٢٦، ح ٢٤٦٠.

٤. «فجوات» جمع «فجوة» الموضع الواسع ويعني الفرجة وورد هنا بمعنى شق القبر.

٥. «ضمار» الغائب أو المال الذي لا يؤمل رجوعه ومن مادة «ضم» على وزن «امر» بمعنى الإخفاء.

٦. «يحفلون» من مادة «حفل» تجمع الأفراد وورد بمعنى اللامبالاة بالشيء و«لا يحفلون» هنا تعني لا يباليون.

٧. «رواجف» جمع «راجفة» الزلازل ومن مادة «رجف» على وزن «ربط» بمعنى الاضطراب والزلازل الشديد.

٨. «قواصف» جمع «قاصف» بمعنى الرياح والعاصفة العاتية ومن مادة «قصف» على وزن «وصف» الكسر.

٩. «الاف» جمع «أليف» بمعنى من يتعلق بالشيء ومن مادة «ألف».

خَرَسًا، وَبِالسَّمْعِ صَمًّا، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا، فَكَأَنَّهُمْ فِي اِرْتِجَالٍ<sup>١</sup> الصَّفَةِ صَرَغِي<sup>٢</sup>  
سُبَاتٍ<sup>٣</sup>».

يالها من عبارات بليغة وموقظة وكلمات مؤثرة وعميقة! نعم! فقد نسوا حتى  
كانهم ابتعدوا عنا قروناً وانطفأت مساكنهم وكانهم غادروها منذ سنين مديدة في  
حين ربّما تجرعوا كأس المنون في لحظة وانتهى كل شيء.

وأضاف في عبارات أخرى عميقة المعنى وموقظة: «جِيرَانُ لَا يَتَأَسُّونَ، وَأَجْبَاءُ  
لَا يَتَزَاوَرُونَ. بَلِيْثٌ بَيْنَهُمْ عُرَاءُ التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِحْءَاءِ، فَكُلُّهُمْ  
وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَاءٌ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا، وَلَا لِنَهَارٍ  
مَسَاءً. أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعُنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا».

نعم كل شيء لهؤلاء يختلف عن الأحياء؛ بيوت قبورهم الواحد يلاصق الآخر  
دون أن يخبر أحدهم بالآخر أو يزوره؛ إنهم مجتمعون مع بعضهم في الداخل مع  
ذلك كأنهم مقاطعون لأحدهم الآخر؛ إن غادروا الدنيا ليلاً فسوف لن يروا طلوع  
الشمس قط وإن غادروها نهاراً لم يروا ظلمة الليل أبداً وفي هذا أنشد الشاعر:

لَا بَدَّ مِنْ يَوْمٍ بِلا لَيْلَةٍ      أَوْ لَيْلَةٍ تَأْتِي بِلا يَوْمٍ

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى جانب آخر من أحوال الموتى وأرواحهم عند مشاهدة  
العذاب الإلهي والثواب العظيم فقال: «شَاهَدُوا مِنْ أخطَارِ دَارِهِمْ أَفْطَعَ<sup>٥</sup> مِمَّا خَافُوا،  
وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكَلِمَاتُ الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ<sup>٦</sup>، فَاتَتْ مَبَالِغَ

١. «ارتجال» بيان مطلب بدون مطالعة مسبقة ومن مادة «رجل» على وزن «أجر» المشي على القدمين واطلقت  
بهذا المعنى على المبدع الذي يرتجل الكلام وكأنه يمشي على رجليه.

٢. «صرغى» جمع «صريع» الشخص أو الجنزة الملقاة على الأرض ومن جمع «صرع» على وزن «فرع» الالتقاء على  
الأرض.

٣. «سبات» من مادة «سبت» القطع والقص ثم وردت بمعنى الاستراحة بعد العمل ومن هنا يقال للنوم سبات.

٤. «عرى» جمع «عروة» القبضة.

٥. «أفطع» من مادة «فطع» على وزن «جزع» بمعنى أخوف وأرهب.

٦. «مباءة» بمعنى المنزل تعني في الأصل الموضع الذي تعود إليه الجمال ومن مادة «بواء» على وزن «دواء»  
الرجوع والاطراق.

الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا<sup>١</sup> بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا».

الواقع أن ما بينه الإمام عليه السلام هنا ما جاء صراحة في الخطبة ١١٤ من «نهج البلاغة»: «كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَكْبَرُ مِنْ عِيَانِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيَانُهُ أَكْبَرُ مِنْ سَمَاعِهِ».

ودليل ذلك واضح، فعالم الآخرة غاية في السعة والكبر وإذا ما قورن بالدنيا كان كالدنيا بالنسبة لعالم الجنين في رحم أمه.

❦❦❦

١. «عَيُّوا» من مادة «عَي» على وزن «عَي» العجز.





## القسم الثالث

وَلَيْنَ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ،  
وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتْ  
الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَّتِ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَيْسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى، وَتَكَاءَ دَنَا  
ضَيْقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ،  
فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُورِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ  
الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبِ فَرْجَاءٍ، وَلَا مِنْ ضَيْقِ مُتَسَعَاءٍ فَلَوْ مَنَلْتَهُمْ  
بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِازَ تَسَخَّتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ  
فَاسْتَكَّتْ، وَاحْتَلَّتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتْ الْأَلْسِنَةُ فِي  
أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَّاقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقْظَتِهَا، وَعَاثَ فِي  
كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلَى سَمَجَّهَا وَسَهْلَ طَرُقِ الْأَفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا  
أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبَ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتِ أَشْجَانَ قُلُوبِ، وَأَقْدَاءَ عُيُونِ، لَهُمْ فِي كُلِّ  
فَضَاعَةٍ صِفَةٌ خَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَعَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي.

## الشرح والتفسير

### أحوال الأموات!

شرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة، وضع الأموات ومتوسدي القبور  
بيان بليغ ومؤثر فقال: «وَلَيْنَ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ  
أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ».  
ففي الواقع أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أمرين: أن الاستخبار عنهم ليس

بالطرق العادية (كالبصر والسمع)، بل بطرق أعمق وأقوى من خلال بصيرة القلب وسمع العقل، كما أن تكلمهم ليس بلسان القال، بل بلسان الحال الأعمق آثراً، فلسان القال قد يشوبه الكذب الذي لا مجال له للسان الحال.

ولنرى الآن ما يقولون بهذا اللسان؟ يشير الإمام عليه السلام إلى طبيعة كلامهم: «فَقَالُوا: كَلَحَتْ<sup>١</sup> الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ<sup>٢</sup>، وَخَوَتْ<sup>٣</sup> الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَكَبِسْنَا أَهْدَامَ<sup>٤</sup> الْبِلَى، وَتَكَأَدْنَا<sup>٥</sup> ضَيْقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا الْوُخْشَةَ، وَتَهَكَّمْنَا<sup>٦</sup> عَلَيْنَا الرَّبُوعُ الصُّمُوتُ<sup>٧</sup>».

نعم! يتحدثون أحياناً عن مصير أبدانهم وأخرى عن مواضعهم. الأبدان الذابلة بداية، الوجوه العابسة، ومن ثم تحللها، وبالتالي تفسخها واستحالتها إلى تراب، القبور الضيقة والمظلمة والباردة الساكنة وقد سيطرت عليهم أجواء الرعب فسادهم الصمت التام.

ثم قال: «فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَكَرَّرَتْ مَعَارِفُ صُورِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوُخْشَةِ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَلَا مِنْ ضَيْقٍ مُتَسَعاً!».

نعم! فالوجوه النظرة الجميلة والمعروفة والمساكن الواسعة والفاخرة التي قلبت رأساً على عقب بحلول الموت، فتبدلت تلك المنازل الجميلة الفاخرة إلى قبور مقفرة مظلمة، وتلك الوجوه الناعمة لم تفقد نضارتها وحيويتها فحسب؛ بل تحولت إلى أشباح موحشة.

ومن هنا قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في كلمة موجزة موقظة: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا إِلَّا وَالْقَبْرُ

١. «كلحت» من «الكلوح» على وزن «طلوع» الوجه العابس والمقطب.

٢. «نواضير» من «نضرة» على وزن «دفعه» الحسنه الباسمة المتفتحة.

٣. «خوت» من «خواء» بمعنى تهدمت وتلاشت.

٤. «اهدام» جمع «هدم» على وزن «حرص» الثوب البالي والمرقع.

٥. «تكاؤدنا» من «التكاؤد» المشقة ومادته «كأد» على وزن «رعد».

٦. «تهكمت» من «التهكم» السقوط في بئر وما شابه ذلك أو التهديم.

٧. «الصموت» السكوت وفي العبارة مصدر له معنى وصفي.

أَفْضَعُ مِنْهُ»<sup>١</sup>.

ثم سعى الإمام عليه السلام ليكشف لمخاطبيه أوضاعهم في القبور بعبارات حيّة فقال: «فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كَشِفَ عَنْهُمْ مَخْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ<sup>٢</sup> أَسْمَاعُهُمْ بِالْهُوَامِ<sup>٣</sup> فَاسْتَكَّتْ<sup>٤</sup>، وَاکْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَالَتِهَا<sup>٥</sup>، وَهَمَدَتْ<sup>٦</sup> الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقْظَتِهَا، وَعَاثَ<sup>٧</sup> فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلِيٌّ<sup>٨</sup> سَمَّجَهَا<sup>٩</sup> وَسَهَّلَ طُرُقَ الْأَفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسَلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ<sup>١٠</sup> قُلُوبٍ، وَأَقْدَاءَ<sup>١١</sup> عِيُونٍ».

صحيح بقبض الروح يتوقف كل شيء؛ لكنه مادام سالماً فإن له القابلية لاستعادة نشاطه لو فرض عودة الروح إليه؛ ولكن يفقد كل شيء بعد تعفنه وتلاشيه، ولذلك صرح الإمام عليه السلام: توقف الحشرات أسماعهم عن العمل والتراب أبصارهم وألسنتهم عن النظر والنطق.

ثم أكمل كلامه بعبارة بصيغة خلاصة فقال: «لَهُمْ فِي كُلِّ فِظَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ<sup>١٢</sup> لَا تَنْجَلِي».

١. سنن الترمذي، ج ٣، ص ٣٧٩؛ ميزان الحكمة، مادة «قبر»، ح ١٦٢٥١.

٢. «ارتسخت» من «الارتساخت» المبالغة في الرسخ ومن «الرسوخ» النفوذ.

٣. «هوام» جمع «هامة» الحشرات السامة؛ كالحية وتطلق على كل نوع حشرة.

٤. «استكّت» من مادة «سك» على وزن «حك» بمعنى صمت.

٥. «الذلاقة» الحدة؛ ثم استعملت بمعنى اللسان وسرعة النطق ويقال: خطيب ذلق للمتكلم الفصيح والبلغ.

٦. «همدت» من «الهمود» على وزن «سجود» تعني في الأصل انطفاء النار. ثم استعملت بمعنى السكوت والسكون والتوقف عن العمل.

٧. «عاث» من مادة «عيث» على وزن «حيث» أفسد كما ورد بمعنى التبذير والمعنى الأول هو المراد في العبارة.

٨. «جديد بلي» هنالك نوع من صناعة البديع في العبارة من خلال كلمة جديد والتي تقابل البالي بصيغة مضاف ومضاف إليه ومعناه الفساد الجديد.

٩. «سمج» من «السماجة» القبيح والمنفر و«سمج» على وزن «خشن» تطلق على من ينشد شيئاً بطريقة قبيحة.

١٠. «أشجان» جمع «شجن» على وزن «كفن» الهموم.

١١. «أقذاء» جمع «قذى» على وزن «سجى» ما يسقط في العيون ويؤذيها من أجسام صغيرة والتي تظهر كل ساعة على جسد الميت.

١٢. «غمرة» تعني في الأصل الماء الجارف الذي ينطى الأشياء ثم اطلق على كل أمر شديد.

إشارة إلى أنّ مصيبتهم الكبرى أنّ هذه الأحوال لا تزول عنهم، بل تتشدد عليهم كلّ يوم؛ وتعاستهم أن ليس أمامهم من مستقبل واضح، وكلما تقادم عليهم الزمان كلما تأكلت أجسامهم أكثر وبليت عظامهم.

## القسم الرابع

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنْبِقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيًّا تَرَفٍ،  
وَرَبِيبَ شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْرَعُ إِلَى السَّلْوَةِ  
إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنْأً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ، وَشَخَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ! فَبَيْنَمَا  
هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشِ غُفُولٍ، إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ  
حَسَكَةً وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثْبٍ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا  
يَعْرِفُهُ، وَنَجِيٌّ هَمٌّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فِتْرَاتٌ عِلَلٍ، آتَسَ مَا كَانَ  
بِصِحَّتِهِ، فَفَرَعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطِبَاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكِ  
الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوْرَ حَرَارَةٍ، وَلَا حَرَكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيْجَ  
بُرُودَةٍ، وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَارِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدًا مِنْهَا كُلِّ ذَاتِ دَاءٍ؛ حَتَّى فِتْرَ  
مُعَلَّلُهُ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ  
السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيًّا حَبْرٍ يَحْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ  
لِمَا بِهِ، وَ مُمْنٌ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَ مُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ  
أَسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرَكَ  
الْأَحِبَّةَ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُضْصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِدُ فِطْنَتِهِ، وَ يَبَسَتْ  
رُطُوبَةُ لِسَانِهِ. فَكَمْ مِنْ مُهَمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءِ مُؤَلِّمٍ  
بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعْظَّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ! وَإِنَّ  
لِلْمَوْتِ لَعَمْرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَفْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدَلَ عَلَى غُفُولِ أَهْلِ  
الدُّنْيَا.

## الشرح والتفسير

### عقبات الموت لاتستوعب في الالفاظ

أشار الإمام عليه السلام هذا المتكلم البليغ الفصيح الفريد، في آخر مقطع من هذه الخطبة إلى جوانب أخرى من قضية الموت ونهاية الحياة وعقباته ليوجزها في أربع مراحل فقال أولاً: «فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزٍ<sup>١</sup> جَسَدٍ، وَأَنِيقٍ<sup>٢</sup> لَوْنٍ، كَانَتْ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّةً<sup>٣</sup> تَرْفٍ، وَرَبِيبًا<sup>٤</sup> شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ<sup>٥</sup> بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْرَعُ إِلَى السَّلْوَةِ<sup>٦</sup> إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنْناً<sup>٧</sup> بِفَضَارَةٍ<sup>٨</sup> عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً<sup>٩</sup> بِلَهْوِهِ وَلَعِيهِ!».

وهذا الكلام إشارة دقيقة لمن اعتادوا الحياة الهائلة المرفهة والعيش الرغيد والنعمة الوافرة، الذين يسعون حين نزول المصائب الخروج من ذلك عن طريق أنواع اللعب وقد نسوا كل ما من شأنه إيقاظهم وهدايتهم وهذا بحد ذاته مصيبة عظيمة في أن يلوذ الإنسان بعوامل السكر والجهل والغفلة؛ لكن الأحداث المريرة لاتساهم، وبالتالي فإن الأرض سوف تبتلعهم.

نعم، «فَبَيْنَمَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ<sup>١٠</sup>؛ إِذْ وَطِئَ»

١. «العزیز» تعني في الأصل القوي والقادر ويلزمه نفي الذل عن الإنسان؛ ولكن لم يتضح لمفسرها بعض الشراح بالجمال.

٢. «أنیق» جميل والماء الحسن والطيب الطعم.

٣. «غذی» من «الغذاء» بمعنى الطعام و«غذتی ترف» والمراد أنه تغذى بالنعمة على أساس «ترف» التي تعني النعمة.

٤. «ربیب» من مادة «رَبَّ» التربية والتدبير، وعليه «ربیب شرف» من تربي في أحضان العزة والاحترام.

٥. «یتعلَّل» من «تعلَّل» يتناسى ويتشاغل.

٦. «سلوة» المعيشة الطيبة.

٧. «ضَنَّ» البخل الشديد.

٨. «غضارة عيش» الحياة المفعمة بالنعمة.

٩. «الشحاحة» البخل وقيل: أعلى درجة البخل. فالبخيل من يبخل عما في يده، أما الشحيح فيبخل بما في يده وما في أيدي الناس.

١٠. «غفول» من مادة «غفلت» الذي يغفل أو يوجب الغفلة.

الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَةٌ<sup>١</sup> وَتَقَضَّتِ الْأَيَّامُ قُورَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ<sup>٢</sup> مِنْ كَثَبٍ<sup>٣</sup> فَخَالَطَهُ  
بَثٌّ<sup>٤</sup> لَا يَعْرِفُهُ، وَنَجِيٌّ<sup>٥</sup> هُمْ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فِتْرَاتٌ عِلَلٌ، أَنْسَ مَا كَانَ  
بِصِحَّتِهِ».

إشارة إلى أن هؤلاء الجهال مهما سعوا للتناسي إزاء المصائب والضحك على  
الدوام على الدنيا فإن الدنيا هي الأخرى تضحك عليهم؛ ولكن سرعان ما يباغتهم  
الموت فتفنى قواهم وطاقتهم الواحدة تلو الأخرى، فالعين تعشو وتضعف، والأذن  
تثقل والعظام تنحف والأعصاب تنهك وتعجز، وتهجم عليهم أنواع الأمراض فيدق  
العالم في آذانهم أجراس الموت.

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا في الواقع إلى انحلال قوى الإنسان أولاً، وظهور  
الأمراض إثر ذلك والتي تعدّ الخطوة الأولى نحو الموت.

ثم أتجه صوب الخطوة الثانية في رجوعه دائماً إلى الأطباء وتناول أنواع الدواء  
وانعدام تأثيرها فقال: «فَفَرَعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ<sup>٦</sup>،  
وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوْرَ<sup>٧</sup> حَرَارَةٍ، وَلَا حَرَكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيْجَ  
بُرُودَةٍ، وَلَا اعْتَدَلَ بِمَمَازِجٍ<sup>٨</sup> لِيَتْلِكَ الطَّبَّاعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ».

نعم! فإن حلّ الأجل زالت أسباب الصحة والسلامة ولم يعد هنالك من أثر  
للدواء، وعادة ماتكون نتيجته معكوسة فيعيب الأطباء وليس للمريض من سبيل  
سوى السير إلى الموت.

١. «حسكة» من مادة «حسك» على وزن «فدك» نبات ذو أشواك يؤذي الإنسان بشدة وورد بمعنى البغض والكره  
والمعنى الأول هو المراد هنا.

٢. «حتوف» جمع «حتف» الموت.

٣. «كثب» من مادة «كثب» على وزن «كسب» بمعنى الاقتراب.

٤. «بث» الحزن الشديد. ووردت بمعنى السعة والتناثر والانتشار والمراد هنا المعنى الأول.

٥. «النجي» الخفي والمستور ومن «نجوى» الهمس في الأذن.

٦. «قار» بارد من مادة «قر» على وزن «حر» البرودة.

٧. «ثور» من مادة «ثوران» الهيجان.

٨. «ممازج» الأشياء التي تمزج مع بعضها.



ما ورد هنا في عبارات الإمام الدقيقة إشارة للتقسيمات التي كانت متداولة في الطب القديم حيث كان الأطباء آنذاك يعتقدون بأربعة أنواع من الأمزجة: المزاج الحار، المزاج البارد، المزاج الرطب، والجاف، وهناك أربعة أمزجة مركبة من زاوية أخرى: المزاج الحار والرطب (الذي يسمى الدموي) والمزاج الحار والجاف (الصفراوي) والمزاج البارد والرطب (البلغمي) والمزاج البارد والجاف (السوداوي).

طبعاً هذه الأمزجة إن كانت في حد الاعتدال لاتقدح بالصحة، ولأصحابها جميعاً باختلافهم الكثير حياة طيبة؛ ولكن إن غلبت إحدى هذه الأمزجة (الحرارة، البرودة، الرطوبة والجفاف) فلا مناص من التعامل بالعوامل المخالفة لإعادته إلى اعتدال المزاج؛ فالحرارة تسكن بالبرودة والبرودة تحرك بعوامل الحرارة والرطوبة توازن بالجفاف والجفاف يعدل بالرطوبة.

كل هذا التأثير حين لا يختل الأمر وإلا فليس هنالك أدنى تأثير.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة اليأس من عودة السلامة وانتظار نهاية العمر عن قريب: «حَتَّى فَتَرَ مُعَلَّلَهُ<sup>١</sup>، وَذَهَلَ مُمَرَّضُهُ<sup>٢</sup>، وَتَعَايَا<sup>٣</sup> أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ».

وكان الإمام عليه السلام كان حاضراً عند هؤلاء المرضى وأسرهم فهو يتابع عن كسب حالاتهم فالطبيب يظهر عجزه والممرض يبدي تعبه وأسرته لا تدري ما تقول للناس، إذا قالت: صحته أحسن، فذلك غير صحيح، وإذا قالت: أسوأ، فهذا متعب فلا مناص لها من الصمت وتجنب بنظرات العيون المليئة باليأس.

ثم قال عليه السلام: «وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيًّا<sup>٤</sup> خَبِرَ يَكْتُمُونَهُ؛ فَقَائِلُ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ،

١. «معلل» المعالج واخذت في الأصل من «علة» بمعنى المرض.

٢. «ممرّض» من مادة «مرض» المعالج.

٣. «تعايا» من مادة «عَي» العجز.

٤. «شجيتي» الغم من مادة «شجو» على وزن «هجو» الهم والغم.

وَمُمَّنٍ لَهُمْ إِيَابٌ عَافِيَّتِهِ، وَمُصَبَّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى<sup>١</sup> الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ». وأخيراً بيّن الإمام عليه السلام رابع وآخر مرحلة حياة هذا المريض. حين يكون على اعتبار الموت والتأهب لسفر الآخرة ومغادرة هذا العالم فقال: «فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَّضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَبَيَّسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ».

ثم قال مواصلاً كلامه: «فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءِ مُؤَلِّمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَ<sup>٢</sup> عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعْظَّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَزْحَمُهُ!».

نعم! وفي هذه الحالة حيث يعلم بحلول أجله ونهاية عمره يغط في التفكير في الأموال التي أخفاها أو الديون على الآخرين ويريد إبلاغها الورثة أو يريد أن يحدث أهله عن قضايا الدفن وموضع القبر فلا يسعه الكلام.

أشار ابن أبي الحديد هنا إلى قصة فيها عبرة حيث أنه شهدها آنذاك وهي أن أحدهم حضرته الوفاة فأراد الوصية فانعقد لسانه فأشار إلى القلم والدواة ليكتب فاضطربت يده فكتب كلاماً غير مفهوم حتى توفي<sup>٣</sup>.

واختتم الإمام عليه السلام خطبته العظيمة الموقظة بهذه العبارة فقال: «وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَعَمْرَاتٍ<sup>٤</sup> هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَعْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا».

نقل المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغة حديثاً عن كتاب «الكافي» عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إِنَّ فِتْيَةً مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا مُتَعَبِّدِينَ وَكَانَتْ الْعِبَادَةُ فِي أَوْلَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّهُمْ خَرَجُوا يَسِيرُونَ فِي الْبِلَادِ لِيَعْتَبِرُوا قَمَرًا وَقَبْرًا عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ قَدْ سَفَى عَلَيْهِ السَّافِي، لَيْسَ يُبَيِّنُ مِنْهُ إِلَّا

١. «أسى» الغم والحزن ووردت في بعض النسخ «أسى» (بضم الهمزة) جمع «أسو» بمعنى الأسوة والمعنيان مناسبان في الخطبة.

٢. «فتصام» من مادة «صم» طرش الاذن و«تصام» تظاهر بالصمم.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٦٧.

٤. «عمرات» جمع «عمرة» مضى معناها في الفقرة السابقة.

رَسَمَهُ، فَقَالُوا: لَوْ دَعَوْنَا اللَّهَ السَّاعَةَ فَيُنْشِرُنَا صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ، فَسَأَلْنَاهُ كَيْفَ وَجَدَ طَعْمَ الْمَوْتِ، قَدَعُوا اللَّهَ... فَخَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبْرِ رَجُلٌ أَبْيَضُ الرَّأْسِ وَاللَّحْيَةِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ التُّرَابِ فَرَعَا شَاخِصًا بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا يُوقِفُكُمْ عَلَى قَبْرِي؟ فَقَالُوا: دَعَوْنَاكَ لِتَسْأَلَكَ كَيْفَ وَجَدْتَ طَعْمَ الْمَوْتِ، فَقَالَ: لَهُمْ لَقَدْ سَكَنْتُ فِي قَبْرِي تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَنَةً مَا ذَهَبَ عَنِّي أَلْمُ الْمَوْتِ وَكَرْبُهُ وَلَا خَرَجَ مِرَارَةً طَعْمَ الْمَوْتِ مِنْ حَلْقِي...»<sup>١</sup>.

## تأمل

### ممرّ يرده الجميع

قيل وقلنا كراراً إنّ الإنسان إن شكّ في كلّ شيء ليس له أن يشك في أنه سيغادر يوماً هذه الدنيا ويشرب راغباً أو مرغماً كأس المنون. كما أنّ كلّ جنين مهما كان شكله وصورته لا بدّ أن يمر يوماً برحم الأم ويطأ هذه الدنيا، وكل فاكهة لا بدّ يوماً أن تسقط من الشجرة وتقطف. والإنسان شاء أم أبى لا بدّ أن يشهد الموت. فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يرغب البعض بسماع اسم الموت؟ لم يسعون لنسيان هذه الحقيقة التي لا تنساهم؟!

والأهم من كلّ ذلك مقدمات الموت ونتائجه؛ فالحالات العجيبة التي رسمها المولى أميرالمؤمنين علي عليه السلام في هذه الخطبة بتلك الدقّة كصورة حيّة، وصدى الموت الذي اسمعه كل إنسان مستعد لمغادرة هذه الدنيا ولاسيما من حوله، حيث يبدو أنّ الهدف الأصلي للإمام هو إيقاظ الغافلين وهزّ الثملين من الغرور والأنانية والعجب والأهواء، والحق والإنصاف أنّ الإمام عليه السلام أعطى الكلام حقّه بهذا الخصوص وقال كلّ ما ينبغي أن يقال بحيث لا يقرأه غافل أو جاهل إلاّ أيقظه وبلغ منه تأثيره.

١. الكافي، ج ٣، ص ٢٦٠، ح ٣٨ (بتلخيص).

قال الإمام عليه السلام في حديث آخر: «مَا رَأَيْتُ إِيمَانًا مَعَ يَقِينٍ أَشْبَهُ مِنْهُ بِشَكٍّ عَلَى هَذَا الْإِنْسَانِ، إِنَّهُ كُلُّ يَوْمٍ يُودَّعُ إِلَى الْقُبُورِ وَيُشَيَّعُ، وَإِلَى غُرُورِ الدُّنْيَا يَزْجَعُ وَعَنِ الشَّهْوَةِ وَالذُّنُوبِ لَا يُقْلَعُ»<sup>١</sup>.

بالمقابل نعرف أفراداً هبوا للقاء الموت وابتسموا للأجل ولم يكن لسكرات الموت عندهم من معنى وكانهم كمن يتطلع لعزير فكانت هذه حالتهم أو آخر عمرهم. والنموذج الواضح لذلك شخص الإمام عليه السلام الذي قال في كلامه المعروف في «نهج البلاغة»: «لَا بِنُّ أَبِي طَالِبٍ أَنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ»<sup>٢</sup>.

جدير ذكره أنه ورد في الأحاديث الإسلامية أن موت المؤمن الصالح يختلف عن موت الآخرين. قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: «صِفْ لَنَا الْمَوْتَ» قال: «لِلْمُؤْمِنِ كَأَطِيبِ طِيبٍ يَشُمُّهُ فَيَنْعَسُ لِطِيبِهِ وَيَنْقَطِعُ التَّعَبُ وَالْأَلَمُ عَنْهُ وَلِلْكَافِرِ كَلْسَعِ الْأَفَاعِي وَكَدَغِ الْعَقَارِبِ وَأَشَدُّ»<sup>٣</sup>.

لا شك في أن عدم تعلق المؤمن بزخارف الدنيا، وبالعكس تهافت الملحدين عليها هو الذي يؤدي إلى الاختلاف المذكور وإن كان هنالك تأثير في هذا الأمر لالطاف الله ومشاهدات المؤمن بالنسبة للنعم التي تنتظره وبالعكس مشاهدات الكافر والعذاب الذي ينتظره.

١. بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٣٧، ح ٤٠.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٥.

٣. بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٧٢، ح ٥٠.



## وَمِنْ كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَالَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُّو وَالْأَصَالِ<sup>١</sup> \* رِجَالٌ لَا تُلْهِبُهُمْ تِجَارَةٌ  
وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ<sup>٢</sup>»<sup>٣</sup>.

### نظرة إلى الخطبة

هنالك عدّة أقسام مهمّة في هذه الخطبة:  
القسم الأول: بين الإمام عليه السلام أهميّة ذكر الله في كلّ شيء وخاض في آثارها على  
روح للإنسان ونفسه لشرحها بعبارات مؤثرة.  
وأشار في القسم الثاني إلى حملة الأذكار في كلّ عصر ومصر ومواعظه في كيفية  
انقاذ عباد الله من الانحراف ويضيء طرقهم بمصاييح نوره البينات.  
وجرى الكلام في القسم الثالث عن صفاتهم وتوليهم عن زخارف الدنيا

١. «أصال» جمع «أصل» على وزن «رسل» وجمع أصيل من مادة أصل بمعنى العصر أو آخر النهار لأنه يعتبر  
أصل الليل.

٢. سورة النور، الآيتان ٣٦ و ٣٧.

٣. سند الخطبة:

ذكر الأمدى في حرف الألف من «غرر الحكم» المقطع الأول من هذه الخطبة باختلاف مع ما ورد في «نهج  
البلاغة»، ولم يرد مصدر آخر لهذا الجانب من الخطبة، وبدل الاختلاف على أنه أخذها من مصدر آخر غير  
«نهج البلاغة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٥١).

واجتناب المعصية ومناصرة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.  
وشرح في القسم الرابع أحوالهم في القيامة عند نشر صحف الأعمال وحشر  
العباد للحساب والحديث عن حسن عاقبتهم والنتائج الباهرة لأعمالهم الصالحة.  
وأمر في القسم الخامس مخاطبيه بحساب أنفسهم وإصدار الحكم على أعمالهم.

## القسم الأول

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذُّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ اللَّهُ عَزَّتْ أَلْوُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَرْزَمَانَ الْفَتْرَاتِ عِبَادُ نَاجَاهُمْ فِي فِخْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَضْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ. مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ.

## الشرح والتفسير

### أدلة السائرين على الطريق

لابدّ بادئ الأمر من معرفة تفسير آية سورة النور ليتضح الكلام العميق للإمام عليه السلام

في شرحه للموضوع.

تحدث القرآن المجيد في الآية ٣٥ من سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ عن نور الله وشرحه بمثال لطيف يتضمن العديد من الأمور التعليمية ثم قال في الآيات التالية: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ تُرْفَعُ وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾!



من الواضح أنّ هؤلاء الرجال بالدرجة الأولى هم الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ومن بعدهم المخلصين السائرين على نهجهم.

ونخوض بعد هذه الإشارة الاجمالية في شرح الخطبة، قال الإمام عليه السلام في مستهل هذه الخطبة: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذُّكْرَ جِلَاءً<sup>٢</sup> لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ<sup>٣</sup>، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ<sup>٤</sup>، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ».

نعم! هنالك آثار عجيبة للذكر إن اقترن بالفكر. فإذا ذكر الإنسان اسم الله بعظمة وعدد صفاته الجمالية والجلالية من علم وقدرة وسمع وبصر ومقام الرحمانية والرحيمية ومراقبته بالنسبة لعباده، زالت عن بصيرته حجب الغفلة ورأى الحق واضحاً، وتخدم لجاجة الأهواء والشهوات فيسمع بأذن روحه خطاب أولياء الله والدعاة إلى مرضاته ونتيجة ذلك الانقياد التام لأوامر الله.

ذهب بعض الشراح أو احتملوا أنّ المراد من الذكر في العبارة، القرآن المجيد بقرينة ما أورده القرآن بشأنه فقال: «وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ»<sup>٥</sup> ولكن الحق أنّ للذكر مفهوم عام، أحد مصاديقه البارزة الآيات الشريفة للقرآن.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَمَا بَرِحَ<sup>٦</sup> اللَّهُ عَزَّتْ أَلُوهُ فِي الْبُرْهَةِ<sup>٧</sup> بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَرْمَانَ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَضْبَحُوا بِنُورِ يَنْظَرَةَ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ، يُذَكَّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ

١. «ذكر» المراد به هنا ذكر الله وهو على ثلاثة أنواع: القلبي، اللساني والعملي فيتذكر الله حين تتوفر مقدمات المعصية فيتركها. وقيل: الذكر يشمل ذكر الله وكذلك القيامة والنبوة والولاية.

٢. «جلاء» إزالة الصدا والايضاح والإنارة. ويقال للكحل جلاء كونه ينور العين.

٣. «وقرة» من مادة «وقر» تعني في الأصل الثقل، ومن هنا يقال لتعظيم الأفراد توقير، وقد استعمل الوقرفي القرآن الكريم بمعنى ثقل السمع وهذا هو المعنى المراد هنا.

٤. «عشوة» ضعف العين.

٥. سورة الأنبياء، الآية ٥٠.

٦. «ما برح» دائماً وأبداً.

٧. «برهة» الزمان الطويل أو مدة من الزمان.

## الأدلة في الفلوات<sup>١</sup>.

ربما هذا التعبير إشارة لأوصياء الأنبياء المتواجدين طيلة الفترات الزمنية ويستلهمون الحقائق الربانية عن طريق الإلهامات القلبية ويوصلونها إلى العباد. كما يمكن أن تكون إشارة إلى الصالحين والمخلصين والعارفين والبصيرين غير الأنبياء والأوصياء الذين يعيشون بين الناس في كل زمان؛ فهؤلاء أيضاً يقفون على الصراط المستقيم بالإلهام الغيبي والتأييد الرباني ويسعون لهداية الآخرين، ولعلها تشمل الفريقين.

والتعبير بـ «أدلة» جمع دليل إشارة إلى ما كان سائداً في الأسفار في الأزمنة الماضية، فلم تكن الطرق مشخصة آنذاك كما هي عليه اليوم، فيمر بها المسافر ويصل المقصد، ومن هنا فإن القوافل تحمل معها عارفين بالطريق حتى لا يضلوا الطريق ويطلق عليهم «الأدلة». فهؤلاء الأولياء في الحياة الدنيا كأدلة الطريق الذين يهدون قافلة البشرية من الضلال وينقذونهم من الهلكة.

ثم قال ﷺ: «مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ».

نعم! فهؤلاء يراقبون بني جنسهم على الدوام؛ فيشجعون السائرين على الدرب ويشدون عزائمهم ويحذرون المنحرفين ويذمونهم ويصرخون بهم حتى لا يواصلوا طريق الانحراف فيهلكوا.

ثم قال في استنتاج لما ورد في العبارات السابقة: «وَكَاثُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ».

نعم! فهناك الظلمات المعتمة في مسيرة الحياة الدنيا والطرق المضلة وكلاهما خطر على السالكين، ووجود أولئك الأولياء مصابيح للدجي والأدلة على ذلك الطريق الخطير.

١. «فلوات» جمع «فلاة» الصحراء القاحلة أو الواسعة.

## تأملان

## ١. ما المراد من أيام الله؟

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى أن أولياء الله يذكرون الناس بأيام الله. طبعاً كلّ الأيام هي أيام الله وكل موضع بيته وفي نفس الوقت ليس له يوم ولا بيت فهو اسمى من الزمان والمكان؛ ولكن كما سميت الكعبة كونها اعظم مركز للعبادة «بيت الله»، فإنّ هناك بعض الأيام الخاصّة التي تألّأت لما تحمله من حوادث مهمّة.

قال البعض: «أيام الله» إشارة إلى غلبة الأنبياء لجيوش الشرك والكفر. وقال البعض الآخر: أيام العبادة كأيام الشهر المبارك وأيام الحج، ما ورد في تاريخ بني إسرائيل وموسى أنّه أمر أن يذكر بني إسرائيل بأيام الله في إشارة إلى يوم النصر على فرعون والنجاة من البحر وما شابه ذلك، ولكن جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في تفسير «أيام الله»: «يُرِيدُ بِأَيَّامِ اللَّهِ سُنَّتهُ وَأَفْعَالُهُ فِي عِبَادِهِ مِنْ إِنْعَامٍ وَإِنْتِقَامٍ»<sup>١</sup>.

وطبق هذه الرواية فإنّ كلّ يوم يلمس فيه العبد نعمة من نعم الله أو ينتصف فيه من الأعداء إنّما يعتبر من أيام الله.

على كلّ حال فإنّ ذكر ايام الله عامل تكامل الإيمان وآثاره حسن الشكر والتوجه إلى الله.

حتى أيام البلاء الرّباني عدّت في الرواية من أيام الله كما ورد عن النبي الأكرم عليه السلام: «أَيَّامُ اللَّهِ نِعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ وَمَثَلَاتُهُ سُبْحَانَهُ»<sup>٢</sup>. لا شك في أنّ لمفردة أيام الله في هذه الخطبة مفهوم عام يشمل كلّ ما ذكر سابقاً.

١. بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٢٧.

٢. المصدر السابق، ج ٦٧، ص ٢٠.

## ٢. الإلهامات الغيبية

العبارة «عِبَادُ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَمَتُهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ...» أشار فيها الإمام عليه السلام إلى رجال ألقى الله في قلوبهم نور الهدى عن طريق النجوى الفكرية والإلهامات القلبية وطرح عنهم حجب الجهل والظلمة فسعوا بما يتلقون من هدى لهداية الخلق وإرشاد ضالّي سبيل الإيمان والتقوى.

فهل هؤلاء هم الأوصياء والأئمة المعصومون عليهم السلام الذين يتلقون الحقائق من عالم الغيب عن طريق الإلهام في فترات بعثة الأنبياء، أم يشمل الصالحين من الأفراد الذين بلغوا قمة الورع والتقوى؟

أي أن قلوبهم مرتبطة بعالم الغيب كما هو به مضمون «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا»<sup>١</sup>. ومضمون «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا»<sup>٢</sup>.

والله لا يتركهم لوحدهم في الشدة كأم موسى عليه السلام: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ...»<sup>٣</sup> حيث ألهمها مسير ولدها، فكيف يمكن أن يحرم من هذا الفيض سائر الصالحين، ومن هنا يعتقد بعض الأعلام بأن كل عمل مهم يصدر من تقي، أو اكتشاف يتوصل إليه عالم، إنما يتم في ظل هداية الله التكوينية والإلهامية.

فروح القدس الذي يعين بعض الأفراد مثل حسان بن ثابت والكميت حين إنشادهم لتلك الأشعار الرفيعة وينطق الشعر على ألسنتهم<sup>٤</sup> فلم لا يمد سائر العشاق.

سبحان

١. سورة الأنفال، الآية ٢٩.

٢. سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٣. سورة القصص، الآية ٧.

٤. ورد في الحديث: لما دخل الكميت شاعر أهل البيت المعروف على الإمام الباقر عليه السلام وأنشد شعره المعروف: «مَنْ لِقَلْبٍ مَّتَيْمٍ مُسْتَهَامٍ» فلما فرغ قال له الإمام: «لَا تَزَالُ مُؤَيَّدًا بِرُوحِ الْقُدْسِ مَا دُمْتَ تَقُولُ فِينَا» (وسائل الشيعة، ج ١٠، باب ١٠٥، أبواب المزار، ح ٤). اقتبس الإمام هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قاله لحسان بن ثابت لما أنشده «يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نُبِيِّهِمْ». (بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ١٥٠).



## القسم الثاني

وَإِنَّ لِلذُّكْرِ لِأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتَفُونَ بِالزَّوْاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَّقُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبِرْزَخِ فِي طَوْلِ الْأَقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ.

## الشرح والتفسي

### أولياء الله وأهل الذكر

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيان آثار ذكر الله في جلاء القلوب وسعة معطياته على روح الإنسان، خاض في شرح أهل الذكر بالحق، وتطرق إلى صفاتهم الواحدة تلو الأخرى فقال «وَإِنَّ لِلذُّكْرِ لِأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا».

إشارة إلى أن ذكر الله يعصم من الغرور بالماديات الزائلة للدنيا التي عبرت عن حبها الأحاديث الإسلامية أنها «رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»<sup>١</sup> ومصدر جميع المعاصي. طبعاً هذا لا يعني أن هؤلاء كالرهبان الملازمين للدير أو المقاطعين للدنيا الذين يولون أدبارهم للحياة الاجتماعية (بقريئة العبارات القادمة) بل المراد أن هؤلاء لا تأسره مغريات الدنيا.

١. الكافي، ج ٢، ص ١٣١، ح ١١؛ الخصال، ص ٢٥، ح ٨٧.

أما ما المراد بـ «الذكر» و«الأهل»؟ هنالك تفسيران رئيسيان: أحدهما خاص والآخر عام؛ التفسير الخاص: أن المراد من الذكر، النبي الأكرم ﷺ أو القرآن وأهل الذكر «أهل البيت» والأئمة المعصومون عليهم السلام والصفات التي وردت بعد هذه العبارة في أهل الذكر تنطبق عليهم بصورة تامة.

ومفهومه العام يشمل جميع العلماء الأتقياء والمؤمنين الكمل، والصفات الواردة بعدها تنطبق عليهم.

وليس هنالك مانع من الجمع بين المعنيين؛ فمفهوم الجملة عام وأهل البيت من مصاديقها البارزة وأنصح نماذجها.

ثم بين الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه آثار ذكر الله لدى هؤلاء ضمن خمس صفات فقال: «فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ».

لا أنهم لم يكن لديهم بيع وتجارة ولم يمارسوا الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، بل كانوا يخطون خطوات مؤثرة في هذا المجال؛ ولكن هذه الأنشطة الاقتصادية تجعلهم يغفلون عن ذكر الله ويتهاكون في الاقبال على الدنيا.

أما ما الفرق بين التجارة والبيع؟ يقال أحياناً النسبة بينهم العموم والخصوص المطلق وذكر البيع بعد التجارة من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأن البيع أحد أنواع الفعاليات الاقتصادية.

كما يحتمل أن تكون التجارة إشارة إلى الفعاليات الاقتصادية المستمرة ويشمل البيع الفعاليات المحدودة والزمانية؛ أي أن أهل الذكر لا يفقدون هذا ولا ذاك وفي نفس الوقت يتجلى فيها ذكر الله بصورة دائمة.

ثم أشار إلى باقي صفاتهم فقال: «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتَفُونَ<sup>١</sup> بِالزَّوْاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ».

١. «يهتفون» من مادة «هتف» على وزن «هتك» الصراخ بشخص.

الجملة «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ» إشارة إلى أن ذكر الله وآثاره المباركة ليست مرتبطة بيوم أو بضعة أيام من عمرهم، بل يشمل أيام حياتهم منذ الشباب حتى الكهولة والشيخوخة.

وتشير العبارات بعدها إلى أنهم لا يتخلون قط كالمتوقعين عن المسؤوليات الاجتماعية؛ بل نشطون للغاية في ميدان إرشاد الجاهل وتنبيه الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالنظر إلى أن العبارة وردت بصيغة الفعل المضارع والفعل المضارع يدل على الاستمرار، فهي إشارة إلى أن أعمالهم الصالحة هذه دائمة.

جدير ذكره أن الإمام بيّن هنا أنهم يأمرن بالمعروف ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، كما قال الإمام عليه السلام في الخطبة ١٧٥: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أُحْتَكُمُ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنهَاكُمُ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتْنَاهِي قَبْلَكُمْ عَنْهَا!».»

ثم خاض الإمام عليه السلام في مزيد من الشرح بخصوص أحوال أولياء الله وأهل الذكر فقال: «فَكَانَنَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ». نعم! فهؤلاء يرون هذا العالم بأعينهم الباصرة النافذة عالم ما بعد الموت والقيامة والبرزخ ويشاهدون مصير الأخيار والأشرار.

ثم قال في إيضاح ذلك الكلام: «فَكَانَنَا أَطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طَوْلِ الْأَقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا!».»

ثم بيّن نتيجة هذه المكاشفة الروحية: «فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَانَتْهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ».»

لم يعجز أهل الدنيا العاديون عن إدراك أحوال البرزخ والآخرة بينما يشاهدان

١. «عدات» جمع «عدة» بمعنى الوعود وقوله عليه السلام: (وحققت القيامة عليهم عداتها) في الواقع نوع من المجاز، لأن الوعود الإلهية وعود الثواب والعقاب عالم تحققه هو عالم القيامة، وعليه فلا ينبغي تصور الحاجة إلى الحذف والتقدير.



أولياء الله أهل الذكر بل يرون فيها أنفسهم؟  
 لأنّ أرواح أهل الدنيا معلقة بالدنيا فألقت حجاباً بينهم وبين العوالم الأخرى؛ أمّا  
 أهل الذكر الأطهار المتحررون من تلك التعلّقات والذين جلّوا أرواحهم بدوام  
 التفكير والعبادة، أزيلت عن أعينهم تلك الحجب فانعكست فيها صور حقائق عالم  
 البرزخ والقيامة.

هؤلاء حملة الرسائل الإلهية من ذلك العالم إلى هذا العالم، الرسائل التي تؤدي  
 إلى يقظة الغافلين وإبصار المكفوفين.

## القسم الثالث

فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمُخْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ، وَقَدْ  
نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَعُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ  
وَكَبِيرَةٍ أَمَرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَلُوا ثِقَلَ  
أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الْأَسْتِقْلَالِ بِهَا، فَتَنَسَّجُوا نَشِيْجًا، وَتَجَاوَبُوا  
نَحِيْبًا، يَعْبُجُونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى،  
وَمَصَابِيحَ دُجَى، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ  
لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ فِي مَقْعَدِ اطَّلَعِ اللهُ عَلَيْهِمْ  
فِيهِ، فَرَضِي سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ. يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ،  
رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسَارَى ذِلَّةٍ لِعِظَمَتِهِ، جَرَحَ طَوْلُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ،  
وَطَوْلُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ. لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٌ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدُ قَارِعَةٍ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا  
تَضِيْقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ، وَلَا يَخِيْبُ عَلَيْهِ الرَّاعِبُونَ.

فَحَاسِبُ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

## الشرح والتفسير

### مصير السائرين على الصراط

رسم الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة صورة دقيقة لحال أهل الذكر وأولياء  
الله، كيف يحاسبون أنفسهم ويتلافون ما بدر منهم فقال: «فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي

١. «مثلتهم» من «التمثيل» على وزن «خليل» بمعنى التجسيد.

مَقَاوِمِهِمْ<sup>١</sup> الْمَخْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةَ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ<sup>٢</sup> أَعْمَالِهِمْ،  
وَفَرَّغُوا الْمُحَاسَبَةَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أَمْرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا  
عَنْهَا فَقَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ<sup>٣</sup> ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الْأَسْتِقْلَالِ بِهَا،  
فَنَشَجُوا نَشِيجًا<sup>٤</sup>، وَتَجَاوَبُوا<sup>٥</sup> نَحِيبًا<sup>٦</sup>، يَعْجُونَ<sup>٧</sup> إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامٍ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ<sup>٨</sup>.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر حالات أولياء الله كيف يراقبون أنفسهم ويحاسبون  
أعمالهم وما يبدون من ردود أفعال إزاء ما يبدر منهم من تقصير ويتأوهون إلى الله  
خلص إلى نتيجة ذلك فقال: «لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى، وَمَصَابِيحَ دُجَى<sup>٨</sup>، قَدْ حَفَّتْ بِهِمْ  
الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ  
الْكَرَامَاتِ فِي مَقْعَدِ اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ».

هذا القسم من كلام الإمام في الواقع جواب شرط للجمله السابقة: «فَلَوْ  
مَثَلْتَهُمْ...». ذكر الإمام عليه السلام هنا خمس صفات أو نتيجة مهمة لمراقبتهم تفيد الهدى  
وكشف الدجى. إشارة إلى أنهم ليسوا كالزهاد المعتزلين قط الذين لا يرون إلا  
أنفسهم، بل هم منقذو الغرقى الذين يسعون لإنقاذ الغرقى في بحر المعاصي، وأنهم  
على درجة من العلو والرفعة من حيث المقام والمكانة بحيث تحفهم الملائكة وتقوم  
على خدمتهم كما ورد في القرآن: «الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ  
الْمَلَائِكَةُ»<sup>٩</sup>.

١. «مقاوم» جمع «مقام» المكانة المعنوية أو البدنية.

٢. «دواوين» جمع «ديوان» الدفتر وتعني هنا صحيفة العمل.

٣. «أوزار» جمع «وزر» على وزن «حرز» الحمل الثقيل وتعني هنا حمل المسؤوليات الثقال.

٤. «النشيج» الاختناق بالبكاء وترجيع الصوت في الحنجرة إثر البكاء.

٥. «تجاوبوا» من «التجاوب» أجاب بعضهم بعضاً وتشير هنا إلى جماعة يجلسون في مكان ويكون معاً.

٦. «النحيب» شدة البكاء.

٧. «يعجون» من مادة «عج» على وزن «حج» الصياح.

٨. «دجى» جمع «دجية» على وزن «لقمة» الظلمة وتستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى المفرد.

٩. سورة فصلت، الآية ٣٠.

وقد عمهم الأمن والسكينة بمضمون ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾<sup>١</sup>. وتنتظرهم بمضمون ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ \* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾<sup>٢</sup> مقامات لا توصف من الفضل والرحمة الإلهية. حقاً حين يقرأ الإنسان هذه الكلمات العميقة المعنى كيف يبلغ أولياء الله في ظل العبودية مقاماً لا يرى سوى الله يستغرق في التفكير في عظم الاستعداد الذي يملكه ولو عرف قدره وفجر استعداده.

ثم خاض في جانب آخر من أحوال أهل الذكر في إرتباطهم بالله وعبادته في الخلوات فقال عليه السلام: «يَتَنَسَّمُونَ<sup>٣</sup> بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى<sup>٤</sup> قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ». إشارة إلى أنهم كلما جدوا في الطاعة والعبودية شعروا بالتقصير أزاء عظمة الله، ومن هنا يتجهون إليه على الدوام ويلتمسون السكينة عن طريق العفو، ومن جانب آخر فإنهم لا يعولون قط على أعمالهم، بل يتكلون على فضل الله فيثقل بهم قلوبهم ويكشف ذلك لهم عيونهم الباكية.

ثم قال عليه السلام: «لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٌ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدُ قَارِعَةٍ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ<sup>٥</sup>، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ».

إشارة إلى أنهم لا يتعلقون بأعمالهم وكل أملهم بكرم الله. يقرعون كل باب ويأتون بكل عمل يعتقدون بأنه سبب لمرضاة الله واستنزال رحمته.

إنهم يعيشون في الواقع بين الخوف والرجاء دائماً وهو أفضل حالات المؤمن،

١. سورة الفتح، الآية ٤.

٢. سورة القمر، الآيتان ٥٤ و ٥٥.

٣. «يتنسمون» من «النسيم» فالعبارة «يتنسمون» تعني أنهم ينتظرون النسيم و«التنسم» بمعنى التنفس.

٤. «الأسى» الحزن.

٥. «المنادح» جمع «مندوحة» الأرض الواسعة ثم اطلقت على كل نظام واسع فيه حرية.

الخوف من التقصير والأمل بفضل الله.

وفي الختام تغير لحن كلام الإمام عليه السلام عن شرح حالات أهل الذكر ليتطرق إلى موعظة عامة فقال: «فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ».

إشارة إلى أنه ينبغي عليك أن تحاسب نفسك هنا قبل أن تحاسب في البرزخ والقيامة من جانب الملائكة فإن بدر منك خطأ تلافيته وإن كان لك عمل صالح حمدت الله عليه؛ وليس لك أن تدقق في أعمال الآخرين الصغيرة والكبيرة فإن لهم حسيباً غيرك.

فهناك في الواقع رسالتان في العبارة الأخيرة؛ إحداهما، رسالة الحديث المعروف «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا»<sup>١</sup>.

والأخرى، رسالة الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»<sup>٢</sup>.

## تأمل

### ذكر الله والذاكرون

كل ما ورد في هذه الخطبة الغراء والعظيمة المضمون كان شرحاً لعبارة من آية في القرآن الكريم وهي أن أولياء الله لا يغفلون قط عن ذكر الله لمتاع الدنيا، فنور الله يسطع في بيوتهم وهم كالنجوم التي تهدي الخلق في ظلمات البر والبحر.

بغض النظر عن أن للذكر ثلاث مراحل: الذكر القلبي، واللساني والذكر بالعمل، فهناك مصاديق متفاوتة لكل مرحلة كالنور الذي يشمل نور الشمس ونور الشمعة، ويكون أحياناً هذا الذكر محدوداً بحيث لا يضيئ أكثر من الوسط، وأخرى على

١. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٩٩، ح ٢١٠٨٢.

٢. سورة المائدة، الآية ١٠٥.

درجة من العمق والسعة بحيث يضيئ العالم.

وأولى القرآن أهميّة فائقة للذكر والذاكرين. فقد خاطب الله تعالى موسى عليه السلام:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾<sup>١</sup>.

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾<sup>٢</sup>.

وقال بخصوص الخمر: إنه نهي عن الخمر كونه يصدّ عن ذكر الله: ﴿وَيُصَدِّكُمْ عَنْ

ذِكْرِ اللَّهِ﴾<sup>٣</sup>.

كما يقول إن نفوذ الشيطان يبدأ حين يغفل الإنسان ذكر الله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ

الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾<sup>٤</sup>.

وأوجز تعالى كلّ عظمة القرآن في عبارة فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>٥</sup>.

وقال تعالى: ﴿فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>٦</sup>.

وأخيراً وصف ذكر الله أنه وسيلة لاطمئنان القلوب: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ﴾<sup>٧</sup>.

ورغم أنّ للذكر معاني مختلفة في هذه الآيات؛ لكنها تشترك جميعاً في أمر هو

أنه يسوق الإنسان إلى الله، يجري من القلب على اللسان ويتسع من اللسان لجميع

أعمال الإنسان. وكأنّ جميع الأعضاء تذكر الله بصوت بليغ في كلّ الأعمال.

كما وردت الأهميّة الفائقة للذكر والذاكرين في الروايات:

منها ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَلَهُ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ

١. سورة طه، الآية ١٤.

٢. سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

٣. سورة المائدة، الآية ٩١.

٤. سورة يوسف، الآية ١٠٤.

٥. سورة الزخرف، الآية ٣٦.

٦. سورة الأنبياء، الآية ٧.

٧. سورة الرعد، الآية ٢٨.

إِلَّا الذُّكْرَ فَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ»<sup>١</sup>.

كما ورد عنه عليه السلام أيضاً: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي جَنَّتِهِ»<sup>٢</sup>.  
ويستفاد من بعض الروايات أنّ ذكر الله يدفع أنواع البلاء. قال الإمام الصادق عليه السلام:  
«إِنَّ الصَّوَاعِقَ لَا تُصِيبُ ذَاكِرًا»<sup>٣</sup>.

بل أبعد من ذلك أنّه عليه السلام قال: «مَا مِنْ طَيْرٍ يُصَادُ إِلَّا بِتَرْكِ التَّشْبِيحِ وَمَا مِنْ مَالٍ يُصَابُ إِلَّا بِتَرْكِ الزَّكَاةِ»<sup>٤</sup>.

زبدة الكلام أنّ الآيات والروايات في ذكر الله وأهميته وآثاره على الحياة المادية والمعنوية والدنيا والآخرة كثيرة، وما ورد سابقاً هو جانب من ذلك.

ونختتم هذا الكلام برواية عن الإمام الصادق عليه السلام التي بيّنها في تتمّة حديث، عدم محدودية الذكر فقال: «كَانَ أَبِي كَثِيرَ الذُّكْرِ لَقَدْ كُنْتُ أَمْشِي مَعَهُ وَإِنَّهُ لَيَذُكُرُ اللَّهَ وَآكُلُ مَعَهُ الطَّعَامَ وَإِنَّهُ لَيَذُكُرُ اللَّهَ وَلَقَدْ كَانَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَمَا يَشْغَلُهُ ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...»<sup>٥</sup>.



١. الكافي، ج ٢، ص ٤٩٨، ح ١.

٢. المصدر السابق، ص ٥٠٠، ح ٥.

٣. المصدر السابق، ح ٢.

٤. وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٥، كتاب الزكاة، باب تحريم منع الزكاة، ح ٢٠.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٤٩٩، ح ٥.

## وَمِنْ خُطْبَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَالَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة الواردة في تفسير الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ من عدة أقسام:

القسم الأول: تساءل الإمام ووبخ صحبه ومخاطبيه من أجل إيقاظهم وبث الوعي بين صفوفهم فإلى متى هم نائمون ولم لا يفيقون من هذا السبات؟ لم لا يرحمون أنفسهم وينقذونها مما تغط به في مستنقع الذنوب والمعاصي ويطيبون جروحهم وآلام قلوبهم التي أفرزتها الآثام.

ودعا في القسم الثاني هذا الإنسان الهارب لمحاكمة نفسه. فيذكرها بنعم الله فلو

١. سورة الانفطار، الآية ٦.

٢. سند الخطبة:

ذكر في «مصادر نهج البلاغة» مصدرين يستفاد من القرائن أنهم استقوا هذه الخطبة من مصدر غير «نهج البلاغة»: الأول «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد الذي ذكر بعضها باختلاف مع ما ورد في «نهج البلاغة»، والآخر «غرر الحكم» الذي أورد جانباً منها باختلاف مع ما ورد في «نهج البلاغة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٥٥).



تفرغ لمحاكتها لأدان نفسه قطعاً.

وتحدث في القسم الثالث عن تقلب أوضاع الدنيا والاعتبار بحياة الماضين ومماتهم. وحثّ في آخر قسم ببضع عبارات موجزة فناء الدنيا وقيام القيامة وحضور محكمة العدل الإلهي وغياب الأعداء هناك.

ثم جعل كلّ هذه التذكيرات والتحذيرات وسيلة لخرق حجاب الغرور الذي أشار إليه في الآية المذكورة.

## القسم الأول

أَدْحَضُ مَسْئُولٍ حُجَّةً، وَأَقْطَعُ مُعْتَرٍ مَعْدِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ.  
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، مَا جَزَأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنْسَكَ بِهَلَكَةِ  
نَفْسِكَ؟ أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقْظَةٌ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا  
تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ؟ فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَّ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى  
الْمُبْتَلِيَّ بِالْمِ يُمِضُ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ  
عَلَى مُصَابِكَ، وَعَزَّكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ! وَكَيْفَ  
لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَذَارِجِ سَطَوَاتِهِ! فَتَدَاوِ  
مِنْ دَاءِ الْفِتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى الْعَفْلَةِ فِي نَاطِرِكَ بِيقْظَةٍ، وَكُنْ لِه  
مُطِيعاً، وَبِذِكْرِهِ آنِساً.

## الشرح والتفسير

### الرحمة بالنفس؟

قال الإمام عليه السلام في مستهل الخطبة على ضوء الآية المذكورة «أَدْحَضُ مَسْئُولٍ  
حُجَّةً، وَأَقْطَعُ مُعْتَرٍ مَعْدِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى هذه النقطة وهي أَنَّ الله يصرِّح في هذه الآية:  
لقد أفاض الله عليك كلَّ هذا الكرم بالنعم المادية والمعنوية من رأسك إلى أخمص  
قدمك ومازلت مغروراً وعاصياً وتمررداً؟! فليس لديك أدنى حجة وليس لديك من

١. «أدحض» من «الإدحاض» بطل وغلب ومن مادة «دحض» الغلبة.

٢. «أبرح» من مادة «برح» على وزن «حرف» الشدة كما وردت بمعنى الزوال والمعنى الأول هو المراد في العبارة.

عذر وعملك يدل على أنك لم تعرف نفسك.

ومن هنا يتضح خطأ من ذهب إلى أن صفة الكريم في الآية لتلقين المخاطب بأن يقول في الجواب: «غرّني كرمك»، بل يريد أن يقول بالعكس رغم كل هذا الكرم واللفظ مع كل هذا العصيان المخجل الذي يفتقر إلى العذر والحجة، لذلك ورد في الحديث النبوي أن النبي الأكرم ﷺ لما تلا الآية قال: «غرّه جهله»<sup>١</sup>.

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح هذا الكلام ليسلط بهذه العبارات سوط ملامته وتوبيخه على جسد أرواحهم الهامدة عليهم فيفتقون ويعودوا عن غيهم فقال: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، مَا جَرَّكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنْسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟».

إشارة إلى أن غريزة حب الذات في الإنسان أقوى الغرائز؛ فالإنسان بصورة طبيعية يحب نفسه أكثر من أي شخص آخر وإذا رأينا شخصاً يطعن صدره وعضده لذهلنا وتساءلنا مع أنفسنا: هل أصيب بالجنون، أو يرغب شخص عاقل بهلاك نفسه؟ فإن لم تكن للإنسان أدنى رغبة بهلاك نفسه فلم يتقبل الغرور والذنب والمعصية التي تؤدي إلى هلاكه؟!

ثم قال عليه السلام: «أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ<sup>٢</sup>، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقْظَةٌ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ؟».

ثم أوضح هذه الحقيقة بذكر مثال فقال: «فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِي<sup>٣</sup> مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلِيَّ بِالْمِمْضِ<sup>٤</sup> جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ<sup>٥</sup> عَلَى مُصَابِكَ، وَعَزَّكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ!». إشارة إلى ما نراه من تناقض في فعل الآخرين وازدواج في أحكامهم فهم يبدون

١. تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٦ من سورة الانفطار.

٢. «البلول» التحسن من المرض كما وردت بمعنى الغنى والنشاط.

٣. «الضاحي» الشخص المعرض لضوء الشمس، من مادة «ضحو» على وزن «محو» التعرض لأشعة الشمس ويقال «ضحى» حين تتسع أشعة الشمس على الأرض.

٤. «ميمض» من مادة «مض» على وزن «حض» يؤلم.

٥. «الجلد» من مادة «جلد» على وزن «بلد» القوة أو التحمل.

أشد ردود الأفعال إزاء انزعاج الآخرين وسقم المرضى وأحياناً تسيل الدموع من أعينهم في حين مرضهم أشد ومصيبتهم أعظم ولا يبدون أي رد فعل.  
أراد الإمام عليه السلام بهذا البيان المنطقي البليغ أن يوقظ هؤلاء الغافلين الجهال والسادجين ويلفت انتباههم إلى ما ينتظرهم من مصير خطير لعلمهم يتوبون وينيبون إلى الله.

ثم قال عليه السلام: «وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ<sup>٣</sup>! فَتَدَاوَوْا مِنْ دَاءِ الْفُتْرَةِ فِي قَلْبِكُمْ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى<sup>٤</sup> الْغَفْلَةِ فِي نَاطِرِكُمْ بِتَقْظَةٍ».

هنالك أمران ضروريان للخلاص من الخطر: اليقظة والحذر من جهة والإرادة والعزم الراسخ من جهة أخرى وقد أشار الإمام إلى هذين الأمرين بهذه العبارة الموجزة فحذر الجهال بأن يفيقوا من سبات الغفلة ويعقدوا العزم مادامت الفرصة سانحة على خلاص أنفسهم من مخالب المعاصي التي تؤجج نيران الغضب الرباني. التعبير بـ «بَيَاتِ نِقْمَةٍ» كون ضحايا البلاء النازل ليلاً أكثر؛ من قبيل الزلازل والسيول والعواصف التي تحدث ليلاً ويغط الناس في النوم ولا يملكون من وسيلة للدفاع عن أنفسهم.

قال تعالى في القرآن المجيد: «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ \* وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ»<sup>٥</sup>.  
وقال في ختام هذه الفقرة: «وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعًا، وَبِذِكْرِهِ آنِسًا».

١. «بيات» إن وردت هذه المفردة مصدرًا عنت البقاء والمبيت ليلاً في مكان وإن كان لها معنى الاسم عنت الليل وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

٢. «التورط» من مادة «ورط» على وزن «شرط» الإلقاء في المستنقع و«قد تورطت بمعاصيه» يعني القيت بنفسني في غضب الله بسبب المعاصي.

٣. «سطوات» جمع «سطوه» القهر والغلبة والسلطة على الشيء.

٤. «الكرى» النوم والنعاس.

٥. سورة الأعراف، الآيتان ٩٧ و ٩٨.



## القسم الثاني

وَتَمَثَّلُ فِي حَالِ تَوَلُّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلِّ عَنَّهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنْفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ. فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلُهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَحُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرِفَ عَيْنٍ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةً يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ! فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطْعَمْتَهُ! وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفَقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِيءِ الْأَعْمَالِ.

## الشرح والتفسير

### رحمة الله ومعصية العبد؟!!

دعا الإمام عليه السلام الناس في هذا الجانب من الخطبة إلى الحكم على أنفسهم وعدد أدلة إدانته، ومن ذلك أنه يحث الخطي دائماً في طريق العصيان من جهة ومن جهة أخرى يمطره الله بوابل فضله ورحمته فقال: «وَتَمَثَّلُ<sup>١</sup> فِي حَالِ تَوَلُّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ<sup>٢</sup> بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلِّ عَنَّهُ إِلَى غَيْرِهِ».

حقاً إنه لمن المؤسف والمخجل أن يكون مولى الإنسان كريماً يغذيه بأنواع النعم لكنه يتولى عنه دائماً؛ الأمر الذي لا يقبله أي وجدان.

١. «تمثل» كما أشير إليه في الخطبة السابقة من «المثول» على وزن «حلول» بمعنى التجسيد.

٢. «يتغمّد» في الأصل من «الغمد» على وزن «هند» بمعنى غطاء السيف و«تغمّد» الوضع في الغطاء. ثم استعملت بمعنى الشمول وأريد بها في العبارة أن فضل الله عمّكم.

وهذا ما نقرأه في دعاء الافتتاح في شهر رمضان المبارك: «يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَدْعُونِي فَأَوْلِي عَنكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَاتَبَغَّضْ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلَا أَقْبَلُ مِنْكَ، كَأَنَّ لِي التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعَكَ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي وَالْإِحْسَانِ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ».

ثم قال: «فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعَتْ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَيَّ مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنْفٍ<sup>١</sup> سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ!».

إشارة إلى أنه ليس من العجب أن يعتمد الأفراد الأقوياء أسلوب العنف. والعجب أن يسلك الفرد الضعيف والذليل العاجز هذا الطريق؛ إلا أن الله بكل تلك القدرة العظيمة هو منتهى الحب والرافة بينما يبدي هذا الإنسان بكل هذا الضعف والعجز كل هذه الجرأة على المعصية في حين لا يمسك عنه فضله ورحمته وهذا عجيب حقاً!

ثم قال عليه السلام: «فَلَمْ يَمْنَعَكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ<sup>٢</sup> فِي نِعْمَةٍ يُخْذِلُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ! فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ!».

إشارة إلى أن الإنسان لا يخلو من ثلاث حالات: إما مشمول بنعمة لا بد أن يؤدي شكرها، أو ارتكب معصية سترها الله وعليه أن يمتن لذلك الستر ويستغفر أو دفع عنه بلاءً وينبغي له أن يعرف قيمة هذه النعمة، هذا بينما من يسير في طريق العصيان لا يكثرث لأوامر الله ونواهيها، فما عساه أن فكر بأن الله الرحيم والغاية في الكرم كيف سيجازيهم إن أطاعوه، وهذه هي مسألة «وجوب شكر المنعم» التي يمكنها أن تكون دافعاً لمعرفة الله كما يقول علماء العقائد.

آنذاك نظر الإمام إلى هذه المسألة من زاوية أخرى فخاض في بيان آخر لا يبقاظ

١. «كنف» من مادة «كنف» على وزن «حرف» بمعنى محفوظ.

٢. «مطرف عين» من مادة «طرف» على وزن «حرف» إغماض العين وفتحها و«مطرف» مصدر ميمي بالمعنى المذكور.

مخاطبيه فقال ﷺ: «وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ، لَكُنْتُ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِيءِ الْأَعْمَالِ».

ذهب بعض شراح «نهج البلاغة» إلى أن العبارة السابقة بصيغة صغرى وكبرى من الشكل الأول من القياسات المنطقية؛ ولكن الظاهر أن سياق العبارة ناظر لقياس الأولوية؛ أي أن فردين متشاكلين لا يخشيان بعضهما عادة، مع ذلك إن كان أحدهما يحسن دائماً والآخر يسيئ فإن وجدان الفرد الثاني يدينه ويتهمه بسوء الخلق. فإن كانت هذه المسألة بين أحد غاية في العظمة وآخر غاية في الصغر بحيث ليست هنالك من حاجة وخوف وخشية في لطفه ورحمته من جهة ومن جهة أخرى كله حاجة وخشية من العقاب على المعاصي، قطعاً على ذلك الفرد الصغير في ظل تلك الظروف أن يلوم نفسه لِمَ الفعل المخجل إزاء كلِّ هذا الكرم.

❦❦❦

١. «أيم» في الأصل «أيمن» حسب بعض أرباب اللغة جمع «يمين» بمعنى القسم سقطت نونه ومعنى العبارة أقسم بالله.





## القسم الثالث

وَ حَقًّا أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَزْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفْتُكَ العِظَاتِ،  
وَآذَنَّتْكَ عَلَى سَوَاءٍ، وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نَزْوِلِ البَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَ النُّقْصِ فِي  
قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَغُرَّكَ. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ،  
صَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكْذَبٌ، وَلَيْتُنْ تَعْرِفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ  
الخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبَلَغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ،  
وَ الشَّحِيحِ بِكَ! وَلَنِعْمَ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَارًا، وَمَحَلٌّ مَنْ لَمْ يُوطَّنْهَا مَحَلًّا!  
وَإِنَّ السُّعْدَاءَ بِالدُّنْيَا عَدَا هُمْ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ.

## الشرح والتفسير

### الدنيا أعظم واعظ

لما كان أغلب المتهافتين على الدنيا يحملون الدنيا مسؤولية معاصيهم لإبراء  
أنفسهم ويعدون زخارف الدنيا ونعمها المادية سبب ااثامهم فإن الإمام ردّ عليهم في  
هذا الجانب من الخطبة فقال: «وَ حَقًّا أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَزْتَ». <sup>١</sup>  
ثم خاض في بيان دليل ذلك الكلام فقال: «وَلَقَدْ كَاشَفْتُكَ العِظَاتِ <sup>١</sup>، وَآذَنَّتْكَ <sup>٢</sup>  
عَلَى سَوَاءٍ».

إشارة إلى أن الدنيا ليست غرارة فحسب، بل تقع فيها أحداث موقظة، والإمام

١. «عظّات» جمع «عظة» بمعنى الموعظة والنصيحة وهي هنا كناية عن حوادث الدنيا المريرة التي تؤدي إلى اليقظة.

٢. «آذنت» من «الإيدان» بمعنى الإعلان المقرون بالتهديد وأحياناً تعني إعلان الحرب ثم وردت بمعنى الإعلان المطلق واطلاق الأذان كونه يعلن الدخول في الصلاة.

خاض في العبارات الآتية في شرحها قائلاً: «وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُّكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَعْرُكَ. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ».

إشارة إلى أن الدنيا عندما تصيبك بأنواع البلاء والمصائب والأحداث الأليمة وتغير القدرة، وهي صادقة ولا يصح وصفها بالخداع كما صدق من أخبرك من أولياء الله والصالحين عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وإن لم يكن كلامهم موافقاً لهوى نفسك؛ فلم تقبل لسان حال الدنيا ولا لسان حال أولياء الله واتهمت الجميع بالكذب، وعليه فهذا أنت من غرّ نفسه.

كما يحتمل أن يكون تفسير العبارة الأخيرة، أن الناصح هو الحوادث الأليمة وأخبار الصدق علامات غدر الدنيا التي يراها الإنسان بعينه ويسمعها بأذنه؛ ولكنها حيث لا تتفق وأهوائه فإنه يكذبها جميعاً ويقول هي مجرد حادثة صدفة فزالت ولن تتكرر.

ثم وضع أكثر هذه الحقيقة وجعلها معلومة للجميع فقال: «وَلَكِنَّ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ<sup>١</sup>، وَالرُّبُوعِ<sup>٢</sup> الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبِلَاغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ<sup>٣</sup> بِكَ!».

ثم قال في آخر عبارة: «وَلَنِعْمَ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَارًا، وَمَحَلٌّ مَنْ لَمْ يُوْطِنَهَا مَحَلًّا! وَإِنَّ السُّعْدَاءَ بِالدُّنْيَا عَدَا هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ».

إشارة إلى أن الأفراد المؤمنين واليقظين يسعهم أن يجعلوا من هذه الدنيا المليئة بالشر والمفعمة بالغرور والخداع وسيلة لسعادتهم الأبدية وسلماً لبلوغ المقامات

١. «خاوية» اسم فاعل من مادة «خوى» بمعنى خالي ويعني أحياناً المتهم.

٢. «ربوع» جمع «ربع» على وزن «رفع» البيت والسكن كما وردت بمعنى المنطقة أو الجماعة من الناس والمعنى الأول هو المراد هنا.

٣. «شحيح» من مادة «شخ» على وزن «مخ» البخل مع الحرص الذي يصبح عادة لذلك يطلق «شحيح» أحياناً على الفرد الحريص على صديقه وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

الرفيعة، بحيث تكون نظرتهم إلى الدنيا بخلاف نظرة المتعلقين بها فهي نظرة إلى المر أو السلم؛ فأولئك الذين يهربون من زخارفها وينتفعون بطيباتها للقرب من الله، ومن هنا يتضح الفارق بين الدنيا الممدوحة والمذمومة كما سيرد في مبحث التأملات.

## تأمل

### الدنيا الممدوحة والمذمومة

وصف الإمام عليه السلام الدنيا في العبارات السابقة بالواعظ الحريص والمخبر الصادق والوفي والتي أفصحت عن قلبها من خلال تقلباتها السريعة وأحداثها وآفاتها المختلفة وحذر الجميع من التعلق بها وإنما عليهم التزود منها.

والأكثر صراحة من ذلك ما ورد في قصار كلماته بشأن الدنيا حيث قال: «مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ» «وَمَشْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ»، «وَمَهْبِطُ وَحِيِّ اللَّهِ»، «وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ»، «دَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا... وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا»<sup>١</sup>.

هذا في الوقت الذي دُمّت الدنيا بشدة في خطب متعددة من «نهج البلاغة» والعديد من الروايات: «دَارُ بِالْبَلَاءِ مَحْقُوفَةٌ وَبِالْعَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»<sup>٢</sup>، «مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسْهًا وَالسَّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا»<sup>٣</sup>.

ثم حذر في عبارة أخرى من الدنيا فقال: «تَغْرٌ وَتَضْرٌ وَتَمْرٌ»<sup>٤</sup>. وطلاق الدنيا ثلاثاً من جانب الإمام عليه السلام لمساوئها وقبائحها، معروف أشير له في قصار الكلمات ضمن عبارات موقظة<sup>٥</sup>.

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٣١.

٢. المصدر السابق، الخطبة ٢٢٦.

٣. المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمة ١١٩.

٤. المصدر السابق، الكلمة ٤١٥.

٥. المصدر السابق، الكلمة ٧٧.

وأبعد من ذلك آيات القرآن المجيد التي ذمّت الدنيا بشدة ومنها ما ورد في سورة الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ \* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَبَّرُونَ»<sup>١</sup>.

وإن رتبنا هذه الآيات والروايات مع بعضها لورد هذا السؤال: إن كانت الدنيا بكل هذا الحسن، فلم كانت سيئة لهذا الحد، وإن كانت سيئة فلم هذا الحسن؟

يكمن الجواب في عبارة: أن الاختلاف نتيجة لاختلاف الرؤى.

والذين يكتفون بالنظر الظاهري وأصحاب الدنيا من ذوي النظرة الضيقة والسطحية لا يرون سوى زخارف الدنيا وزينتها وملذاتها فيتعلقون بها، والدنيا خطيرة للغاية على هذه الفئة، ولما كانت هذه الفئة تشكل الأكثرية، كانت هنالك الكثير من الآيات والروايات التي تدم الدنيا ولذلك يهتف القرآن: «فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ»<sup>٢</sup> الجدير بالذكر أن الدنيا الغرور في هذه الآية عدت في مصاف الشيطان المكار (لأن المراد من الغرور في هذه الآية هو الشيطان). أمّا أهل البصائر والمؤمنون الصالحاء والعقلاء الذين ينظرون ببصرهم الحاد إلى باطن الدنيا ويرون بأفقههم البعيد بدايتها ونهايتها وتتجسد لهم عاقبة الأسلاف وتاريخهم ويضعون مصير الفراعنة والعمالقة والأباطرة نصب أعينهم يسمعون بأذان أرواحهم رسائل الوعظ الدنيوي المشفق ويعتبرون بتلك الدروس؛ فيستبدلون الدنيا بجامعة لكسب المعارف الربانية ومتاجر للتزود وحمل المتاع ومعبد رائع للعروج إلى ساحة القرب الربوبي.

وزبدة الكلام فإن الدنيا حسب قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في إحدى الخطب: «مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَرَتَهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ»<sup>٣</sup>.

١. سورة الزخرف، الآيات ٣٣ - ٣٥.

٢. سورة فاطر، الآية ٥.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٨٢.

## القسم الرابع

إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسِكٍ أَهْلُهُ،  
وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبْدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَذْلِهِ وَقِسْطِهِ  
يَوْمَئِذٍ حَرْقٌ بَصْرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا هَمْسٌ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةٌ  
يَوْمَ ذَلِكَ دَاحِضَةٌ، وَعَلَائِقُ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ!  
فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَتَثَبَّتْ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا  
لَا تَبْقَى لَهُ، وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ؛ وَشِمُّ بَرَقِ النَّجَاةِ؛ وَازْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ.

## الشرح والتفسير

### الاستعداد لسفر الآخرة

أشار الإمام عليه السلام في آخر جانب من هذه الخطبة بالالتفات إلى الإشارة في العبارة السابقة إلى عالم الآخرة إلى محكمة العدل الربانية في عالم الآخرة فذكر بعض الأمور الدقيقة وقال: «إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ<sup>١</sup>، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا<sup>٢</sup> الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسِكٍ<sup>٣</sup> أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبْدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ<sup>٤</sup> فِي عَذْلِهِ

١. «راجفة» من مادة «رجف» على وزن «وقف» بمعنى الاضطراب والهزة الشديدة ولما كانت الأخبار التي تشير الفتنة مدعاة لاضطراب المجتمع لذلك يقال لها أراجيف. وتشير هذه المفردة في القرآن وهذه الخطبة إلى زلزلة الساعة.

٢. «جلائل» جمع «جليلة» كل صفة عظيمة وشديدة.

٣. «منسك» بمعنى العبادة وتعني الدين والمعبد وهذا هو المراد بها في العبارة.

٤. «لم يُجْزَ» طبق ماورد في المتن من مادة «جزأ» بمعنى الثواب؛ ولكن وردت في بعض النسخ «لم يُجْزَ» من مادة «جوز» مادة «جريان»؛ يعني لا يجري أدنى خلاف في عدالته وفي بعض النسخ الأخرى «لم يُجْزَ» من مادة «جور»

وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَزَقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا هَمْسٌ<sup>١</sup> قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ».

وكلام الإمام يؤكد على أمرين: الأول أن كل طائفة تلحق ذلك اليوم بإمامها ومعبودها ومطاعها وما كان في هذه الدنيا سيتجسم هناك قطعاً حتى ورد عن الإمام الرضا أنه قال: «فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَحَبَّ حَجْرًا لَحَشَرَهُ اللَّهُ مَعَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>٢</sup> ومن قبل صرّح القرآن قائلاً: «أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ \* مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ»<sup>٣</sup>.

والآخر: أن حساب الله ذلك اليوم على درجة من الدقة والعدل المطلق بحيث لا يغادر ذرة من ذنب أو خطوة من باطل على الأرض فالويل للآثمين والظلمة والمدنبيين!

طرح هنا بعض شراح «نهج البلاغة» سؤالاً: إن لحق ذلك اليوم كل عابد بمعبوده ومطيع بمن أطاع، فلا بد أن تلحق النصارى بالمسيح، والغلاة بأمير المؤمنين وعبدة الملائكة بهم، وفي ذلك سرورهم طبعاً؟

أجاب القرآن المجيد عن هذا السؤال فقال: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ \* قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا».

وقال إثر ذلك: «فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا»<sup>٤</sup>.

نعم! لعلهم يلحقون لولا أن تبرأ أئمتهم منهم؛ وعليه واستناداً لهذه البراءة فسوف

<sup>١</sup> إشارة إلى عدم جور الله في جزاء الأعمال وفي نسخ «لَمْ يَجْزُ» من مادة «جواز»؛ يعني لا يجوز أدنى خلاف في مقام عدالة الله.

١. «همس» بمعنى الصوت الخفي.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٠، ص ٣٩٣، ح ٥ من باب ٦٦ من أبواب المزار وورد هذا المضمون باختلاف طفيف عن النبي الأكرم ﷺ في كتاب «روضة الواعظين».

٣. سورة الصافات، الآيتان ٢٢ و ٢٣.

٤. سورة الفرقان، الآيات ١٧-١٩.

لن يلتقوا بهم قط.

ثم حذر أولئك الذين يبرّتون أنفسهم في هذه الدنيا بالأدلة الواهية والأعذار التافهة أنّ الأمر ليس كذلك في الآخرة فقال: «فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَلِكَ دَاحِضَةٌ<sup>١</sup>، وَعَلَائِقِي<sup>٢</sup> عُدْرٌ مُنْقَطِعَةٌ!».

إشارة إلى أنه يتضح ويظهر كل شيء في ذلك اليوم وليس هنالك من قيمة للأعذار الواهية في ظل تلك الأجواء.

قال القرآن المجيد بشأن المكذبين بآيات الله: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»<sup>٣</sup>.

ثم أشار في ختام الخطبة - بعنوان استنتاج عملي واضح - إلى سبيل الخلاص ضمن خمس عبارات موجزة وعميقة المعنى فقال: «فَتَحَرَّ<sup>٤</sup> مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُدْرُكَ، وَتَثَبَّتْ بِهِ حُجَّتُكَ».

وقال في السبيل الثاني: «وَاخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ».

المراد من «مَا يَبْقَى لَكَ» النعم الأبدية يوم القيامة أي الأعمال الصالحة، والمراد

من «مَا لَا تَبْقَى لَهُ» نعم الدنيا التي يتركها الإنسان ويمضي.

وقال في الثالث: «وَتَيَسَّرْ لِسَفْرِكَ».

والذي قال فيه الله: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»<sup>٥</sup>.

وقال في الرابع: «وَسِمٌّ<sup>٦</sup> بَرَقَ النَّجَاةِ».

١. «داحضة» من «الدخض» على وزن «محض» بمعنى خاطئة ويقال «حجة داحضة» للدليل الضعيف الذي لا أساس له.

٢. «علائق» جمع «علاقة» (بفتح العين) الروابط والتعلق ومعنى العبارة المذكورة أنّ الروابط مقطوعة يوم القيامة، وكذلك جمع «علاقة» (بكسر العين) الحبل والشماعة وأمثال ذلك فيكون معنى العبارة أنّ حبال الأعذار مقطوعة يوم القيامة.

٣. سورة المرسلات، الآية ٣٦.

٤. «تحرّ» من «التحري» البحث عن الأمر الأفضل.

٥. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

٦. «سيم» من مادة «سئيم» على وزن «دئيم» التطلع إلى الشيء.



وقال أخيراً: «وَأَزْخُلُ مَطَايَا التَّشْمِيرِ»<sup>١</sup>.

وخلاصة الكلام فإن الإمام أبان سبيل النجاة من مخالب أخطار الدنيا والآخرة في هذا السفر المنتظر وذكر المواعظ بشأن زاد السفر ومتاعه والالتفات إلى علائم الدليل ومن ثم إعداد أعذار التقصير وأسباب الزلل والخطأ، فمثل هذا المسافر لا يضل الهدف ولا يتوقف حين يبلغ: «بلى يا زُهري لَيْسَ مَا ظَنَنْتَ وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ وَلَهُ كُنْتَ أَسْتَعِدُّ وَإِنَّمَا الْأَسْتَعْدَادُ لِلْمَوْتِ تَجَنَّبُ الْحَرَامَ وَيَبْذُلُ النَّدَى وَالْخَيْرَ»<sup>٢</sup>.

❦❦❦

١. «مطايا» جمع «مطية» الدابة.

٢. «تشمير» من مادة «شمر» على وزن «تمر» تعني في الأصل رفع الكم والاستعداد لعمل ثم اطلق على مطلق الاستعداد والسعي.

٣. وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٧٩، ح ٥ من الباب ١٤، أبواب الصدقات.

## فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ كَمَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ

### يَتَّبِعُونَ مِنَ الظُّلْمِ

#### نظرة إلى الخطبة

قال بعض الشراح أنّ الإمام علياً عليه السلام قال هذا الكلام لما اعترض عليه بعض أصحابه قائلين: إنّ معاوية جمع الناس حوله بما يبذل لهم من بيت المال فلو فعلت لرضي الناس ولتوكلوك، فغضب الإمام وصرح بأنني ... هذا الكلام الذي يتألف في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذي استهله ببحث كلي جامع وقارع في البراءة من الظلم والجور وقال لست مستعداً لأدنى ظلم وجور وإغضاب الله وإسخاطه.  
وخاض في القسم الثاني في بيان أحد المصاديق الواضحة لذلك المطلب وبين فقر عقيل وما كان يطلب بغير حق من بيت المال وكيف أجابه بالحديدة المحمّاة.

#### ١. سند الخطبة:

رواها المرحوم الشيخ الصدوق في كتاب «الأمالي»، كما رواها بعد السيد الرضي، سبط ابن الجوزي في كتاب «التذكرة» عن ابن عباس عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، والزمخشري في «ربيع الأبرار»، وابن شهر آشوب في «المناقب»، ويستفاد من كلام الصدوق في «الأمالي»، أنّ ما أورده المرحوم السيد الرضي في هذه الخطبة بعض ما ورد في خطبة طويلة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٥٩).

وذكر في القسم الثالث مصداقاً حياً آخر عن براءته من الظلم والجور فتطرق إلى قصة الأشعث بن قيس المنافق والحلوى الملفوفة. واختتم الكلام بعبارات بليغة وفريدة في إعلان براءته من الظلم والجور وهضم حقوق الآخرين.

## القسم الأول

وَاللّٰهُ لَعِٰنُ أَبِئّ عَلٰى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّدًا، أَوْ أُجْرٌ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّدًا،  
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَغْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا  
لِشَيْءٍ مِنَ الْخَطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسِي يُسْرِعُ إِلَيَّ الْبَلَى قَوْلُهَا، وَيَطُولُ  
فِي النَّزْرِ حُلُولُهَا؟!

## الشرح والتفسير

### إرتكاب الظلم

كما أشير فإن بعض أصحاب الإمام عليه السلام قالوا للإمام: إنك عمد العدالة وتساوي بين الصغير والكبير إلا أن جماعة نقموا عدالتك بينما يصدق عليهم معاوية الأموال والهدايا حتى التحق به جماعة كثيرة فهلا قرّبتهم بالأموال. فأجابهم الإمام عليه السلام بكلام بعضه هذه الخطبة موضوع البحث<sup>١</sup>.

يستفاد من هذا الكلام مدى نقمة الإمام عليه السلام من هذا الانحراف الفكري الذي أصاب جماعة من خاصته، لذلك سعى لإزالة هذه الثقافة الجاهلية الفاشلة من أفكارهم التي يتبناها اليوم بعض الساسة المحترفين بايضاحات قاطعة وذكر الشواهد وأمثال ذلك ويستبدلها بثقافة القرآن والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي تنشد بسط العدل والقسط تجاه الجميع فقال: «وَاللّٰهُ لئنْ أَبِئّ عَلٰى حَسَكِ<sup>٢</sup> السَّعْدَانِ<sup>٣</sup> مُسَهَّدًا<sup>٤</sup>،

١. تمام نهج البلاغة، ص ٦٧٩، الطبعة الثانية.

٢. «حسك»؛ يعنى الشوك. كما يطلق على شوك الصحراء أو داخل بدن السمكة.

٣. «سعدان» نبات رعاة الإبل له شوك تشبه به حلمة الثدي.

٤. «مسهد» من «السهاد» على وزن «رقاد» بمعنى السهر و«مسهد» من لا ينام الليل.

أَوْ أَجَرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّدًا<sup>١</sup>، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَغْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لَشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ<sup>٢</sup>».

أسوأ العذاب بالنسبة للإنسان أن ينام على أشواك السعدان (الأشواك الثلاثية أطرافه على الأرض وطرفه الحاد إلى الأعلى) ويقيدون يده ورجله في النهار ويجر في السوق والشارع.

وقد أقسم الإمام عليه السلام بالله بكلّ حزم فقال: تحمل هذا العذاب أهون عليّ من أن ألقى الله وأنا ظالم لبعض العباد وغاصب لشيء من حطام هذه الدنيا الزائلة فذلك العذاب ابدي وعذاب هذه الدنيا عابر مهما كان، فكيف تتوقعون أن أسلك طريق معاوية الذي لا يقيم وزناً لحساب الآخرة. فأترك الشريعة وألجأ إلى الشرك والجاهلية.

ثم قال عليه السلام: «وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسِي يُسْرِعُ إِلَيَّ الْبَلَى قَوْلُهَا<sup>٣</sup>، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى<sup>٤</sup> حُلُولُهَا؟!».

إشارة إلى أنّ أي عقل لا يقبل بهذا المنطق في أن يضحى الإنسان بالسعادة الأبدية من أجل السعادة العاجلة وأولئك الذين لهم هذه الممارسات كمعاوية وبطائنه على خطأ عظيم.

وهكذا يريق الإمام عليه السلام الماء الطاهر في يد من اقترح عليه الظلم واعتقد بأنّ الغاية تبرر الوسيلة فقد يئس أولئك الذين يظنون أنهم قادرون على تغيير نهجه العادل الشاق للغاية.

لا ينبغي أن ننسى أنّ عهد خلافة الإمام الظاهرية وبمنتهى الأسف، إنّما ابتدأت

١. «مصفّد» من مادة «صفد» على وزن «صيد» المقيد و«صفاد» على وزن «عناد» تقال للحبل والقيد.

٢. «حطام» من مادة «حطم» على وزن «حتم» بمعنى الكسر ويقال لمتاع الدنيا «حطام».

٣. «قفل» مصدر بمعنى الرجوع والعودة ومفهوم العبارة كما ورد سابقاً طبق هذا المعنى، ولكن احتمال البعض

أنّ «قفل» جمع «قفل» ومعنى العبارة كيف أظلم شخصاً تتأكل بسرعة أقفال ووشائج بدنه.

٤. «الثرى» التراب.

حين اعتاد المسلمون بكرم عثمان على طريقة حاتم الطائي من بيت المال والتميز  
البغيض والذي أدى بالتالي إلى الخروج عليه وسار معاوية على نهجه، غير أنّ  
الإمام عليه السلام كان يسعى لإعادة الأمة إلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.  
ورغم عدم تحقيق هذا المشروع، النتيجة التامة؛ لكنّه انطوى على فائدة مهمّة  
حفظت الرسالة الإسلاميّة الأصيلة وفضحت المنحرفين.



## القسم الثاني

وَاللّٰهُ لَقَدْ رَأَيْتُمْ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرْكَكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُمْ صَبِيَّانَهُ شُعْتَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُودَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُوَكِّدًا، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا، فَأَضْعَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَذْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيحَ ذِي دَنْفٍ مِنَ الْأَمِّهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَيْسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلِّتْكَ النَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَيْنُ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلْعَبِيهِ، وَتَجْرُنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِعُضْبِهِ! أَتَيْنُ مِنَ الْأَدَى وَلَا أَتِنُ مِنْ لَظَى؟!

## الشرح والتفسير

### قصة الحديدية المحمّاة

كان للإمام عليه السلام في القسم السابق بحث كلي بشأن اجتناب الظلم والجور التي تشير إلى ذروة السلامة من الظلم والجور، وقد ركز هنا على مصداقين واضحين كشاهدي صدق على ما ذكر. فبيّن أولاً قصة عقيل والحديدية المحمّاة فشرح نموذجاً من عدله الذي ليس له مثيل ربّما في تاريخ العالم فقال: «وَاللّٰهُ لَقَدْ رَأَيْتُمْ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ ١ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي ٢ مِنْ بُرْكَكُمْ ٣ صَاعاً».

١. «أملق» من «الإملاق» بمعنى الفقر ومادته الأصلية «مَلَق» على وزن «شفق» النعومة ويقال الفرد المتملق كونه يتخذ حالة الذلة والنعومة واستعملت بحق الفقير لهذه الحالة.

٢. «استماحني» من «الاستماحة» الاستعطاء.

٣. «البرّة» القمح.

٤. «صاع» أحد الأوزان وهو أربعة امداد وكل مد أقل من نصف كيلو، سبعمائة وخمسون غراماً تقريباً.



ظاهراً، مراد عقيل «صاع» كحصة يومية منظمة لتؤمن بصورة كاملة هذه المادة الغذائية وإلا لو كان صاعاً ليوم فإنه لا يحل مشكلته وليس له قيمة أن يأتي عقيل من ذلك البعد لأخيه.

كما تجدر الإشارة إلى أن عقيلاً طلب طلباً آخر بأداء دين ثقيل عليه لكن الإمام اقتصر على الإشارة إلى الطلب الأول. ثم قال: «وَرَأَيْتُ صَيِّبَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعِظْمِ<sup>٣</sup>».

وأضاف عليه: «وَعَاوَدَنِي مُرَّ كَدًّا، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا، فَأَصْغَيْتُ<sup>٤</sup> إِلَيْهِ سَنَعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبَعُ قِيَادَهُ مُفَارِقًا طَرِيقَتِي».

شرح الإمام عليه السلام هنا جميع العوامل التي يراها أهل الدنيا تقتضي التمييز بالنسبة لأخيه.

فمن جانب لم يطلب كثيراً.

ومن جانب آخر كان أولاده فقراء ومعدمين.

وأخيراً كان يكثر من تكرار طلبه.

ولكن مع كل ذلك كان على الإمام أن يميز بين عقيل والآخرين من المحتاجين ويعطي لأخيه من بيت المال العائد لعامة المسلمين ويضفي عليه ميزة خاصة.

قطعاً هذا العمل لا ينسجم مع العدالة الإسلامية وسمو روح الإمام عليه السلام، لذلك وبغية كف عقيل عن التكرار ليقنع بحقه من بيت المال عامله بما يشبه له عملياً عاقبة الظلم فقال: «فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَذْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيُغْتَبَرَ بِهَا».

عقيل ظاهراً كان مكفوفاً آنذاك ومدّ يده عله يحصل على درهم أو دينار ولم يكن يعلم ما الذي ينتظره فلما شعر بالحرارة تقترب من يده: «فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي

١. «شُعْث» جمع «شعث» المجعد الشعر.

٢. «غُبْر» جمع «أغبر» من غلاه الغبار.

٣. «عِظْم» نبت يصبغ به ما يراد إسوداده.

٤. «أَصْغَيْتُ» من «الإصغاء» السمع.

دَنَفٌ<sup>١</sup> مِنْ أَلْمِيهَا، وَكَادَ أَنْ يَخْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا<sup>٢</sup>».

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه: «فَقُلْتُ لَهُ: تَكَلَّتْكَ الثَّوَاكِلُ<sup>٣</sup>، يَا عَقِيلُ! أَتَتْنُ مِنْ حَدِيدَةٍ أَخَمَّهَا إِنْسَانُهَا<sup>٤</sup> لِلْعَبِيهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَا سَجْرَهَا<sup>٥</sup> جَبَّارُهَا لِعَضْبِهِ! أَتَتْنُ<sup>٦</sup> مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتْنُ مِنْ لَظْيٍ؟!<sup>٧</sup>».

«ثواكل» جمع «ثاكلة» الأم التي مات ولدها وإن اطلق على كل أم في عزاء. التعبير باللعب إشارة إلى أن نار الدنيا مهما كانت محرقة إلا أنها ليست أكثر من لعبة إزاء نار الآخرة فالنار الحقيقية هناك، لذلك عبر الإمام عليه السلام عن الأولى بـ «أذى» والثانية «لظى».

يستفاد ضمناً من تعبيرات الإمام عليه السلام خلافاً لما يظنه بعض الجهال، فإن الإمام عليه السلام لم يضع قط حديدة محماة في يد عقيل، بل قربها من يده وحيث كان أعمى خاف وصرخ.

انتشرت هذه القصة في جميع الأوساط حتى وصلت إلى معاوية حسب بعض الروايات فأيقظت العديد من الغافلين وأفادت نهاية الكرم العثماني من بيت المال على القرابة والأفراد المقربين. فإذا كانت هذه معاملة الإمام لأخيه إزاء طلب صغير على خلاف العدالة فما بال الآخرين، فما عليهم سوى عدم التفكير بأي امتياز. وتطلق هذه المفردة أحياناً على جهنم كما ورد في الآية ١٥ من سورة المعارج: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظْيٌ﴾.

بعبارة أخرى أن ذلك لم يكن درساً لعقيل فحسب، بل لعامة الناس في العالم

١. «دنف» السقم الشديد.

٢. «ميسم» اسم آلة من مادة «وسم» الحرارة الشديدة؛ ولكن يبدو أنها وردت هنا بصيغة المصدر بمعنى الحرارة.

٣. «ثواكل»، جمع «ثاكلة» الأم في عزاء ابنها وتستعمل أحياناً المرأة المعزاة.

٤. «إنسانها» هنا بمعنى: صاحبها.

٥. «سجرتها» من «السجور» تعني في الأصل اشمال نار التنور ثم اطلقت على كل اشمال.

٦. «تتن» من مادة «تن» الأنين والتألم.

٧. «لظى» شعلة النار الخالصة والتي تكون شديدة الحرارة.

الإسلامي فأفاد مساواة الجميع أمام العدالة، وليس لأحد طلب المزيد وإن كان أقرب المقرّبين إلى رئيس الدولة. الطريف ما ورد في ذيل بعض الروايات أنّ عقيلاً قال للإمام عليه السلام إذا كان الأمر كذلك فسأذهب إلى من يكثر من البذل والعطاء. ومراده (معاوية) فردّ عليه عليه السلام: «راشداً مهدياً»<sup>١</sup>.

ولترك الكلام لعقيل يتحدّث عن قصة الحديده المحمّاة: ثم تلا الآية: ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾<sup>٢</sup>.

فقال معاوية: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ عَقِمَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَهُ»<sup>٣</sup>.

وقد روى المرحوم العلامة المجلسي في «بحار الأنوار» قصة مكملة لما سبق<sup>٤</sup>. على كلّ حال تشير القرائن إلى أنّ هدف الإمام عليه السلام لم يكن مجرد بيان قضية شخصية وتحذير عقيل، بل كان الهدف انتشار هذه القضية في كلّ مكان وكان كذلك وأن يفكر أصحاب الامتيازات أنّ تكليفهم أصبح واضحاً بعد أن تصرف الإمام مع عقيل بهذه الطريقة فلا يفكرون قط في تلك الامتيازات، وبعبارة أخرى كان الهدف وضع حد لثقافة عهد عثمان في بيت المال وإعادة ثقافة العهد النبوي.

## تأملان

### ١. نظرة إلى شخصية عقيل

هو عقيل بن أبي طالب وأخو أمير المؤمنين علي عليه السلام لأمه وأبيه وكان بنو أبي طالب أربعة وهو أسن من الإمام بعشرين سنة ويكنى أبا يزيد. وكان أبو طالب يحبّه كثيراً فلذلك قال له النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «يا أبا يزيد إني أحبّك حُبِّين؛ حُبّاً لِقْرَابَتِكَ مِنِّي وَحُبّاً لِمَا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمِّي إِيَّاكَ».

١. شرح نهج البلاغة للمرحوم مغنية، ج ٣، ص ٣١٦.

٢. سورة غافر، الآية ٧١.

٣. شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٢٥٣.

٤. بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١١٣ و ١١٤ (روى المرحوم العلامة المجلسي هذا الحديث عن ابن شهر آشوب).

وورد في بعض الروايات أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «إِنَّ وَدَّهَ لَمَقْتُولٌ فِي مَحَبَّةِ وَدِّكَ فَتَدْمَعُ عَلَيْهِ عِيُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَتُصَلِّي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ بَكَى حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُ عَلَى صَدْرِهِ».

شهد عقيل كعمه العباس بن عبدالمطلب معركة بدر الكبرى مع المشركين مجبراً فأسر وعاد إلى مكة بفدية وأسلم بعد صلح الحديبية وهاجر ووصل إلى النبي الأكرم ﷺ.

## ٢. التسوية بين المسلمين في بيت المال

لا شك في أن لبيت المال مصادر مختلفة؛ وأحد تلك المصادر، الزكاة، ونعلم أن المساواة ليست شرطاً في الزكاة، بل تصرف الزكاة على أساس الحاجة كما لا ضرورة لأن ننتظر محتاجاً آخر بحضور محتاج معين، بل لنا أن نعطي المحتاج الحاضر بما فيه الكفاية.

المصدر الآخر: الخمس الذي كان يؤخذ في صدر الإسلام غالباً من غنائم الحرب، والخمس بيد الحاكم الإسلامي ليصل المحتاجين حسبما ورد في الفقه والروايات ولا يشترط فيه المساواة أيضاً.

الثالث: الغنائم الحربية التي توزع على المقاتلين بالسوية؛ لكن للمشاة سهم وللفرسان سهمان حيث كانوا آنذاك هم الذين يشترون الفرس، طبعاً كان النبي الأكرم ﷺ أحياناً يستجيز أصحابه في دفع شيء من الغنائم إلى أفراد معينين لجلبهم إلى الإسلام.

المصدر الرابع والخامس والسادس، المداخل الخيرية وخمس غير الغنائم والأنفال التي لا يشترط في توزيعها المساواة أيضاً، ولا مجال لشرحها هنا. المصدر السابع الذي كان أهم من الكل آنذاك والذي يشكل عمدة بيت المال

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٢٥٠؛ شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٥٢٣.

وهو دخل أراضي الخراج؛ أي مبالغ الاستئجار أو خراج الأراضي للمناطق المفتوحة والتي توضع في خزانة الدولة الإسلامية، فتلك الأراضي ملك لعامة المسلمين وليس الجيل القائم آنذاك، بل جميع الأجيال، وبالطبع فإن دخلها يعود إلى الجميع. بالضبط كالملك المشاع الذي يتساوى فيه الجميع، ومن الطبيعي أن ليس للدولة الإسلامية أن تميز بين المسلمين في هذا الدخل. وإن لم يلتزم اغلب الخلفاء بهذا الحكم وبل يتصرفون في تلك الاموال حسب ما يشاؤون.

وماورد في قصة عقيل في هذه الخطبة يتعلق بهذا الأمر الذي يشكل أهم قسم في بيت المال ولعل عقيلاً أعتقد أن تلك الاموال بيد الحاكم الإسلامي يتصرف بها كما يشاء ولاسيما أنه شاهد ما كان يفعله الخليفة الثالث بتلك الاموال.

## القسم الثالث

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا،  
كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَّةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ  
مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلِكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبْلَتُكَ  
الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمْحَتَبِطُ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟  
وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاحِهَا، عَلَى أَنْ أُغْصِي اللَّهَ فِي  
نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنْ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لِأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي  
فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضِيهَا. مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ  
سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلْلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

## الشرح والتفسير

### قصة المنافق الأشعث بن قيس

بين الإمام عليه السلام في القسم السابق كما رأينا القصة التاريخية لأخيه عقيل والحديدة  
المحماة لبياس أصحاب الامتيازات الطامعين في بيت المال، القصة التي تتجلى فيها  
ثقافة العدالة الإسلامية وتقديم الضابطة على الرابطة، ثم أشار هنا إلى مصداق آخر  
من هذا القبيل فذكر قضية المنافق الأشعث بن قيس وقال: «وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ  
طَارِقٌ<sup>١</sup> طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا<sup>٢</sup>، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ  
أَوْ قَيْئِهَا».

١. «طارق» من «الطروق» و«طرق» بمعنى الدق ويقال الطارق لمن يذهب ليلاً إلى آخر حيث الباب مغلق عادة ولا بد أن يدقه ليدخل.

٢. «شئنت» من «الشئنان» على وزن «غثيان» البغض والكراهية و«شئنت» كرهت.

المعروف أنّ ذلك الطارق كان الأشعث بن قيس رأس النفاق في الكوفة شبيه  
عبدالله بن أبي رأس النفاق على عهد النبي الأكرم ﷺ في المدينة.  
أما قول الإمام عليه السلام: «مَلْفُوفَةٌ فِي وَعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٌ سَنِيَّتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيْقِ  
حَيَّةٍ أَوْ قَيْنِهَا» حيث كان هدف الأشعث أن يستعطف قلب الإمام لتحقيق غرض  
دنيوي. (يقال أحياناً إنه تنازع مع أحد المسلمين باطلاً على مياه وملك، ورفع الأمر  
إلى علي عليه السلام، لعل هذا الرجل الأعمى البصيرة أراد من خلال ذلك أن يستميل الإمام  
ويشتري رأيه؛ ولكن الإمام عليه السلام رأى بعينه الملكوتية باطن تلك الحلوى الذي كان  
كسم الحية، لأنها كانت بمثابة رشوة).

المفردة «مَلْفُوفَةٌ» رغم أنها من مادة «لَفَّ» لتشير هنا إلى طرف القماش الذي  
يلف به؛ ولكن حيث قال الإمام عليه السلام كانت تلك الملفوفة في وعاء وعطف عليها  
مفردة معجونة فيحتمل أن تكون الملفوفة نوعاً من الحلوى التي كانت معروفة  
ومرغوبة في الكوفة<sup>١</sup>.

احتمل بعض شراح نهج البلاغة أنّ المفردة «قيء» بمعنى سمّ الحية لاقيتها، لأنها  
تطرحة من فمها كقيتها وهذا ما يقتضيه المقام والشائع لدينا في الاستعمال بشأن  
الطعام. «فَقُلْتُ: أَصِلَّةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا  
وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ».

طبعاً الزكاة محرمة على جميع بني هاشم والصدقة التي تشير إلى الإنفاق  
المستحب وهي ليست حرام حسب المشهور ولعل حرمتها كانت مختصة بأهل  
البيت عليهم السلام، واحتمل البعض أنها إشارة إلى الكفارات والصدقات الواجبة غير الزكاة،  
هذا أيضاً حرام على بني هاشم.

أما «صلة» فربما تعني الرشوة التي يعبر عنها في مباحث رشوة القاضي بـ «صِلَّة»

١. أشار الشيخ محمد عبدة إلى هذا المعنى في شرحه لنهج البلاغة (ج ٢، ص ٢١٨) وقال: كانت الملفوفة نوعاً  
من الحلواء أهداها إليه الأشعث بن قيس.

القضاة» ومن هنا يقال لها «صلة» التي يجعلها الراشي وسيلة للوصول إلى هدفه غير المشروع.

وقيل «صلة» تعني «هدية» أو جائزة ومنه في جائزة الشاعر، يقال «صلة شاعر» وعليه فالعبارة: «لَا ذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ» إشارة إلى نفى الزكاة والصدقة وإثبات كونها هدية.

كما احتمال أن تكون العبارة «لا ذا ولا ذاك» نفي للجميع؛ أي ليست رشوة ولا زكاة ولا صدقة، بل هدية.

ثم وجه الإمام عليه السلام أشد ضربات التوبيخ والتقريع للمنافق الأشعث بن قيس، وقال: «فَقُلْتُ: هَبْلَتِكَ الْهَبُولُ! أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟».

إشارة إلى أنك كأغلب الشياطين تلبس طلبتك المنكرة لباس الشرعية لتحقق غرضك فتسمي الرشوة هدية وتظن أنك تغرّ بهذا الظاهر من ترى عينه أعماق الوجود. ثم قال: «أَمْخَبِطُ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟».

إشارة إلى أن عاقلاً لا يتصور أن أحداً يمكنه خداع شخص كعلي عليه السلام بهدية تفوح من باطنها رائحة الرشوة فإن جرب ذلك أحدهم فهو مجنون أو مختبط في عقله لمرض.

«مختبط» من مادة «خبط» بمعنى فقدان التوازن ويستعمل تارة في التوازن الظاهري وأخرى في التوازن الفكري، والمعنى الثاني هو المراد هنا والعبارة «ذُو جِنَّةٍ» إما إشارة إلى وساوس الشيطان التي تعدّ من الجنون ويختل إثرها عقل الإنسان، أو إشارة إلى المعروف بين الناس حيث البعض ممن أصابه الجن.

المفردة «تَهْجُرُ» من مادة «هَجُرَ» هذيان القول، وعليه فالفرق واضح بين هذه المفردات الثلاث؛ فالمختبط المختل العقل الذي يفقد توازنه العقلي، وذو جنّة، الذي يعاني من نوع من الجنون لعامل باطني، وتهجر تقال للمجنون ذاتاً ويصاب بالهذيان

١. «هبول» صفة مشبهة، المرأة لا يبقى لها ولد فهي كثيرة البكاء.



اثر شدة المرض.

طبعاً حين تكون هذه المفردات مع بعضها تفيد المعنى المذكور بينما إن أتت كل مفردة لوحدها أفادت معانٍ أخرى.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضية بمنتهى الأهمية بشأن عدالته لعلها لم تسمع من غيره طيلة التاريخ ليفهمه مدى الخطأ الذي إرتكبه ولم يعرفه وهي تحذير إلى جميع الزعامات وحكّام المجتمعات الإنسانية فقال: «وَاللّٰهُ لَوِ أَعْطَيْتُ الْأَقَالِيْمَ السَّبْعَةَ<sup>١</sup> بِمَا تَحْتَ أَفْلَاحِهَا، عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ<sup>٢</sup> شَعِيرَةٍ مَّا فَعَلْتُهُ».

ثم تطرق عليه السلام إلى دليل ذلك فقال: «وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لِأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا<sup>٣</sup>».

وأكد عليه السلام ذلك بالقول: «مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى!».

حيث صرح الإمام عليه السلام في هذه العبارات الصريحة والبليغة، لو أعطيت أعظم الرشاوى المتصورة في العالم بما فيها ما على الأرض والقصور والثروات والأموال، لأمارس أدنى ظلم وهو سلب غطاء حبة شعير (لا حبة شعير) من فم نملة والتي تبدو أصغر المخلوقات، لما فعلت.

ما أكثر الأفراد الذين تستميلهم المبالغ البسيطة والمتوسطة في الرشوة أما إذا كان امتيازاً هاماً يعادل جميع حياته فذلك ما يهزه من الأعماق.

وهل هنالك من يسعه الزعم أنه لن يمارس أدنى خلاف ولو أعطي أعظم امتياز

١. الأقاليم السبعة، «أقاليم» جمع «إقليم» جزء من العالم أو البلد وقد قسم قدماء الجغرافيين العالم إلى سبعة أقاليم ولم تكن حدود تلك الأقاليم محددة لعدم وجود الخرائط الجغرافية الدقيقة عن العالم. على كل حال الأقاليم هي: الإقليم الأول، الهند. الثاني، بعض البلدان العربية والحبشة، الثالث، مصر والشام، الرابع، إيران. الخامس، الروم. السادس، الترك، السابع، الصين. (قاموس دهخدا، مادة إقليم). لعل هنالك تقسيماً آخر للجغرافيين وعلى كل حال مراد الإمام عليه السلام لو أعطيت كل مناطق الكرة الأرضية.

٢. «جلب» الغطاء الذي يحيط بحبة القمح أو الشعير كما يطلق «جلب» على ما يغطي به الجرح بعد أن يبرأ.

٣. «تقضمها» من مادة «قضم» على وزن «هضم» بمعنى العض والمضغ.

ولا يهتز لذلك؟ الإمام يقول أنا ذلك الشخص ويقسم عليه صراحة.  
ويمكن توجيه الدليل الذي ذكره الإمام عليه السلام على هذا الأمر، فالامتيازات المادية إنما تحظى بأهمية من الدنيا كبيرة وعظيمة لديه أمّا من كان في قمة معرفة الله وكل ما سواه لا شيء بالنسبة له والدنيا عنده كورقة نبات في فم جرادة، فليس هنالك من داعٍ لأن يعصي الله ويرتكب الظلم.

فالإمام عليه السلام كان ينظر إلى باطن الدنيا ببصيرته؛ حيث كان يرى كلّ تلك الملذات والنعم المادية آيلة إلى الفناء والزوال وليس هنالك ما يستحق التعلق به أو يفكر بالتعلق به.

ومن هنا إن أردنا أن نقطع دابر الرشوة والظلم والجور والتعدي على حقوق الآخرين لا بدّ أن نجتهد من أجل رفع مستوى معرفة الإنسان بالله والدنيا.

يفهم ضمناً من هذه العبارات بالدلالة الالتزامية أنّ الظلم والجور والحكم بغير الحق لمن أسوأ المعاصي لا ينبغي إرتكابها حتى لو حصل على الدنيا برمتها.

ثم اختتم الإمام عليه السلام بعبارة موجزة وموقظة في الواقع ناظرة لكل مضمون الخطبة فقال: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتٍ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِهِ نَسْتَعِينُ».

إشارة إلى أنّ العقل إن كان يقظاً واقترن بلطف الله لما قارف الإنسان الكبيرة وقلماً يرتكب الصغيرة.

ونختتم هذا الكلام بنقل روایتين: قال الحافظ أبو نعيم الاصفهاني أحد علماء العامة في كتابه المشهور «حلية الأولياء»: «إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام:

«يا عليّ! إنّ الله قد زينك بزينة لم يُزَيّن العباد بزينة أحبّ إلى الله منها هي زينة الأبرار عند الله تعالى والزهد في الدنيا فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ولا ترزأ منك

١. «سبات» من مادة «سبت» على وزن «وقت»، التعطيل لأجل الاستراحة؛ ويطلق «سبات» على التوقف عن العمل وهذا هو المراد بها في العبارة وتسمية السبت لدى العرب كون هذه التسمية في الأصل جاءت من اليهود لأنهم يعطلون أعمالهم في يوم السبت.

الدُّنْيَا شَيْئًا»<sup>١</sup>.

وورد في رواية أخرى أَنَّ امرأة شجاعة من شيعة علي عليه السلام تدعى «دارميّة الحجوتيّة» أحضرت عند معاوية فسألها:

هل رأيت علياً؟

قالت: أي والله رأيت.

قال: كيف رأيتيه؟

قالت: «رَأَيْتُهُ لَمْ يَفْتِنَهُ الْمُلْكُ الَّذِي فَتَنَكَ وَلَمْ تَشْغَلْهُ النُّعْمَةُ الَّتِي شَغَلَتْكَ»<sup>٢</sup>.

## تأمل

من هو الأشعث بن قيس؟

ذكرنا في الجزء الأول عند تفسير الخطبة التاسعة عشرة أنّ «الأشعث» كان من المنافقين ثمّ أسلم ظاهراً على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ثم إرتدّ بعد وفاته وأسر فندم عند أبي بكر فعفا عنه، ووقف إلى جانب أعداء أمير المؤمنين علي عليه السلام مثل عمرو بن العاص، لبثّ الفرقة والنفاق في صفوف أصحاب الإمام ليكون مصدراً لكثير من المفاسد والاضطرابات، وكان صاحب نفوذ في قبيلته فكان يستعين بهم لتحقيق مآربه، حتى قال بعض المحققين: إنّ أغلب مشاكل عصر خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام كانت من هذا المنافق اللدود.

للمزيد يراجع الجزء الأول صفحة ٦٤٤ فصاعداً.

١. شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئي، ج ١٤، ص ٢٩٧، الطبعة القديمة.

٢. كتاب بلاغات النساء، ص ١٠٦ طبق نقل شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ٦، ص ٥٤١.

## وَمِنْ دَعَائِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يَلْتَجِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يُغْنِيَهُ

### نظرة إلى الخطبة (الدعاء)

الهدف الأصلي للإمام عليه السلام في هذا الدعاء كما يتضح من العنوان، طلب الغنى وعدم الحاجة إلى غيره، فالحاجة إلى الآخرين مدعاة أحياناً لمدح الآخرين، بينما لا يستحقون ذلك المدح، أو ذم المانعين ولعلمهم لا يستحقون ذلك الذم، والأسوأ من ذلك مد اليد إلى شرار الخلق، فالدعاء في الواقع تعليم لجميع الناس ولا سيما الأتباع، وإلا فالإمام عليه السلام أسمى مقاماً من أن يتجه صوب الأشرار أو يمدحهم.

﴿﴾

١. سند الخطبة (الدعاء):

روى هذا الدعاء باضافات الراوندي في كتاب «الدعوات» وجاء بعد قوله: «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تُنَزِّعُهَا مِنِّي كَرَامِي وَأَوَّلَ وَدِيعةٍ تُزَجِّعُهَا مِنِّي وَدَائِعِ نَعْمِكَ» وتشير هذه الإضافة إلى أن الراوندي اقتبس الدعاء من مصدر آخر غير نهج البلاغة. كما ذكره باختلاف صاحب كتاب «الطراز» (السيد اليماني) وهذا يدل على أنه أخذه من مصدر آخر. وضمنه الإمام السجاد عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق باختلاف طفيف يدل على أنه كان معروفاً عند أهل البيت (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٦٠).



اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ، فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي  
رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَنَّ بِذَمِّ مَنْ  
مَنْعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَوَلِيُّ الْأَعْطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

## الشرح والتفسير

### الغنى عن شرار الخلق!

ذكر الإمام عليه السلام في هذا الدعاء القصير مطالب عميقة ضمن ثمان عبارات فهو دعاء ودرس في الأخلاق، فبين في البداية أصل الدعاء بعبارتين فقال: «اللَّهُمَّ صُنْ<sup>١</sup> وَجْهِي<sup>٢</sup> بِالْيَسَارِ<sup>٣</sup>، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي<sup>٤</sup> بِالْإِقْتَارِ<sup>٥</sup>».

ليس المراد من «اليسار» الغنى بالمعنى السائد في العرف، بل المراد الغنى عن الآخرين المقترن بالكفاف والعفاف، وإلا فالغنى بالمعنى المذكور يؤدي أحياناً إلى إراقة ماء الوجه، وهناك تفسيران للعبارة «وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ» بالنظر إلى أن «ولا تبذل» من مادة «بذل» و«بذل» له معنيان: أحدهما العطاء والفقدان، والآخر القدم والضياع: التفسير الأول اللهم لا تتوفاني على الفقر، والآخر لا تبذل شخصيتي بالفقر.

١. «صن» من «الصيانة».

٢. «وجه» تعني هنا الكرامة وإن كان معناها الأصلي هو الوجه.

٣. «اليسار» من «اليسر» السهولة والفتور وهو المعنى المراد في العبارة.

٤. «جاه» القدر والمقام والشرف.

٥. «اقتار» من «الفتور» على وزن «فتور» المشقة في الإنفاق.

ثم خاض في أربع عبارات في آثار الفقر والحاجة إلى الآخرين فقال: «فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلَى بِحَمْدٍ مِّنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَنَّ بِذَمِّ مَن مَّنَعَنِي».

وقال عليه السلام في الختام: «وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْأَعْطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات الموجزة في أربعة آثار سيئة للفقر التي تتم في مرحلتين فقال أولاً: أدنى ما يترتب على ذلك أن أمد يد الحاجة إلى المحتاجين إليك والأسوأ من ذلك أن تقضى الحاجة من قبل السيئين، وحقاً أليمة للغاية هي الحياة في ظلّ تلك الشرائط بالنسبة للأفراد المؤمنين ذوي الشخصية.

في المرحلة الثانية: أي بعد الطلب فإن أجاب الطرف المقابل اضطر الإنسان إلى مدحه وإن تحفظ عن الاجابة انطلق لساني بذمه ولعل لديه حاجاته الكبيرة، ولكن حيث «صاحبُ الحاجة لا يرى إلا حاجته»<sup>١</sup>، فبمجرد أنه لم يستجب لي اتهمته بالبخل، والحال ما أحراني أن أتجه إلى الله فهو ولي المنع والعطاء وهو القادر على كل شيء!

من البديهي أنّ روح الإمام عليه السلام السامية لا تقبل هذه الأمور قط وإن أصابته الحاجة، فالإمام يريد بيان الآثار الطبيعية للفقر والتي تبدو على أغلب الناس ليجدوا ويواجهوا الفقر ولا يمدوا أيديهم إلى الآخرين أبداً.

## تأمل

### الآثار السيئة للفقر

رغم ما ورد في عدّة روايات في مدح الفقر، كحديث النبي الأكرم عليه السلام: «الْفَقْرُ

١. وردت هذه العبارة في الروايات وتطلق بصيغة مثل معروف بتعبيرات مختلفة، مثل «صاحبُ الحاجة لا يزوم إلا قضاءها، أو صاحبُ الحاجة أرعن لا يريد إلا قضاءها، أو صاحبُ الحاجة أغمى ولو كان بصيراً». (كشف الخفاء،

العجلوني، ج ٢، ص ١٨).

فَخُرِّيَ وَبِهِ أَفْتَحِرُ». ورواية الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى عليه السلام: «إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلًا فَقُلْ مَرْحَبًا بِشِعَارِ الصَّالِحِينَ وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلًا فَقُلْ: ذَنْبٌ عَجَّلَتْ عُقُوبَتُهُ»<sup>١</sup>. وسائر الروايات، ولكن من الواضح أنّ الفقر بمعنى العوز ولاسيما الذي يحصل بفعل الكسل والتقصير وضعف الإدارة فانه ليس مدعاة للفخر ولا شعار الصالحين، بل مدعاة للذل والهوان والتلوث بأنواع المعاصي.

المدعاة إلى الفخر، الفقر إلى الله، فالكل محتاج إلى الله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»<sup>٢</sup> والذي يشبهه ما ورد في حديث أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كَفَى بِي عِزًّا أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا وَكَفَى بِي فَخْرًا أَنْ تَكُونَ لِي رَبًّا»<sup>٣</sup>.

أو أنّ المراد بالفقر، الحياة البسيطة الخالية من التكلف والتعقيد إزاء الثراء الذي يؤدي إلى السكر والغرور والتناول.

والعبارة «شعار الصالحين» عن الفقر، والتعبير بـ «العقاب المعجل» عن الغنى، شهادة واضحة على هذا المعنى، لأنّ شعار الصالحين قطعاً ما يوجب الصلاح والفلاح؛ كالزهد وبساطة العيش وعقوبة المعصية ترتبط بالأمر الملوّث بالذنب.

كما يحتمل أن تكون بعض الروايات التي أثنت على الفقر تشير إلى الفقر المفروض الذي يطال الإنسان إثر القيام بالوظيفة، مثلاً، في بداية الدعوة النبوية اضطر العديد من المسلمين إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ولم يتمكنوا من حمل ممتلكاتهم معهم فعانوا هناك من فقر شديد أو المسلمون الذين حاصروهم خصوم الدعوة اقتصادياً فأصبحوا فقراء، الفقر الذي أصابهم بسبب الإيمان بالله وطاعة أوامره وكان النبي صلى الله عليه وآله يواسيهم ويبين لهم أنّ الفقر مدعاة للفخر وشعار الصالحين.

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٦٣، ح ١٢ من باب فضل فقراء المسلمين.

٢. سورة فاطر، الآية ١٥.

٣. الخصال، ج ٢، ص ٤٢٠، ح ١٤.



كما عانى خواص أهل البيت عليهم السلام في العصور اللاحقة بمضمون المثل المعروف «الْبَلَاءُ لِلْوَلَاءِ» من هذا الفقر المفروض واستمر ذلك حتى عصرنا الحاضر، وهذا الفقر ليس بعيداً عن العيب فحسب، بل هو فخر، والعيب أن يتخلى الإنسان عن الوظيفة من أجل الدنيا والاستسلام للعدو.

وإلى ذلك أشار الحديث الشريف «مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيُعِدِّ لِلْفَقْرِ جَلْبَاباً»<sup>١</sup>.  
وعليه فالفقر الحاصل من الكسل والهروب من العمل أو سوء الإدارة ليس مطلوباً للإنسان قط.

ويشير كلام الإمام عليه السلام في هذا الدعاء إلى أن سلسلة من الرذائل الأخلاقية التي يفرزها الفقر بمعنى العوز والحاجة، فالتواضع للأشرار ومدح وذم من لا يستحق، لمن تلك الرذائل الأخلاقية التي تنشأ من الفقر بمعنى العوز.

الجملة «لا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ» دليل على أن الفقر الفردي يزيل ماء وجه الإنسان، والفقر الاجتماعي يزيل ماء وجه المجتمع وهذا ما لا ينسجم أبداً والعزة الناشئة من الإيمان: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ»<sup>٢</sup>.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «يَا بُنَيَّ الْفَقِيرُ حَقِيرٌ لَا يُسْمَعُ كَلَامُهُ وَلَا يُعْرَفُ مَقَامُهُ لَوْ كَانَ الْفَقِيرُ صَادِقاً يُسْمَوْنَهُ كَاذِباً وَلَوْ كَانَ زَاهِداً يُسْمَوْنَهُ جَاهِلاً».

ثم أضاف عليه السلام: «يَا بُنَيَّ مَنْ ابْتُلِيَ بِالْفَقْرِ ابْتُلِيَ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: بِالضَّعْفِ فِي يَقِينِهِ وَالتَّقْصَانِ فِي عَقْلِهِ وَالرَّقَّةِ فِي دِينِهِ وَقِلَّةِ الْحَيَاءِ فِي وَجْهِهِ، فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الْفَقْرِ»<sup>٣</sup>.

وإننا لنرى اليوم بأم أعيننا أن الفقر مصدر ما لا يحصى من المفسد كالاتلاء بالمخدرات والفحشاء والخيانة والسرقة وخدمة الأجانب وما شابه ذلك، ومن هنا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «غِنَى يَخْجُزُكَ عَنِ الظُّلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَقْرٍ يَخْمِلُكَ

١. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٦.

٢. سورة المنافقون، الآية ٨.

٣. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٤٧، ح ٥٨، من باب فضل الفقر والفقراء.

عَلَى الْإِثْمِ»<sup>١</sup>.

ولذلك قال النبي الأكرم ﷺ: «الْفَقْرُ سَوَادُ الْوَجْهِ فِي الدَّارَيْنِ»<sup>٢</sup>.

وقال ﷺ أيضاً: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا»<sup>٣</sup>.

ومن الطبيعي أن تكون تلك العيوب التي أشير إليها أعظم خطورة إن عمّ الفقر المجتمع، وإننا نرى اليوم المجتمعات الإسلامية الفقيرة كيف هوت في مخالاب الأجنب وأعداء الإسلام بما يدعو الإنسان إلى مزيد من الأسى والأسف.

ونختتم هذا البحث بدعاء عن الإمام السجاد عليه السلام ضمن أحد أدعيته العميقة المعاني إذ تضرع: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَعِيشَةِ مَعِيشَةً أَقْوَى بِهَا عَلَى طَاعَتِكَ وَأَبْلُغُ بِهَا جَمِيعَ حَاجَاتِي وَأَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُشْرِفَنِي فِيهَا فَأَطْغَى أَوْ تَقْتَرَهَا عَلَيَّ فَأَشْقَى»<sup>٤</sup>.

❦❦❦

١. وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٧، ح ٧.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٠.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق، ج ٨٧، ص ١٢.



## فَوَيْلٌ لِلْخَطِيْبَةِ لِمَنْ عَلِيًّا السَّيِّئُ الْهَلِكُ

### في التَّنْفِيْرِ مِنَ الدُّنْيَا

#### نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام وكل قسم في مطلب مكمل لمطلب آخر: خاض الإمام عليه السلام في القسم الأول في التعريف بالدنيا أنها دار متقلبة مليئة بالأحداث الأليمة دائمة التغير وأهلها عرضة لسهام البلاء. وحذر في القسم الثاني من أن قبلكم كثير ممن عمّر الدنيا وكانوا أكثر منكم إمكانات وأقوى لكنهم رحلوا جميعاً وحلّوا مساكن من التراب والطين والحجر بدل تلك القصور، هي قبورهم.

#### ١. سند الخطبة:

روى هذه الخطبة المتقي الهندي من فقهاء العامة في كتاب «كنز العمال» (ج ١٦، ص ٢٠٠، ح ٤٤٢٢٤) وقال: روى الدينوري وابن عساكر عن عبدالله بن صالح العجلي عن أبيه أن علي بن أبي طالب عليه السلام خطبنا يوماً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ثم قال: «عِبَادَ اللَّهِ لَا تَمَرَّنَا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَخْفُوفَةٌ وَبِالْعَذْرِ مَغْرُوفَةٌ...» ورواها بإضافات سبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص» وقال: تعرف هذه الخطبة (لفصاحتها وبلاغتها) بـ «الخطبة البالغة». ثم قال: إن أبانعم نقل بعضها في كتاب الحلية. وأضاف عليها الخطيب الخوارزمي في كتاب «المناقب». قال صاحب «مصادر نهج البلاغة» بعد الإشارة إلى هذه المطالب: ولا نرى حاجة لذكر رواة الخطبة من علماء الإمامية بعد هذه الرواية الواسعة من كتب العامة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٦٧).

وقال في القسم الثالث: إنكم سائرون على طريقهم وملاقون مصيرهم. وسيحل اليوم الذي تنتهي فيه حياتكم وتضم القبور أجسادكم وستبعثون من تلك القبور وتظهر لكم أعمالكم التي أسلفتم وعليكم تبعثها.

## القسم الأول

دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَخْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نَزْلُهَا.  
أَخْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالْأَمَانُ مِنْهَا  
مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَعْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُقْنِيهِمْ  
بِحِمَامِهَا.

## الشرح والتفسير

### تقلب احوال الدنيا

تناول الإمام عليه السلام كما قيل في هذا الجانب من الخطبة تقلب الدنيا وغدرها فقال:  
«دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَخْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نَزْلُهَا»<sup>١</sup>.  
والبلاء الذي يصيب الحياة في هذه الدنيا كثير ومتنوع من قبيل الأمراض البدنية  
والنفسية والأحداث الاجتماعية الأليمة والعواصف والزلازل والسيول والغارات  
والحروب وما يؤدي إلى جرح الإنسان أو موته وفقدان الأعرزة وأمثال ذلك.

والعبارة: «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ» إشارة بليغة لكل ما ذكر، غدر الدنيا وربما يشير  
إلى أهلها الغدرة غالباً فإن أقبلت الدنيا على أحد أحيوه وإن ولت ولوا كأنهم لم  
يعرفوه. أو إشارة إلى غدر النعم الدنيوية بينما ترى الإنسان سالماً معافى ويظن أن  
وضعه سيستمر كذلك وإذا بحادث بسيط يقضي على سلامته، أو تراه جمع أموالاً  
وثروة طائلة فتفاجأ بحدث أفلسه. وتقلب الدنيا المبين في العبارة «لَا تَدُومُ

١. «غدر» له عدة معانٍ متقاربة المكر والخداع وعدم الوفاء.

٢. «نزال» جمع «نازل» الضيف أو من يدخل مكاناً.

أَحْوَالُهَا» نتيجة لتلك الحوادث المتنوعة والبلايا التي تصيب الإنسان من كل جانب، وعدم أمن سكنتها في العبارة «وَلَا يَسْلَمُ نَزْأُهَا» بسبب تلك الحوادث المريرة وتقلبات الدنيا.

ثم أكد عليه ذلك بعبارة موقظة فقال: «أَحْوَالُ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ<sup>٢</sup>، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، الْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ».

وتاريخ البشرية برمته شاهد حي على هذا الكلام العميق المعنى وأبعد من ذلك آيات القرآن التي تكشف الستار عن قصص الماضين، والصورة ذات العبرة التي رسمها القرآن أواخر سورة القصص عن حياة الثري المعروف من بني إسرائيل قارون الذي ظهر يوماً بين بني إسرائيل بزينته وخدمه وحشمه ويستعرض قوته وثرأه أمام الجميع حتى انبرى البعض منهم ممن غرّته زخارف الدنيا ليقولوا: «يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ» ولم يطلع الغد حتى ابتلعت الأرض بالزلزلة والخسف بكل ما يملك فأخذت أصحاب الدنيا الرهبة ليقولوا «لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا».

ولا تبدو هذه الحوادث قليلة في عصرنا، بل اتسعت للغاية وانتشرت لنرى كل يوم تلك المشاهد باعيننا.

ثم شبه الإمام عليه السلام في ختام هذا المقطع حوادث الدنيا وسكنتها تشبيهاً رائعاً فقال: «وَأَيْنَمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ<sup>٣</sup>، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا<sup>٤</sup>». نعم فالناس في هذا العالم أهداف فاقدة للدفاع أمام سهام البلاء المصوبة نحوها من اليمين والشمال والأعلى والأسفل؛ السهام التي قلما تخطئ وتصيب كبد الهدف فتقضي عليه، وهل من أمن في الميدان الذي أحاط به الرماة ويستهدفون الإنسان

١. «تارات» جمع «تارة» على وزن «غارة» بمعنى الزمان وتأتي عادة بمعنى مرة.

٢. «متصرفة» من «التصرف» التغير.

٣. «مستهدفة» من مادة «هدف» التي يصوب نحوها السهم.

٤. «حمام» من مادة «حم» على وزن «غم» التقدير ومن هنا يراد به الموت الذي قدره الله ويعني الطير بالكسر.

كلّ حين؟! أليست الحياة مذمومة قبيحة في هذا الوسط؟ لعل ذلك الميدان مليئاً بالجواهر والألبسة الفاخرة والأطعمة المتنوعة، لكن هل يسع هذه الأمور إسعاد الإنسان في ذلك الوسط؟! كلا. هنالك قصة معروفة من شأنها تجسيد غدر الدنيا.

## تأمل

### دار محفوفة بالبلاء

هذا العالم موضع المشاكل والمصائب والآلام والمحن. وإنا نعلم إجمالاً بهذا الموضوع، لكننا غالباً نتأمل في شرحه وتفصيله.

والآفات التي تهدد سلامة الإنسان أكثر من أن تحصى. تتألف بنية الإنسان من أعضاء مختلفة لكل منها عدّة شرائط للقيام بوظيفته، وأدنى تغير في تلك الشرائط بالنسبة للقلب والكليتين والعروق والأعصاب والعضلات والعظام يخلق أزمة.

يعتقد بعض الأطباء بأنّ كبد الإنسان يدفع ثلاثمائة نوع من السموم ولو اختل قليلاً لما وسعه دفع بعضها وهذه أولى الأزمات، وهكذا العين والأذن والأنف واللسان وأمثالها ولو تجاوزنا الآفات الباطنية فإنّ الآفات الظاهرية كثيرة للغاية ومتنوعة بحيث إنّ موت الإنسان كامن في عوامل حياته؛ فالمطر مصدر الحياة لو زاد عن حدّه لكون سيولاً عظيمة تأتي على كل شيء، والرياح المهمة للحياة لو ازدادت سرعتها لأصبحت عاصفة تجتث الأشجار وتقذف بسقوف المنازل بعيداً، والشمس الذي تفيض بأشعتها الحياة لو تركزت هذه الأشعة لأصيب الإنسان بضربة الشمس وهدده خطر الموت، والأرض التي يسكنها الإنسان ومنها جميع البركات لو طغت وحدثت الزلازل لأحالت مدناً عمرت بالبناء لسنوات إلى ركام من التراب خلال لحظة.

وآفات النباتات وطيغان البحار وهجوم الأمراض المعدية من الأرض والهواء والماء والطعام كلّ منها من شأنه تهديد حياة الإنسان، وإذا صدرت الأوامر لأسراب



الجراد بالهجوم وتقدمت بجيشها الجرار من كل مكان لأبادت أوراق الأشجار والسيقان والمحاصيل دون أن يسع أحد مواجهتها ولو بأقوى الوسائل المتطورة. هذا ما يتعلق بالحوادث الطبيعية أمّا الآفات الاجتماعية فليست بأقل منها خطراً، فهناك الحروب الدموية كالبراكين التي تحدث كل يوم في منطقة من العالم والتي تهدد على الدوام حياة الإنسان، التنافس المحموم للاستيلاء على المناصب السياسية والقضايا الاقتصادية تمرغ كل يوم أنف جماعة في التراب أو تقضي على حياتها الاختلافات الأسرية التي تؤدي إلى الطلاق وتصنع كيان الأسرة وعقوق الأبناء وخيانة الشركاء وأصحاب السوء وضربات المنافقين كل منها عامل يهدد حياة الإنسان واستقراره.

وعليه فلا بدّ أن نقبل بكلّ كياننا على كلام «دَارُ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ».

## القسم الثاني

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَعَمَرَ دِيَارًا، وَأَبْعَدَ آثَارًا؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً، وَرِيَاخُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً. فَاسْتَبَدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشِيدَةِ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالْإِجَارَ الْمُسْنَدَةَ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِنَةَ الْمُلْحَدَةَ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا، وَشِيدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاحِلُهَا مُعْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاعِلِينَ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ، وَدُنُو الدَّارِ. وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبَلَى، وَأَكَلَتْهُمْ الْجَنَائِدُ وَالتَّرَى.

## الشرح والتفسير

### جيران متباعدون

أخذ الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة يد مخاطبيه ليحملهم إلى أعماق تاريخ الماضين ليريهم مصيرهم بعد ذلك العمر الطويل وتلك القوة والافتقار ويضع أمامهم مع يومهم فيلهم مخاطبيه وجميع عباد الله من كل ملّة ونحلة أعظم وأعمق درس وعبرة فقال: «وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلٍ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ».

ثم خاض عليه السلام في شرح هذا المعنى فقال: «مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَعَمَرَ

دِيَارًا، وَأَبْعَدَ آثَارًا؛ أَضْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً<sup>١</sup>، وَرِيَاخُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً،  
وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً<sup>٢</sup>».

وقد قدّم القرآن في مختلف السور نماذج واضحة لهؤلاء الأقسام، ومن ذلك قوم عاد وثمود كنموذج واضح فقال في سورة والفجر «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ \* إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ \* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ \* وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ \* وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ \* الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ \* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ \* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ»<sup>٣</sup>.

فقد ذكر عليه السلام ثلاث خصائص تفيد رجحان الأقسام السابقة عليهم؛ الأولى طول العمر (بحيث قيل إن بعضهم كان يعمر أربعمئة سنة)<sup>٤</sup> وعمارة المدن حتى قال فيهم القرآن: «وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ»<sup>٥</sup>. وكانت لهم أراضٍ عامرة وبساتين نضرة ونعمة وافرة وكانوا بارعين في الزراعة.

وأخرى كانت آثارهم أبقى، إشارة إلى أن مساكنهم وقصورهم وسائر أعمالهم العمرانية كانت على درجة من الإحكام بحيث بقيت لسنين عديدة، لكن كيف كانت عاقبتهم، سكنت الأصوات والضجيج وسيطر عليها الصمت وتعفنت أجسادهم تحت التراب وبليت عظامهم وطويت آثارهم.

والعبارة «وَرِيَاخُهُمْ رَاكِدَةً» بالنظر إلى أن رياح جمع ريح والريح هنا بمعنى الروح والقوة فمفهوم ركودها أنهم قعدوا تماماً عن العمل، وفسره البعض بمعنى سكون ريح الغرور. كما يحتمل أن يكون المراد بها الريح التي تطل رايات الملوك والمقتدرين.

١. «هامدة» من «الهمود» تعني في الأصل انطفاء النار وانخفاض الحرارة ثم اطلقت على انطفاء الصوت وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

٢. «عافية» من مادة «عفو» زوال آثار الشيء كأن تهب الريح وتزيل ذرات الرمل وتمحوها عن النظر ومنه العفو الذي يعني إزالة آثار الذنب.

٣. سورة الفجر، الآيات ٦-١٣.

٤. شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي، ج ١٤، ص ٢٣٠.

٥. سورة الحجر، الآية ٨٢.

ثم أشار عليه السلام إلى قضية مهمة بعد مغادرتهم لتلك القصور الفارهة والحياة المترفة وأين حلوا فقال: «فَاسْتَبَدُّوا بِالْقُصُورِ الْمُشِيدَةِ<sup>١</sup>، وَالنَّمَارِقِ<sup>٢</sup> الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورِ وَالْأَخْجَارِ الْمُسْنَدَةِ<sup>٣</sup>، وَالْقُبُورِ اللَّاطِئَةِ<sup>٤</sup> الْمُلْحَدَةِ<sup>٥</sup>».

حقاً يا له من أمر عظيم أن ينتقل الإنسان من ذروة القدرة وهو يعيش النعمة واللذة إلى النقطة المقابلة تماماً، فلا بيت ولا شمعة ولا سراج ولا فراش ولا نعمة وبطر. طبعاً هذا الأمر المؤلم بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا الحياة المرفهة والمريحة، أمّا أولئك الذين عاشوا حياة الزهد والبساطة فلا يعانون من هذا الانتقال، لاسيما أن القبر بالنسبة لهم روضة من رياض الجنة.

ثم خاض في بيان وضع قبورهم وسكنتها فقال: «الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فَنَاوُهَا<sup>٦</sup>، وَشِيدَ بِالتَّرَابِ بِنَاوُهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُقْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ قَرْعٍ مُتَشَاغِلِينَ».

نعم، إن كانت قصورهم بنيت بمواد قيمة باهضة جمعت بجهد جهيد من مختلف المناطق فإن قبورهم بنيت بمواد لا قيمة لها فهي حفنة تراب، وسكنة هذه القبور في حالتين متناقضتين، القرب والبعد، قريبون من حيث المكان وبعيدون من حيث الارتباط، أو أنهم منهمكون بأنفسهم إلى درجة عدم الارتباط بالآخرين، أو لا يؤذنون لهم بالارتباط، ويبدو أن ذلك ليس مهماً لهم، لكنهم في الواقع متضجرون

١. «مشيدة» من مادة «شيد» على وزن «صيد» جعل الشيء مرتفعاً و«شيد» على وزن «بيد» الجص وماشابه ذلك الذي يطلى به البناء للزينة وعليه «اصول مشيدة» (بتشديد الياء) البناء المرتفع والمحكم و«مشيد» (على وزن شديد) أيضاً البناء المحكم وورد في القرآن المجيد، في سورة الحج، الآية ٤٥: ﴿وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ﴾.

٢. «نمارق» جمع «نمرقة» على وزن «سنبلة» الوسادة الصغيرة التي يستند عليها.

٣. «مسندة» من «السنود» على وزن «قعود» الاستناد و«مسندة» في العبارة الشيء الذي يتكى عليه.

٤. «لاطئة» ملتصقة بالأرض من «اللطوء» على وزن «فروع» لصيقة بالأرض.

٥. «ملحدة» من مادة «لحد» على وزن «مهد» دفن الميت وهو جعل الشق وسط القبر أو جانبه.

٦. «فناء» الفضاء المفتوح امام البيت وهكذا كانت بيوت الكبار.

لأنه وإن لم يكن هناك شيء من الأمور الدنيوية، لكنهم وجلون من أعمالهم بحيث لا يكثرثون لغيرهم (طبعاً يحدث كل هذا في الحياة البرزخية).

ثم قال عليه السلام في مواصلة ذلك: «لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجَوَارِ، وَذُنُوبِ الدَّارِ».

العبرة «لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ» لعل العبارة لا يستأنسون بالأوطان إشارة إلى أنهم وإن ناموا سنين متمادية في قبورهم؛ لكن لا رغبة لهم بها ولا يأنسون بها، كما احتمال أن يكون المراد ترك إرتباطهم بأوطانهم في عالم الدنيا فهم لا يفكرون في الرجوع إليه، إلا أن المعنى الأول بقريظة العبارة (ولا يتواصلون ...) أصوب.

وأشار عليه السلام في الختام إلى هذه النقطة، لم لا يسعهم الإرتباط مع بعضهم: «وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكُلِّكَلِيهِ<sup>١</sup> الْبَلَى، وَأَكَلْتَهُمُ الْجَنَادِلُ<sup>٢</sup> وَالْثَرَى<sup>٣</sup>!».

إشارة إلى أنهم كانوا متلاصقين في قبورهم، لكنهم فقدوا كل قدرتهم وتحولوا إلى قبضة تراب، وهل من تراور ولقاء من العظام البالية والأجساد الخاوية؟

غَرِيبٌ وَأَطْرَافُ الْبُيُوتِ تَحُوْطُهُ<sup>٤</sup>      أَلَا كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ غَرِيبٌ<sup>٤</sup>

## تأمل

### عاقبة الإنسان بعد الموت

ما ورد في الجمل المذكورة قرينة من الجمل التي جاءت بعدها والتي ترتبط بجسم الإنسان بعد الموت، لأن الأجساد تتحول إلى التراب وليس في مقدورها التراب والتواصل بل تعيش الغربة تماماً.

١. «كلكل» بمعنى الصدر.

٢. «جنادل» جمع «جندلة» على وزن «مزرعة» الصخور.

٣. «ثرى» التراب.

٤. البيت للإمام الحسين عليه السلام، لما وضع أخاه الحسن عليه السلام في لحده، انظر: مناقب آل أبي طالب عليه السلام، ج ٣،

ص ٢٠٥؛ بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٦٠، ح ٢٩.

ولا شك أنّ الأرواح لها شأن آخر، فإنّ أرواح المسيئين في عذاب شديد كما أشار القرآن الكريم إلى نماذج منها مثل عاقبة آل فرعون حيث قال:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾<sup>١</sup>.

وأما أرواح الأخيار في الجنّة البرزخيّة وكما قال القرآن الكريم بشأن الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>٢</sup>.

بل هذا ما يستفاد من بعض الروايات أنّ أرواح الأخيار في تلاقي وتزاور، بل هم في حلقات الأنس والمؤانسة.

فقد روى المرحوم الكليني في الجزء الثالث من كتاب «الكافي» في باب أرواح المؤمنين عن حبة العرني قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظهر، فوقف بوادي السلام كأنه مخاطب لأقوام، فقامت بقيامه حتى أعيتت ثم جلست حتى مللت، ثم قمت، حتى نالني مثل ما نالني أولاً، ثم جلست حتى مللت، ثم قمت وجمعت ردائي فقلت: يا أمير المؤمنين إني قد أشقت عليك من طول القيام، فراحة ساعة! ثم طرحت الرداء ليجلس عليه، فقال لي: «يا حبة، إن هو إلا مُحَادِثَةٌ مُؤْمِنٌ أَوْ مُؤَانِسَةٌ». قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وإتهم لكذلك؟ قال: «نعم، وَلَوْ كُشِفَ لَكَ لَرَأَيْتَهُمْ حَلَقًا حَلَقًا مُحِبِّينَ يَتَحَادَثُونَ». فقلت: أجسام أم أرواح؟ فقال: «أرواح، وَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ فِي بُقْعَةٍ مِنَ بِقَاعِ الْأَرْضِ، إِلَّا قِيلَ لِرُوحِهِ: الْخَقِي بِوَادِي السَّلَامِ، وَإِنَّهَا لَبُقْعَةٌ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ»<sup>٣</sup>.

وعلى هذا الأساس فإنّ الإمام علي عليه السلام صرّح في هذه العبارات إلى عدم انحصار الموت بالحياة الجسمانيّة للإنسان ولا بعالم الأرواح فقط، وذلك أنّ أغلب الناس

١. سورة غافر، الآية ٤٦.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٧٠.

٣. الكافي، ج ٣، ص ٢٤٣، باب في أرواح المؤمنين، ح ١.

في هذه الحياة يقتصرون على الجانب المادي والملذات الجسمانية فقط، بل يحذّرهـم بأنّ هذه الأجساد إلى أين يكون مصيرها؟ فعليكم أن تستيقظوا من سباتكم ولا تنغمسوا في الملذات الجسمانية والمعاصي والذنوب فقط.

## القسم الثالث

وَكَأَنَّ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَاز تَهَنْكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ: «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا سَلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

## الشرح والتفسير

### المصير المحتوم

طبق الإمام عليه السلام على مخاطبيه هنا ما أورده بشأن مصير الأسلاف كي لا يظنوا أنّ الوفاة ومغادرة القصور والثروات وإمكانات الحياة واللحاق بالموسدين تحت التراب الذين لم يحملوا معهم شيئاً ولا يتصلوا ببعضهم مقتصر على أولئك الأسلاف فقال: «وَكَأَنَّ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَاز تَهَنْكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ<sup>١</sup>، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ». نعم فهذا قانون لا استثناء فيه مع أنّ لكل عام ما يخصه، إلا أنّ هذه الأمور لا تخصص (أي أنّ تلك القاعدة لها استثناء أنّها لا تعرف الاستثناء في بعض الموارد). ثم أشار عليه السلام إلى قضية مهمّة وهي أنّ مشكلة الإنسان لا تنتهي بالموت، والمشكلة حضوره محكمة القيامة ومسؤوليته عن صغار أعماله وكبارها فقال: «فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ<sup>٢</sup> بِكُمْ الْأُمُورُ، وَبُعْثِرَتِ<sup>٣</sup> الْقُبُورُ: «هُنَالِكَ تَبْلُو<sup>٤</sup>. كُلُّ نَفْسٍ مَا

١. «مضجع» الفراش والمنام وتعني هنا القبر ومن مادة «ضجع» على وزن «ضرب» النوم على الجانب.

٢. «تناهت» من «التناهي» الوصول إلى الغاية.

٣. «بعثرت» من «البعثرة» على وزن «مرتبة» تعني في الأصل القلب رأساً على عقب والاستخراج ولما كانت القبور تقلب يوم القيامة عند إحياء الأموات ويظهر ما بداخلها فقد استعمل في القيامة.

٤. «تبلو» من مادة «بلاء» الامتحان وكون الامتحان سبب العلم فاستعملت بهذا المعنى.



أَسْلَفْتُ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

نعم هنالك بعض الأمور المهمة في ذلك اليوم؛ فالجميع حاضرون بين يدي العدل الإلهي ويرون أعمالهم أمام أعينهم ولا تنفع جميع الأعذار الواهية والكذب لتبرير أسباب المعصية والانحراف وليس لأحد من سبيل للهروب من نتيجة أعماله. حقاً لو تأمل الإنسان هاتين القضيتين سيرى أنّ الحياة آيلة للزوال وسيترك كلّ شيء ويلتحق بالنائمين تحت التراب ثم يعقب ذلك الحساب وجزاء الأعمال، الحساب الذي لا مفرّ منه؛ لو فكر في هذين الأمرين لراقب أعماله قطعاً في هذه الدنيا ولما بدر منه كلّ هذا الفساد والعصيان.

## وَمِنْ دُعَائِهِ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ السَّلَامِ

يَلْجَأُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ لِيَهْدِيَهُ إِلَى الرَّشَادِ

### نظرة إلى الخطبة (الدعاء)

يتألف هذا الدعاء العميق المعنى ذو المضامين الرفيعة من قسمين:  
القسم الأول في حبِّ الله لعباده والمتوكلين عليه والعلم بيواطنهم.  
ويستعيد عليه السلام في القسم الثاني بالله ليرشده في الحوادث المضلّة ويهديه لما فيه  
الخير ويعامله برحمته لا بعدله.

#### ١. سند الخطبة (الدعاء):

الكتاب الوحيد الذي ورد فيه هذا الدعاء ويشير إلى اقتباسها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، باضافات يتضح منها أنه استقاها من مصدر آخر جمعها في (الصحيفة العلوية الأولى) للعالم الفاضل السماهجي، كما وردت في مصباح الشيخ الطوسي أن الإمام السجاد عليه السلام كان يدعو به بعد الركعة الثالثة عشرة والرابعة عشرة يوم الجمعة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٠) السماهجي هو الشيخ عبدالله بن صالح بن علي أحمد البحراني من سماج قرية في إحدى جزائر نواحي البحرين من علماء القرن الثاني عشر الهجري، كان أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر وله مؤلفات منها الصحيفة العلوية الأولى، توفي سنة ١١٣٥ (مصادر نهج البلاغة، ج ١، ص ٨١).



## القسم الأول

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْسُ الْأَنْسِينَ لِأَوْلِيَاكَ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ  
عَلَيْكَ. تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ  
بَصَائِرِهِمْ. فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ. إِنْ أَوْحَشْتَهُمْ  
الْعُرْبَةَ أَنْسَهُمْ ذِكْرَكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَيَّ الْأَسْتِجَارَةَ بِكَ،  
عِلْمًا بِأَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِيرَهَا عَنْ قَضَائِكَ.

## الشرح والتفسير

### أنس العباد

تضرع الإمام عليه السلام إلى الله في مستهل هذا الدعاء المهذب للروح والمرتب للإنسان  
قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْسُ الْأَنْسِينَ لِأَوْلِيَاكَ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ». إشارة إلى أن من تحلى بهاتين الصفتين سيشمل بهذه النعمة العظيمة بالأنس بالله  
وقضائه لمشاكله بأن يكون في عداد أولياء الله أو المتوكلين عليه، وهكذا يعطي  
الإمام عليه السلام درساً في تهذيب الإنسان ضمن مناجاته للرب. ولما كان حل المشاكل  
منوط بالعلم بهم قال مواصلاً دعاءه: «تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي  
ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ  
مَلْهُوفَةٌ»<sup>٢</sup>.

نعم، الله عالم بأسرارهم وبواطنهم، فهو أقرب إلينا من حبل الوريد: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا

١. «أنس» صيغة افعال التفضيل من مادة «أنس» تعني هنا أشد الأنس وحقيقة الأنس، الهدوء عند الشيء وقال البعض يقال الإنسان: لأنسه بالروح الاجتماعية.

٢. «ملهُوفة» المشتاق أو المضطر ومن مادة «لهف» على وزن «كهف» والمعنى الأول أنسب.

الْإِنْسَانَ وَنَعَلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ<sup>١</sup>.

ولعل الفارق بين السرائر والضمائر أنّ السرائر تقال للحالات الخلقية والضمائر للنيات التي تساور قلب الإنسان ويتحرك إثرها. كما تستعمل هاتان المفردتان بنفس المعنى. وبصائر البشرية بالإضافة لكمالها مفهوم هذا الدعاء تكمن في المراقبة التامة للظاهر والباطن والنية والعمل، فالله عالم بكلّ هذه الأمور، أسرارهم الخفية مكشوفة لله ونياتهم ظاهرة له.

والعبارة: «قُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ» نتيجة لإيمانهم بالله ومعرفتهم به وتوكلهم عليه. فكلما إزداد الإيمان والعلم به إزداد شوقه لمبدأ الرحمة والحب والكرم. ثم أشار ﷺ إلى نقطة هي أنّ أولياء الله والمتوكلين عليه لا يركعون قط للمصائب ولا يفقدون ثقتهم بالله فقال: «إِنْ أَوْحَشْتَهُمُ الْعُرْبَةَ أَنْسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صَبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْأَسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْمًا بِأَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرُهَا عَن قَضَائِكَ».

وفي الواقع أنّ كلّ هذه الصفات والحالات ناشئة من الإيمان بالتوحيد الأفعالي ويشير إلى أنّ هذا الغصن من التوحيد إن نما في روح الإنسان أفضى إلى ثمار جمّة، فلا يشعر بالوحدة إزاء المشاكل ولا يشعر بالغرابة في وحدته.

## القسم الثاني

اللَّهُمَّ إِنَّ فَهَيْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيْتُ عَنْ طَلِبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي،  
وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِيَدْعٍ مِنْ  
كَفَايَاتِكَ.

اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَذَابِكَ.

## الشرح والتفسير

### الله كهف الوري

عقب بيان مقدمات الدعاء وإعداد القلب والروح للتضرع إلى الله الذي ورد سابقاً، خاض الإمام عليه السلام هنا في أصل الدعاء فذكر أصلاً كلياً أوجز فيه طلباته دون التركيز على كل واحدة فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّ فَهَيْتُ<sup>١</sup> عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيْتُ عَنْ طَلِبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، خُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِيَدْعٍ مِنْ كَفَايَاتِكَ».

فهذا الدعاء ينطوي على منتهى الآداب أمام الله وتلاحظ فيه ضمناً شمولية لجميع الطلبات ويشير إلى هذه الحقيقة وهي أننا علمنا بمصالحنا ومطالبنا مع ذلك تغيب عنا كثيراً من الأمور أو نخطئ في تشخيصها؛ إلا أن الله أعلم بمفاسدنا ومصالحنا، فنسأله إرشادنا لمصالحنا وما نسأله الله ما فيه خيرنا وصلاحنا ولا يستبعد ذلك قط من لطف الله.

وأود أن أذكر هنا حديثاً رائعاً عن الإمام زين العابدين عليه السلام أن الحسن البصري

١. «فهَيْتُ» من «الفهامة» على وزن «كرامة» العجز والنسيان.

قال: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا».

فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ مَعَ سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ»<sup>١</sup>.

ثم ابتهل عليه السلام في الختام: «اللَّهُمَّ اَحْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَذْلِكَ».

وكأنه عليه السلام عدّ العدل والعفو في هذه العبارة مطيّة، والعدل مطية مقلقة بينما العفو مطيّة سمحة فسأل الله أن يحمله على تلك المطية السهلة لنفوز بالقرب هائنين ومرتاحين من العقاب الأليم في ظل لطفك، وهذا مضمون العبارة التي تورد كدعاء في الصلاة وغيرها: «إِلَهِنَا عَامِلِنَا بِفَضْلِكَ وَلَا تُعَامِلْنَا بِعَذْلِكَ يَا كَرِيمٌ».

قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ نَاسٍ أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ».

فقال الأصحاب: «وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟».

فقال صلى الله عليه وآله: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَوْقِ رَأْسِهِ وَطَوَّلَ بِهَا صَوْتَهُ»<sup>٢</sup>.

## تأمل

### أدعية المعصومين عليهم السلام المهدية

تختزن أدعية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة العصمة عليهم السلام جانباً مهماً من التعاليم الدينية، ولقراءة هذه الأدعية أثر عظيم في ترسيخ عرى الإيمان وتهذيب النفوس وتربية الفضائل بالاضافة إلى سوق الإنسان إلى القرب من الله وإبعاده عن الشيطان ووساوسه وتلطيف الروح. ولما كانت تلك الأدعية نابعة من الروح السامية للمعصوم فهي جميعاً في مستوى رفيع واحد وإذا تلاها الإنسان عالماً بمضامينها ساقته لذروة المعرفة والكرامة فإذا جمعت هذه الأدعية - وقد تصدى لذلك أخيراً بعض

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٥٣، ح ١٧.

٢. المصدر السابق، ج ٧، ص ١١.

المحققين<sup>١</sup> - كانت خزائنه نفيسة من المعارف الدينية والدروس الخلقية ومرآة السير والسلوك إلى الله. وقد وردت على هامش خطب نهج البلاغة والرسائل.

وقصار الكلمات ما يقارب ثلاثين دعاءً تؤيد بأجمعها ما ذهبنا إليه. فبعض الأدعية كدعاء الصباح وكميل وعرفة للإمام الحسين عليه السلام وأدعية الصحيفة السجادية وسائر الأدعية كالندبة وغيره التي وصلت عن المعصوم عليه السلام كل واحد منها شاهد آخر على هذه الدعوى، وليت اتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام سبقوا سائر المذاهب الإسلامية بهذا الخصوص وألزموا الشبان بحفظ مقاطع من هذه الأدعية (مع فهم معانيها) ليصانوا من هجوم أمواج المعصية التي تنامت في عصرنا.

❦❦❦

١. جمعت وطبعت هذه المجموعة من قبل بعض المحققين في مؤسسة أبحاث الروضة الرضوية في خمسة أجزاء.





## فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ كَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ

يُرِيدُ بِهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام الموجز تعريف بشخصية أدت وظائفها في عصرها ورحلت طاهرة وجهدت في حفظ سنة النبي الأكرم ﷺ وطاعة الله. هنالك خلاف بين الشراح في هذه الشخصية. فالشراح من أبناء العامة كابن أبي الحديد ومحمد عبدة زعموا أنها إشارة إلى الخليفة الثاني وزعموا أن علياً عليه السلام قال هذا الكلام بعد وفاة عمر، في حين لا ينسجم هذا الكلام مع سائر خطب «نهج البلاغة». فقد شكاه عليه السلام كثيراً في الخطبة الشقشقية من خلافة الثاني وبت شدة شكواه من غضب الخلافة في الخطب وبعض الرسائل، فكيف يمكن تجاهل كل ذلك واعتبار هذا الكلام المبهم والمجمل في الخليفة الثاني؟

والطريف أن الطبري<sup>٢</sup> الذي يراه في عمر إنما رواه عن المغيرة بن شعبة وهو من

١. سند الخطبة:

لم ينقل جانب من هذه الخطبة قبل السيد الرضي عن علي عليه السلام سوى الطبري ضمن قصة عن المغيرة بن شعبة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧١).

٢. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨٥، حوادث السنة ٣٣ من الهجرة.

خصوم علي عليه السلام.

العجيب ما قاله ابن أبي الحديد أنه رأى في نسخة من «نهج البلاغة» بخط الرضي أنه كتب «عمر» تحت كلمة فلان ويدل هذا على أن الرضي له مثل هذا الاعتقاد<sup>١</sup>، والحال لا يستبعد أبداً أن تلك النسخة إن كانت أصلية تقلبت لسنوات بيد هذا وذاك فكتب بعضهم تلك الكلمة.

والأعجب من ذلك أن ابن أبي الحديد روى حديثاً عن ابن عباس (ج ١٢، ص ٢٠) ذكرناه سابقاً أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أراد أن يكتب بصراحة اسم علي وصيه في مرضه الذي توفي فيه فمنعته.

فهل ينسجم هذا الكلام مع تفسير ابن أبي الحديد للخطبة التي تبحث؟ ولنفرض أن كلام علي عليه السلام كان في عمر، فلا يبعد هذا الاحتمال أنه لم يكن جدياً وكان تقية، سيما طبق الرواية المذكورة أن المغيرة طرح هذا السؤال بعد وفاة عمر، بالنظر إلى أن المغيرة كان طالحاً ولعله أراد بثّ الشر في صفوف المسلمين. فأورد الإمام عليه السلام هذا الكلام على أساس المصلحة الإسلامية، وإلا فرأيه الصريح ما ورد في الشقشقية وسائر خطب «نهج البلاغة».

وقوله: فلان، بدل عمر من شأنه تأييد هذا المعنى، فهذا الإبهام علامة على التقية، يوقن للشراح الإمامية أن هذا الكلام ليس في الخليفة الثاني ويعتقدون بأنه إشارة إلى مالك الأشر والبعض الآخر يرى أنه في سلمان الفارسي يبدو أن الاحتمال الأول أنسب وينسجم مع موقع مالك ودوره من بين أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وإمرته للجيش وفكره الرفيع وعزمه الراسخ.

❦❦❦

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٢، ص ٣.

لله بلاءٌ فلانٍ فلقد قَوْمَ الأودِ، ودَاوَى العَمَدَ، وأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ الفِئْتَةَ!  
ذَهَبَ نَقِي الثُّوبِ، قَلِيلَ العَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا. أَدَى إِلَى الله  
طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ،  
وَلَا يَسْتَنِينُ الْمُهْتَدِي.

## الشرح والتفسير

### مالك الأشتر

لقد اختلف شراح الفريقين كما قيل في تفسير هذه الخطبة والشخص المعني بهذا الكلام. فقد ذهب أغلب الشراح من أبناء العامة (سوى صبحي الصالح) إلى أن المراد به الخليفة الأول أو الثاني في حين لا ينسجم هذا المدح البليغ مع ذلك الذم الشديد الذي أورده الإمام عليه السلام في مختلف خطب «نهج البلاغة» ولا سيما الخطبة الشقشقية، ولكلماته حين دفن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام (الخطبة ٢٠٢) في ذمهما واستهجان أعمالهما.

ومن هنا أجمع الشراح الشيعة على أن الخطبة إشارة إلى أحد خواص أصحابه ولا سيما مالك الأشتر، خاصة وردت في بعض العبارات المروية عنه عليه السلام مثل ذلك المدح البليغ لمالك التي تشير إلى جدارته بهذا الكلام، ومن ذلك ما رواه ابن أبي الحديد في شرحه أنه عليه السلام قال:

«رَحِمَ اللهُ مَالِكًا فَلَقَدْ كَانَ لِي كَمَا كُنْتُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»<sup>١</sup>.

على كل حال، قال: «الله بلاءٌ فلانٍ فلقد قَوْمٌ<sup>١</sup> الأود<sup>٢</sup>، ودَاوَى العَمَدَ<sup>٣</sup>، وأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ<sup>٤</sup> الفِئْتَةَ!».

البلاء هنا الامتحان ويشير هنا إلى ثواب هذا الامتحان ويعني أن الله امتحنه كثيراً وقد دعا الإمام عليه السلام ليوفيه أحسن الثواب على ذلك البلاء.

وردت في كثير من النسخ (بلاد) بدل (بلاء) جمع بلد، أي الله البلد التي ترعرع فيها حتى هذا الشخص وهو كلام شائع الاستعمال لدى العرب فيقال: «الله دَرُّ فلان» و«الله نادي فلان».

فقد بين عليه السلام في العبارة أربعاً من صفاته، الأولى أنه قوم الأود ولهذه العبارة معنى واسع يشمل المسائل العقائدية والأخلاقية والاجتماعية، والكلام في العبارة الثانية عن معالجة المرضى يشير قطعاً إلى الأمراض الأخلاقية والاجتماعية، وإقامة السُّنة بمعنى العودة إلى عصر النبي الأكرم عليه السلام والتولي عن البدع الكثيرة التي ظهرت بعده عليه السلام والعبارة «خَلَّفَ الفِئْتَةَ» إشارة إلى أنه ظهرت بعده العديد من الفتن والاختلافات بين المسلمين ومن توفيقاته أنه لم يتعرض لتلك الفتن.

ثم خاض في صفات مهمة أخرى فقال: «ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا».

هذه الصفات الأربع تأكيد لما ورد في الصفات الأربع السابقة. وبالطبع فإن من يقوم الأود ويداوي العمدة وقيم السُّنة سيكون: «نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ وَيُغَادِرُ الدُّنْيَا مَلِيئاً بِالْخَيْرَاتِ».

ثم اختتم عليه السلام الكلام بثلاث صفات أخرى فقال: «أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ

١. «قوم» من «القيام» الصواب.

٢. «أود» العوج من «الأود» على وزن «قول» الإنحناء والإعوجاج.

٣. «عمدة» المرض وفي الأصل من مادة الجرح الذي يحصل في ظهر الدابة من الركوب.

٤. «خلف» تقال هذه العبارة حين يموت الإنسان قبل الحادثة من مادة «خلف».

بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ<sup>١</sup>، لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَيْقِنُ  
الْمُهْتَدِيَّ.»

هذا الكلام إشارة إلى الحوادث التي وقعت الواحدة بعد الأخرى بعد مالك  
الأشتر رضي الله عنه والتي كانت من آثار موقعة صفين والنهروان والتي يثيرها المنافقون  
وأعداء الإسلام، فلم يمر يوم دون ظهور فتنة ولا اسبوع وشهر دون قتال.

❦❦❦

١. «متشعبة» مختلفة ولها شعب.



## فَمَنْ كَلِمَاتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

في وَصْفِ بَيْعَتِهِ بِالْخِلاَفَةِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

مضمون الخطبة واضح. أكد الإمام علي عليه السلام: إني لم اطلبكم للبيعة وأنتم من انبريتم لها وتلهفتم عليها واندفعتم حتى أسقطتم ردائي وقطعتم نعلي وعمّ الفرح والسرور المجتمع برمته بهذه البيعة.

تري لِمَ أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة؟ الجواب يكمن في سائر عبارات الخطبة كون هذه الخطبة جانب من رسالة طويلة رواها الكليني في كتاب الرسائل حيث إن الإمام عليه السلام لما عاد من النهروان كتب كتاباً وأمر بأن يقرأ على الناس، حيث تحرك المنافقون وقصدت فئة، الإمام وقالت: ما تقول في أبي بكر وعمر وعثمان؟ فأجاب الإمام عليه السلام: رغم هذه الظروف وقتالنا لأهل الشام فإنه سؤال حسن

١. سند الخطبة:

قال المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغة إن الأصل في هذه الخطبة ما ذكره المرحوم الكليني في رسائله ثم نقل هذه الخطبة مع إضافات وقال: ذكرها باختلاف طفيف ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة» وابراهيم الثقفي في «الغارات» وابن رستم الطبري في كتابه «المسترشد» (شرح نهج البلاغة للتستري، ج ٩، ص ٥١٧).



وسأكتب جواباً شافياً وكافياً وليطلع عليه المسلمون.

ثم كتب ذلك الكتاب التاريخي في ما يقارب من عشرين صفحة وأمر بقراءته في صلاة الجمعة. فلما بلغ قضية مقتل عثمان وبيعته التي تضمنت ذلك الهجوم الفريد شرح ذلك بعبارات موجزة عميقة المعنى في هذه الخطبة، كما شرح ما حدث من وقائع عقب ذلك حتى يسلب المتذرعين الحجة، وهناك كلمات رائعة للإمام بشأن اندفاع الناس لبيعته ورد بعضه في الخطبة الشقشقية (الخطبة ٣) والخطبة ١٣٧.

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَ  
الْإِبِلِ الْهَيْمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرَدِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ، وَسَقَطَ الرَّدَاءُ،  
وَوُطِيَءَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنْ ابْتَهَجَ بِهَا  
الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَخَسَرَتْ إِلَيْهَا  
الْكَعَابُ.

## الشرح والتفسير

### الإندفاع العجيب لبيعة الإمام عليه السلام

ركز الإمام عليه السلام في كل هذا الكلام على قضية مهمة هي أنني لست طالباً قط  
للحكومة وأنتم الذين أصررتم عليّ، فأشار هنا إلى موضوعين: الأول اندفاع الناس  
المتلهفة لبيعتي، والثاني سرورهم الفائق وفرحهم الكبير بذلك العمل.

فقال في القسم الأول: «وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ  
تَدَاكَكْتُمْ<sup>١</sup> عَلَيَّ تَدَاكَ الْإِبِلِ الْهَيْمِ<sup>٢</sup> عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرَدِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ،  
وَسَقَطَ الرَّدَاءُ، وَوُطِيَءَ الضَّعِيفُ».

حقاً ليس هناك من شبه بين بيعة الناس لعلي عليه السلام ومبايعة الخلفاء السابقين،  
فبيعته تشبه بيعة المسلمين للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله في فتح مكة فقد سئمت الأمة حكومة

١. «تداككتم» من مادة «دك» تعني في الأصل الأرض المنبسطة وحيث لا بد أن تدق بإحكام فهي تعني الدق  
وإذا وردت في باب الأفعال عنت الإزدحام الشديد الذي يسبب التدافع.

٢. «هيم» جمع «هائم» الشخص أو الحيوان الشديد العطش وتطلق على العاشق الذي لا سبيل له للهروب.

عثمان وعانت الأمرين على عهد من غياب العدالة، ومن هنا كانت متعطشة للعدل وحيث رأتها في ينبوع علي عليه السلام سارعت إليه بتلك اللهفة والشوق.

ذكر المرحوم مغنية في شرحه «في ظلال نهج البلاغة» قضية من شأنها إيضاح سبب هجوم الأمة لمبايعة علي عليه السلام فقال: قرأت اليوم وأنا أشرح هذه الخطبة نسخة من صحيفة أخبار اليوم المصرية في ٢١/١٠/١٩٧٢ مقالة بقلم الأستاذ سامي محمود عنوانها «شرح في خلافة المسلمين» يقول فيها: لما ولي عثمان الخلافة أسرف فيها وطغت بني أمية لتفسد هنا وهناك: «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ \* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ»<sup>١</sup>.

فسلطهم على المسلمين حتى غرقت الأمة في الفتنة وقامت على عثمان فقتلته. أما علي عليه السلام وولده سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله كان لهم أسلوب واضح وصحيح فلم يفكروا لحظة في الدنيا وزخارفها، فهجرتهم كانت منذ البداية لله ورسوله<sup>٢</sup>. وعليه فلا عجب أن تندفع الأمة لبيعة الإمام علي عليه السلام.

وقال في المرحلة الثانية: «وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنْ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ<sup>٣</sup> إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ<sup>٤</sup> نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ<sup>٥</sup> إِلَيْهَا الْكَعَابُ<sup>٦</sup>». عادة ما يلتحق كبار السن للمشاركة في الأحداث العادية أو غير العادية، أما في الأحداث الفريدة النادرة التي تشهد حضوراً عظيماً فهناك حضور حتى للعجزة والمعذورين الذين لا يشتركون في أي تجمع. والإمام رسم بما عهد عنه من فصاحة فريدة حضور الأمة في ذلك المشهد العظيم وتلك البيعة التاريخية بأسمى صورة

١. سورة الفجر، الآيتان ١١ و ١٢.

٢. شرح نهج البلاغة للمرحوم مغنية، ج ٣، ص ٣٣٢.

٣. «هدج» من مادة «هدج» على وزن «نهج» مشي الضعيف والمضطرب وتستعمل عادة في الكهول العجزة.

٤. «تحامل» من مادة «تحامل» (مصدر باب تفاعل) القيام بعمل بالمشقة والتكلف.

٥. «حسرت» من مادة «حسر» على وزن «حصر» تعني هنا كشف النقاب عن الوجه؛ إلا أن المعنى الأصلي التحقني وأحياناً التعب.

٦. «كعاب» و«كاعب» الناهدة وتشير إلى الفتيات.

وأشار إلى موجة الفرح والسرور العارمة التي اجتاحت جميع أفراد الأمة بحيث خرج لها حتى الضعفاء والعجزة وشهدوا ذلك الحدث العظيم.

## تأمل

### البيعة الفريدة المطلقة

رغم أنَّ نصب الأئمة المعصومين عليهم السلام زعماء الأمة خاضع لانتخاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن جانب الله كما أنَّ اصطفاء النبي لهذا المقام من جانب الله، لكن للبيعة: أي إعلان الوفاء والطاعة دور مهم في مسيرتهم، ومن هنا أخذ النبي صلى الله عليه وآله البيعة من الأمة كراراً (بيعة العقبة الأولى والثانية والحديبية وبيعة المهاجرات في المدينة). وعلى هذا الأساس سعى الخلفاء لأخذ البيعة من الناس؛ إلا أنَّ البيعة لم تكن كبيعة الإمام عليه السلام. فبيعة الخليفة الأوّل في الواقع حصلت في السقيفة وشهدها عدد محدود جداً وأصبحت الأمة أمام أمر واقع فبايعت.

والخليفة الثاني نصب من جانب الخليفة الأوّل فجعل الأمة أمام فعل حاصل. وحصلت بيعة الخليفة الثالث في الشورى المؤلفة من ستة أفراد التي شكلها عمر ولبنتها الأصلية التي صوّتت لعثمان ثلاثة أفراد (عبدالرحمن بن عوف، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص) ورأت الأمة أنها أمام أمر واقع.

أمّا أمير المؤمنين علي عليه السلام - بغض النظر عن كونه منصب من جانب الله بواسطة النبي صلى الله عليه وآله - فقد انتخب من قبل الأكثرية الساحقة ودون مقدمات فبويع بيعة غاية في النشاط ومفعمة بالفرح والسرور الذي بينه عليه السلام بدقة في هذه الخطبة، وعليه قد قلنا بضرورة انتخاب الأمة والتعويل على آرائها وأسمينا ذلك بالديمقراطية الإسلامية فالحاكم الوحيد الذي حصل على هذه الآراء هو أمير المؤمنين علي عليه السلام دون من سواه.



## وَمِنْ خُطْبَتِي لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

### في مَقاصِدَ أُخْرَى

#### نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من أربعة أقسام:  
تحدّث الإمام عليه السلام في القسم الأوّل عن أهميّة الورع والتقوى وآثارهما.  
وتناول في القسم الثاني بعد الفراغ من الوصية بإتيان العمل الصالح ضرورة ذكر  
الموت ونهاية الحياة وفقدان الفرص.  
وأكد ثانية في القسم الثالث على بذل الجهد والسعي للتزود للدار الآخرة فأشار  
إلى خداع الدنيا مخاطباً المسلمين: احذروا أن تفتنكم الدنيا واعتبروا بما آلت إليه  
حياة أسلافكم وقارنوا بمصيرهم مصيركم.

#### ١. سند الخطبة:

ذكر بعضها مع بعض التفسيرات عدد من العلماء بعد السيّد الرضويّ بما يفيد أنها أخذت من مصدر آخر غير  
«نهج البلاغة»:

١. ابن الأثير في عدّة موارد من كتاب «النهاية» ومنها في مادة «خلس» و«عبل» و«خدم» و«دجى».
٢. أورد الأمدى جوانب كثيرة من هذه الخطبة في كتاب «غرر الحكم» مع اختلافات. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٥-١٧٦).

كما أورد في القسم الرابع والأخير الذي يبدو منفصلاً عن الخطبة حسب ظاهر كلام السيد الرضي، كلمات موجزة عميقة المعنى في صفات الزهاد وخصائص معيشتهم وشرح حقيقة الزهد.

## القسم الأول

فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَائِهِ، وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ، وَعِثْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكََةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ. بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرِّغَائِبُ.

## الشرح والتفسير

### سرّ السعادة والفلاح

بيّن الإمام عليه السلام في هذه الخطبة كسائر أغلب الخطب، أهميّة التقوى وآثارها ليوجزها في سبع عبارات قصيرة عظيمة المعنى، فقال في الأولى: «فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ<sup>١</sup>».

فبالنظر إلى أنّ التقوى هي خشية الله الباطنية التي تصد الإنسان عن الفحشاء والمنكر وتسوقه للمعروف والإحسان فإنه يمكن القول: التقوى مفتاح أبواب السعادة؛ فكما توضع النفائس في الخزائن وتقفل أبوابها ولا يمكن فتحها سوى بمفاتيحها فإنّ مفتاح التقوى من شأنه فتح خزائن السعادة بوجه الإنسان واستنزال رحمة الله المطلقة.

وقال عليه السلام في العبارة الثانية: «وَذَخِيرَةٌ مَعَادٍ». وهي إشارة في الواقع لذيل الآية الشريفة: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»<sup>٢</sup>. وقال في الثالثة: «وَعِثْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكََةٍ<sup>٣</sup>». وسعة مفهوم هذه العبارة يشمل التحرر من عبودية الشيطان واهواء النفس

١. «سداد» من مادة «سد» على وزن «حد» العمل الصحيح والكلام الصائب.

٢. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

٣. «ملكة» تعني هنا المعاصي التي تؤثر على الإنسان.



والظلمة. وقال عليه السلام في العبارة الرابعة: «وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ» فهلكة الإنسان في اتباع هوى النفس، فإذا كبح الإنسان هوى النفس بالتقوى نجا من الهلكة.

وقال عليه السلام في الخامسة: «بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ» فالتقوى هي الصراط المستقيم البعيد عن كل إفراط وتفريط وتقصير وعدوان، ومن الطبيعي أن يختزل الصراط المستقيم ليوصل الإنسان بأقل مدّة إلى الهدف.

وقال عليه السلام في السادسة: «وَيَنْجُو الْهَارِبُ» فالعذاب الإلهي يطال عبدة الأهواء، والمتقون بعيدون عن الأهواء، وكما ورد في الآيتين ٧١ - ٧٢ من سورة مريم: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا \* ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا» وقال عليه السلام في العبارة السابعة والأخيرة التي تعتبر عصارة العبارات السابقة «وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ<sup>١</sup>»، لم عدّ الله الأتقى أكرم إنسان عنده. «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ»<sup>٢</sup> ولم كانت التقوى مفتاح الجنة «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا»<sup>٣</sup>، ولم لا ينفك الأنبياء وأئمة أهل البيت عليهم السلام وأولياء الله عن التأكيد على أن أهم شيء هو التقوى ولم كانت ضرورة في الوصية بالتقوى في كل صلاة جمعة وفي كلا الخطبتين؟

❦❦❦

١. «رغائب» جمع «رغيبة» الطلب المهم من مادة رغبة.

٢. سورة الحجرات، الآية ١٣.

٣. سورة مريم، الآية ٦٣.

## القسم الثاني

فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ،  
وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ. وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْرًا نَاجِسًا، أَوْ مَرَضًا حَاسِبًا، أَوْ مَوْتًا  
خَالِسًا. فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمٌ لِدَاتِكُمْ، وَمُكَدِّرٌ شَهْوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدٌ طِيَّاتِكُمْ. زَائِرٌ  
غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَعْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ. قَدْ أَعْلَقْتُكُمْ حَبَائِلُهُ،  
وَتَكَنَّفْتُكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَدْتُكُمْ مَعَابِلُهُ. وَعَظَمْتُ فِيكُمْ سَطَوْتَهُ وَتَتَابَعْتُ  
عَلَيْكُمْ عَدَوْتَهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبَوْتَهُ. فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلْمِهِ  
وَاحْتِدَامُ عَلَيْهِ، وَحَنَادِسُ غَمْرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَالْيَمُّ إِزْهَاقِهِ، وَدُجُوُّ  
أَطْبَاقِهِ، وَجُسُوبَةُ مَذَاقِهِ. فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّتَكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّتَكُمْ،  
وَعَفَى آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وَرَائِكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تَرَائِكُمْ، بَيْنَ حَسِيمٍ  
خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعِ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَنْفَعِ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ.

## الشرح والتفسير

المعبر الذي لا مفر منه

أوصى الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بضرورة استغلال الفرص المتاحة  
قبل حلول الأجل وأكد ذلك فقال: «فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ  
يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ<sup>١</sup>، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ<sup>٢</sup>».

١. «هادئة» من مادة «هدوء» السكوت.

٢. من عجائب الدهر أن المحقق الفاضل صاحب «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة» المعروف بشرح الخوئي،  
المرحوم الحاج الميرزا حبيب الله هاشمي الخوئي، مرض وتوفي لما بلغ هذه الخطبة، والعبارة «والعمل يرفع»

حيث أشار عليه في هذه العبارات الموجزة إلى أمر مهم: لديكم خمس فرص ما دمتم في الدنيا: أعمالكم الصالحة ترفع إلى الله ويسعكم أن تغسلوا المعاصي بماء التوبة. ودعاؤكم يسمع عند الله وأنتم وادعون فيمكنكم الإتيان بما تشاؤون من العمل الصالح وأخيراً الملائكة مستنفرون ليكتبوا صالح أعمالكم في صحيفة أعمالكم، لكن إن مرت هذه الفرصة وكنتم على أعتاب الموت ستسلبون هذه الفرص وليس لكم من زاد سوى الحزن والحسرة.

ثم قال عليه موضحاً كلامه ومكمله: «وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمرًا نَاكِسًا، أَوْ مَرَضًا حَاسِبًا، أَوْ مَوْتًا خَالِسًا».

فالواقع أن الإمام عليه شجع جميع مخاطبيه للسبق في هذه الأمور الثلاثة؛ مدّة الكهولة التي تفقد فيها جميع الأعضاء قوتها وقدرتها والتي أسماها القرآن الكريم «أرذل العمر» والأمراض التي تطول أحياناً وتسلب الإنسان نشاطه وحيويته فلا يقدر على الإتيان بالعبادات بصورة تامة ولا خدمة المؤمنين وقضاء حوائجهم، والموت الذي شبهه عليه بالسارق الذي يسرق كل شيء من الإنسان خلصة.

ثم وضع حقيقة الموت من خلال ذكره لست من خصائصه، الموت الذي لا مهرب منه ولا مفر لأحد من ملاقاته فقال: «فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمٌ لِدَاتِكُمْ، وَمُكَدِّرٌ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدٌ طِبَّاتِكُمْ»<sup>٢</sup>. زَائِرٌ غَيْرٌ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرٌ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرٌ مَطْلُوبٌ».

ويدل هذا التزامن على قبول عمله عند الله ورفع له فواصل المحقق الجليل الشعراني الشرح من الجزء الرابع إلى الرابع عشر ثم واصل تلميذه حسن زادة الأملي شرح الجزء الخامس عشر حتى التاسع عشر وشرح الجزءين الآخرين العشرين والحادي والعشرين بقلم المرحوم الحاج محمد باقر الكمرني حتى انتهى الشرح:

١. «ناكس» من مادة «نكس» على وزن «حدس» قلب الشيء.

٢. «خالس» الخاطف من مادة «خلس» على وزن «فلس» خطف الشيء بالحيلة والاختلاس بهذا المعنى.

٣. «طيات» جمع «طية» الجانب والجهة والهدف. من مادة «طي» على وزن «حي» الجمع والترتيب وتستعمل أحياناً بمعنى العبور وطي الطريق.

٤. «قرن» الكفو في الشجاعة.

٥. «واتر» الجاني من مادة «وتر» على وزن «سفر» رامي السهم.

فقد حذر عليه السلام من أن الزائر الذي يقدم على الجميع والرامي المصوب نحو الجميع والأشوس الذي يعجز عن مواجهته الجميع. فإن قدم حطم كل شيء فطوى بساط العيش وصادر اللذات والمتع وحمل معه الإنسان، والأهم من كل ذلك أنه لا يعرف من معنى للزمان والمكان. حقاً أن هذه العبارات البليغة العميقة المعنى موقظة ومحركة توقظ الغافلين وتفيق التملين.

وكما خاض عليه السلام في ستة خصائص أخرى للموت ليكمل كلامه السابق فقال: «قَدْ أَعْلَقْتُمْ حَبَائِلَهُ، وَتَكَنَّفْتُمْ<sup>١</sup> غَوَائِلَهُ<sup>٢</sup>، وَأَقْصَدْتُمْ مَعَابِلَهُ<sup>٣</sup>. وَعَظَّمْتُمْ فِيكُمْ سَطَوْتَهُ وَتَتَابَعْتُمْ عَلَيْكُمْ عَدَوْتَهُ<sup>٤</sup>، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبَوْتُهُ<sup>٥</sup>».

شبه الإمام عليه السلام الموت في هذه العبارات الرائعة بصياد رمى شباكه نحو جميع الناس وأخرى برام لا تطيش سهامه أو سياف قاطع بسيفه.

نعم، إن شك الإنسان في كل شيء فلن يشك في الموت ونهاية الحياة. يركع له صناديد أبطال العالم ويقع في شباكه أذكى الأذكىاء وكفى به أنه لم يستثن حتى الأنبياء والأولياء وكما قال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»<sup>٦</sup>.

وأشار عليه السلام إلى سبعة أمور أخرى بشأن حملات الموت على الإنسان والعجز عن مواجهته فقال: «فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي<sup>٧</sup> ظُلَلِهِ<sup>٨</sup> وَاحْتِدَامُ<sup>٩</sup> عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ<sup>١٠</sup>

١. «تكنف» من مادة «تكنف» الإحاطة بالشيء.

٢. «غوائل» جمع «غائلة» الشر والداهية.

٣. «معابل» جمع «معبل» على وزن «مدخل» النصل الحاد.

٤. «عدوة» العدوان.

٥. «نبوة» الخطأ في الضربة بالسيف والسهم ونحوه.

٦. سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

٧. «دواجي» جمع «داجية» الظلمة من مادة «دجو» على وزن «غلو».

٨. «ظلل» جمع «ظلة» على وزن «قلة» السحابة.

٩. «الإحتدام» الاشتداد من مادة «حدم» على وزن «حتم».

١٠. «حنادس» جمع «حنديس» على وزن «قبرص» الظلمة الشديدة.

غَمَرَاتِهِ<sup>١</sup>، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِزْهَاقِهِ<sup>٢</sup>، وَدُجُوُّ<sup>٣</sup> أَطْبَاقِهِ<sup>٤</sup>، وَجُشُوبَةٌ<sup>٥</sup> مَذَاقِهِ». حيث بين عليه السلام بهذه الحملات السبع وبمختلف العبارات وبأدق وصف، اللحظات الرهيبة آخر العمر، لحظات مهولة وموحشة للغاية، لحظات مظلمة ودامية وصف عليه السلام ظلمتها بأربع مفردات مختلفة (دواجي، حنادس، غواشي ودجو) تكشف مدى بلاغة الإمام عليه السلام وتنوع الألفاظ يضاعف فصاحة كلماته وبلاغتها.

ثم حذر عليه السلام مخاطبيه من نزول الموت المفاجئ وضرورة اليقظة في أن هذا الموت لا يقبل دائماً بعد مقدمات طويلة وأمراض، بل ما أكثر أن يحلّ ويفني كل شيء بلحظة فقال: «فَكَأَنَّ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّتَكُمْ<sup>٦</sup>، وَفَرَّقَ نَدِيَّتَكُمْ<sup>٧</sup>، وَعَقَى<sup>٨</sup> آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَثَانَكُمْ، يَفْتَسِمُونَ ثُرَاتِكُمْ».

وموت الفجأة الذي كان وما زال يفاجئ الناس، أعظم عبرة من غيره، حيث لا يعرف صغيراً أو كبيراً ويظال الإنسان كيفما كان، وقد ذكر المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغة عدداً من الأنبياء ومنهم موسى وداود وسليمان الذين ماتوا موت الفجأة، نعم، ظاهر القرآن بشأن سليمان يشهد أن ملك الموت توفاه واقفاً مستنداً على عصاه ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتِهِ﴾<sup>٩</sup>.

١. «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربة» الشدائد و«غمرات الموت» شدائد وصعاب الموت والاحتضار التي تصيب الإنسان فالغمرة تقال للماء الكثير الذي يأخذ الشيء.

٢. «ارهاق» من مادة «رهب» على وزن «شفق» تغطية الشيء بالقهر والغلبة ويطلق على الأعمال الشاقة، جدير ذكره وردت في بعض النسخ بدل «ارهاق»، «ازهاق» من مادة «زهوق» الاضمحلال والهلكة و«ازهاق الروح» فصل الروح عن البدن.

٣. «الدجو» الظلمة كما ورد أعلاه.

٤. «اطباق» جمع «طبق» وضع شيء على آخر كأن للظلمة طبقات تتراكم على بعضها.

٥. «الجشوبة» الخشونة؛ سواء في الطعام أو الكلام وما شابه ذلك.

٦. «النجي» المناجي والذي يهمس في الأذن من مادة «نجوى».

٧. «الندى» الجماعة الذين يجتمعون للمشورة أو الأحاديث المتعارفة.

٨. «عقى» أزال الأثر من مادة «عفى» له عذة معانٍ بحكم باب التفعيل منها المحو.

٩. شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري، ج ١١، ص ٢٧٥.

حتى شوهد البعض وقد توفي وهو يتحدث، فذكر المبتدأ ولم يبلغ الخبر. فقد بين عليه السلام في هذه العبارات آثار الموت في وسط المتبقين حيث لا ينقطع كلامه الظاهري فحسب، بل يخمد حتى الهمس؛ فيتفرق عنه الحاضرون فجأة وسرعان ما تزول آثار الإنسان ويفرغ بيته وينطفئ ضياؤه وإن كان هنالك من ضجيج فيبين الورثة الذين عادة ما يتنازعون على الميراث وكأنهم لا يدرون أنهم سيلتحقون بالموتى عن قريب.

ثم قسم عليه السلام الورثة في ختام هذه الفقرة إلى ثلاث؛ فئة من خواص الإنسان؛ إلا أن مودتهم تزول آنذاك: «بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعِ».

والثانية، القرابة المحزونة والملتاعة التي لا يسعها دفع الموت «وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعِ». والثالثة، العدو الشامت الذي لا يجزعه موت «وَأَخْرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعِ». وأشار الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من كلامه إلى موت الفجأة؛ السكته القلبية أو الدماغية والحوادث الأليمة المتنوعة التي تفني الإنسان في لحظة، الموت الذي لا يأبه بمكانة الأشخاص ولا بعمرهم فيطال كما مضى حتى الأنبياء، وبألها من عبرة يختزنها هذا الموت الذي يحدث كثيراً ويزداد يوماً بعد آخر، ففي لحظة آنية ينتهي كل شيء ويتفرق الجمع ويغتتم الصديق ويفرح العدو - وبألهم من غافلين أولئك الذين يتجاهلون هذه الحوادث وينهمكون بالذنوب والمعاصي ويقارفون أنواع الآثام بغية الحصول على المال. نعم إن هؤلاء المغفلين ينسون طبيعة ظروف حياتهم. ورد في كتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة: فلما كانت سنة إحدى وخمسين، مرض الحسن بن علي مرضه الذي مات فيه، فكتب عامل المدينة إلى معاوية يخبره بشكاية الحسن، فكتب إليه معاوية: إن استطعت ألا تعضي يوم يمر بي إلا يأتيني فيه خبره فافعل؛ فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفي (الإمام الحسن عليه السلام)، فكتب إليه بذلك، فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك عبدالله بن عباس وكان بالشام يومئذ، فدخل على معاوية، فلما جلس قال معاوية:

يا ابن عباس هلك الحسن بن علي، فقال ابن عباس: نعم، هلك ﴿إِنَّا لِلَّهِ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾<sup>١</sup> ترجيعاً مكرراً، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته، أما والله ما سدَّ جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك ولئن أصبنا لقد أصبنا بمن كان خيراً منه، جدّه رسول الله ﷺ فجبر الله مصيبتَه، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة، ثم شهق ابن عباس وبكى، وبكى من حضر في المجلس، وبكى معاوية فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم<sup>٢</sup>.

وجاء في «تاريخ الطبري»: عندما وصل خبر وفاة علي عليه السلام إلى معاوية فرح فرحاً شديداً، وكذلك لما انتهى الخبر إلى عائشة قتل علي عليه السلام وقالت:

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ  
فَقَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ: أَلْعَلِّي تَقُولِينَ هَذَا، فَقَالَتْ: إِنِّي أَنْسَى فَإِذَا نَسِيتُ  
فَذَكَّرُونِي<sup>٣</sup>.

نعم، فمثل هؤلاء الأشخاص الغفلة ينسون ما هم عليه من العيش الدوني والانحراف وحب الدنيا والقدرة.

١. سورة البقرة، الآية ١٥٦.

٢. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ص ١٧٥.

٣. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١١٥.

## القسم الثالث

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُبِ وَالْإِسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ.  
وَلَا تَغْرَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ،  
وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا،  
وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا. وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِينُهُمْ أَجْدَانًا، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا. لَا يَعْرِفُونَ مَنْ  
أَتَاهُمْ، وَلَا يَخْفَلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ. فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا  
غَدَارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لَا يَدُومُ رِخَاؤُهَا،  
وَلَا يَنْقُضِي عَنَاؤُهَا، وَلَا يَزَكُّ بِلَاؤُهَا.

## الشرح والتفسير

### الدنيا الغرارة!

متابعة لبحث الإمام عليه السلام في شدائد الموت وفناء الحياة في المقطع السابق خاطب  
الجميع فأوصاهم بالتزود من الدنيا ما دامت الفرصة قائمة وعدم الاغترار بزخارفها  
ولذاتها والاعتبار بالماضيين فقال: «فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُبِ  
وَالْإِسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ».

قال بعض الشراح في الفارق بين الجد والاجتهاد أن الجد يشير إلى مرحلة العزم  
على الإتيان بالفعل والاجتهاد مرحلته العملية، والتأهب إشارة إلى النية على  
الاستعداد والاستعداد جانبها العملي<sup>٢</sup>.

١. «التأهب» الاستعداد للشيء من «الأهبة» وله أحياناً معنى المصدر والاسم الجامد.

٢. شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي، ج ١٤، ص ٤١٩.



لكن لم يذكر لذلك أي دليل من اللغة أو القرائن المتصلة والمنفصلة ولا يبعد أن يكون الجد حين يقترن بالاجتهاد إشارة إلى أنه ينبعث من الإنسان نفسه ولعل الفارق بين التأهب والاستعداد كذلك، طبعاً لا يستبعد احتمال التأكيد.

ثم قال: «وَلَا تَفْرَنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ».

نعم، يمكننا مشاهدة مصير حياتنا بصورة شفافة في مرآة حياة الآخرين وهذه حقيقة أكدها الإمام عليه السلام في عدة خطب من «نهج البلاغة» فتأخذ بأيدينا لتضعنا في تاريخ الماضين؛ التاريخ التكويني لا التدويني الذي يتجلى في أطلال قصورهم الخربة والآثار الباقية من معيشتهم المترفة.

ولحسن الحظ فإن المتاحف التي تضم الكثير من آثار الماضين يمكنها أن ترشدنا؛ فعرش الملك الفلاني وتاجه هنا والمهند المرصع وجواهر الأمر الكبير هناك وفي زاوية الأجساد المحنطة للفراعنة، مع أن طلاب الدنيا شوهوا هذا الموضوع المهم وأحالوه إلى صورة أخرى من الاستفراق في الدنيا؛ فأصبحت المتاحف وسيلة تدر الأرباح على أصحابها.

وقال الهيثم بن عدي، عن رجاله: بينا حذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي يتذاكران أعاجيب الزمان، وتغير الأيام، وهما في عرصة أيوان كسرى، وكان أعرابي من غامد يرعى شويهاً له نهاراً، فإذا كان الليل صيرهنّ إلى داخل العرصة، وفي العرصة سرير رخام كان كسرى ربّما جلس عليه، فصعدت غنيمات الغامدي على سرير كسرى، فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامدي على سرير كسرى<sup>١</sup>.

مَقَامُكَ فِيهَا لَوْ عَقَلْتَ قَلِيلُ  
لَمَنْ كَانَ يَوْمًا يَقْتَضِيهِ رَجِيلُ

أَتَبْنِي بِنَاءَ الْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا  
لَقَدْ كَانَ فِي ظِلِّ الْأَرَاكِ كِفَايَةُ

ثم تناول عليه السلام حال الماضين ببضع عبارات موجزة فقال: «الَّذِينَ اخْتَلَبُوا<sup>١</sup> دِرَّتَهَا<sup>٢</sup>، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا<sup>٣</sup>، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا<sup>٤</sup> جِدَّتَهَا<sup>٥</sup>. وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِينُهُمْ أَجْدَانًا<sup>٦</sup>، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثًا. لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلَا يَحْفَلُونَ<sup>٧</sup> مَنْ بَكَاهُمْ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ».

العبارات: «الَّذِينَ اخْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا...» والعبارات... إشارة إلى الأشخاص الذين تمتعوا بجميع ملذات الدنيا. وكان لبناً في ثدي الدنيا فحلبوه وشربوه إلى آخره واستغلوا كل متع الدنيا ولكنهم كأن لم يلبثوا فيها فكانوا طبق العبارة «وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِينُهُمْ أَجْدَانًا».

ولهذه العبارة القيمة معنيان ؛ الأول: انتقلوا من قصورهم إلى القبور، والآخر: إن قصورهم تهدمت عليهم بفعل بعض الحوادث المهولة كالزلزلة فأضحت قبورهم. ويبيّن عليه السلام بالدقة في العبارات الخمس الأخيرة التي تبدأ بـ (أصبحت) أنهم اغتربوا عن الدنيا بحيث لم يعودوا يعرفون من يزورهم ويبيكيهم من قرابتهم ومعارفهم ولا يسمعون صراخهم.

طبعاً هذا بخصوص أصحاب الدنيا الذين نسوا الله ولم تكن حصيلة أعمارهم سوى التهافت على الدنيا، أما المؤمنون الصالحون حسب ما ورد في الرواية فيعرفون من يقف على قبورهم ويأنسون بهم ويغتمون لانصرافهم.

قال أحد أصحاب الكاظم عليه السلام إسحاق بن عمار: سألته عن المؤمن يعرف من يزوره في قبره؟ فقال: «نَعَمْ وَلَا يَزَالُ مُسْتَأْنَسًا بِهِ مَا دَامَ عِنْدَ قَبْرِهِ فَإِذَا قَامَ وَانْصَرَفَ

١. «احتلبوا» من «حلب» على وزن «طرب» و«حلب» على وزن «حرب» بمعنى استخراج الحليب.

٢. «درة» اللبن أو الحليب الكثير.

٣. «غرة» الغفلة والسهولة.

٤. «أخلقوا» من مادة «أخلاق» القدم من مادة «خلق» على وزن «ورق» التاكل.

٥. «جدة» جديد ولهذه المفردة معنى الاسم.

٦. «أجدات» جمع «جدث» على وزن «هوس» القبر.

٧. «لا يحفلون» لا يبالون من مادة «حفل» على وزن «حرب» الاهتمام.

مِنْ قَبْرِهِ دَخَلَهُ مِنْ إِنْصِرَافِهِ عَنْ قَبْرِهِ وَخَشَةً»<sup>١</sup>. ثم استنتج بإيالة عقب ذلك «فَاخْذَرُوا الدُّنْيَا».

ثم أورد ثمان صفات للدنيا (أو عشرة على قول) كأدلة دامغة على الحذر من الدنيا فقال: «فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ<sup>٢</sup>، لَا يَدُومُ رِخَاؤُهَا، وَلَا يَنْقُضِي عَنَاؤُهَا، وَلَا يَزُكُّ<sup>٣</sup> بِلَاؤُهَا».

والمفردات «غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ» وإن كانت متقاربة من حيث المعنى لكنها في الواقع تختلف في الدقة؛ غدارة من مادة غدر نقض العهد، وغرارة من غرور، الخدوع من خدعة الحيلة وتعلم أنها متفاوتة وإن كانت غالباً من قبيل اللازم والملزوم، نعم، فالدنيا لا تفي لأحد وزخارفها تغرّ العديد من الناس ومختلف مناظرها ومشاهدها خدعة، العبارة «مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ» تعود لصفة؛ أي لا تكاد تعطي الإنسان شيئاً حتى تسترده، فلا يمضي عهد الشباب حتى تحل الكهولة ولا يذوق السلامة حتى تطاله الأمراض.

وذهب بعض الشراح إلى أن هاتين الصفتين منفصلتان وقال: الدنيا تعطي الأشياء التافهة وتمنع الأشياء القيمة، فلا قيمة لعطائها ولا يطاق منعها. كما هنالك تفسيران للعبارة «مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ»: الأول: إنه وصف مفهومه أن الدنيا تكسو الإنسان لباساً جميلاً من القدرة والعظمة وتنزعه بعد مدة قليلة من قبل الآخرين، أو المراد أنها تلبس ثياباً تافهة وتنزع ثياباً قيمة والتفسير الأول يبدو أصح في كلتا العبارتين.

وهنالك اختلاف واضح بين المفردات (رِخَاءٌ) و(وعناء) و(بلاء) فالرخاء، الهدوء الذي قلما يحصل في الدنيا، والعناء، المتاعب والمصاعب التي تطال دائماً أهلها،

١. الكافي، ج ٣، ص ٢٢٨ باب زيارة القبور، ح ٤.

٢. «نزوع» من مادة «نزع» على وزن «نذر» الفصل.

٣. «لا يركد» من مادة «ركود» السكون وانعدام الحركة.

والبلاء، الحوادث الأليمة سواء الحوادث الطبيعية كالزلازل والسيول والعواصف أم  
البلايا التي يصنعها الإنسان كالحروب، وزيدة الكلام: الدنيا دار لا تدوم.

﴿٣٦﴾



## القسم الرابع

مِنْهَا فِي صِفَةِ الزُّهَادِ: كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَخْذَرُونَ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَامًا لِمَوْتِ قُلُوبِ أَخْيَانِهِمْ.

## الشرح والتفسير

### الزهاد الحقيقيون

قال الإمام عليه السلام في الجانب الآخر من هذه الخطبة الذي يشير تعبير السيد الرضي أنه مستقل عما سبق لأنه يقول (منها في صفة الزهاد). «كَانُوا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا».

هذه هي الصفة الأولى من الصفات الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام للزهاد في هذه العبارة. من الواضح أن لا تناقض قط في العبارة، فالمراد أن جسمهم في الدنيا لكن روحهم وقلوبهم معلق بالآخرة.

وقد جرب ذلك كل شخص في حياته أن قلبه حين ينشغل بقضية مهمة يكون فكره متعلق بموضوع آخر وإن كان وسط أي جماعة، وتؤدي هذه الصفة إلى اختلاف أعمال الزهاد مع أصحاب الدنيا، فهؤلاء يجدون في التزود من الدنيا وأولئك في التزود لها، ودليل ذلك واضح أن الزهاد لا يرون الدنيا سوى مرر والحياة الواقعية حسب القرآن هي الدار الآخرة «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»<sup>١</sup>.

١. سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

ثم أشار عليه السلام إلى الصفة الثانية «عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ».

ومن ثم قال عليه السلام: «وَبَادَرُوا<sup>١</sup> فِيهَا مَا يَخْذَرُونَ». فهؤلاء يرون ببصيرتهم سبل النجاة ويقفون على عناصر السعادة والفلاح، ومن هنا يلهثون وراءها دائماً، ويعرفون من جانب آخر عوامل البؤس والشقاء، لذلك يسعون للهروب منها وعدم التلوث بها.

وقال في الصفة الرابعة: «تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِي<sup>٢</sup> أَهْلِ الْآخِرَةِ». نعم فهم يعيشون مع الجميع ظاهرياً؛ إلا أن معاشريهم الحقيقيين أهل الآخرة، كونهم يعلمون أن معاشرتهم لأصحاب الدنيا تमित قلوبهم، فلا شيء في مجالسهم سوى الدنيا ولذاتها، فهم في الواقع أموات بصورة أحياء.

ثم قال في الصفة الخامسة والأخيرة: «وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعْظَمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ».

يستفاد من الصفات الخمس المذكورة أن معنى الزهد وحقيقته ليس في كون الإنسان فقيراً ومعدماً أو يتخلى عن الحياة الاجتماعية والتفوق في زاوية للعبادة؛ بل حقيقة الزهد أن يرى الأولوية للدار الآخرة في كل شيء وحيثما كان ولا يكون أسير زخارف الدنيا والأهواء والشهوات، وجاء في خطبة أخرى للإمام عليه السلام.

«أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قَصْرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ»<sup>٣</sup>.

وقد بحثنا بما فيه الكفاية حقيقة الزهد في تلك الخطبة.



١. «بادروا» من «المبادرة» الاسراع في العمل أحياناً وأخرى السبق (تتعدى الأولى بدون «الى» وتتعدى الثانية بـ«الى»).

٢. «ظهراني» يعنى وسط شخصين أو أشخاص والأصل «ظَهْرَيْنِ» تشبیه «ظَهْر» وكان للإنسان داعم من أمامه وخلفه إن كان وسط جماعة ثم أضيف له الألف والنون للتأكيد ونون التشبیه حذفت عند الإضافة لتصبح «بين ظهراني» وعليه «بين ظهراني» أن يكون الإنسان بين أفراد يحمونه. (راجع مادة ظهر في لسان العرب).

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٨١.

## فَمِنْ خُطْبَتَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

خَطْبُهَا بِذِي قَارٍ<sup>١</sup> وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْبَصْرَةِ، ذَكَرَهَا الْوَاقِدِيُّ<sup>٢</sup>  
فِي كِتَابِ «الْجَمَلِ»:<sup>٣</sup>

### نظرة إلى الخطبة

يفيد مستهل الخطبة أن ما ورد ذكره من جانب من خطبة مفصلة أوردها الإمام عليه السلام في ذي قار ولا يبدو مستبعداً أن تكون هذه الخطبة متممة للخطبة ١٠٤ والتي تبدو امتداداً للخطبة ٣٣ والتي قيلت في ذي قار. على كل حال أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى أمرين مهمين؛ الأول: إنَّ النبي الأكرم ﷺ أبلغ ما أمر به وأتى بوظيفته بأكمل وجه. والآخر: إنَّ إحدى المهام الرئيسية للنبي الأكرم ﷺ توحيد الصفوف وتكوين المجتمع الإسلامي الموحد وحصد العداوات من الصدور.

١. «ذى قار» منطقة قرب البصرة وقعت فيها الحرب بين العرب والفرس قبل الإسلام.

٢. محمد بن عمر الواقدي من مفسري ومؤرخي القرن الهجري الثاني والمتوفى سنة ٢٠٧ هجرية.

٣. سند الخطبة:

رغم أنَّ المرحوم السيد الرضي نقل هذه الخطبة من كتاب «الجمال» للواقدي إلا أنَّ صاحب «مصادر نهج البلاغة» ذكر أنه رواها ابن عبد ربه المالكي في «العقد الفريد» والمرحوم المفيد في «الإرشاد». ورواها ابن أبي الحديد بصورة مفصلة في شرحه لنهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٦).





فَصَدَعُ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ،  
وَ أَلْفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاعِرَةِ فِي الصُّدُورِ،  
وَالضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ.

## الشرح والتفسير

### النبي ﷺ حصد العدا من الصدور

قال الإمام عليؑ بعد بيانه لمقدمات في خطبته بذوي قار: «فَصَدَعُ بِمَا أَمَرَ بِهِ، وَبَلَغَ  
رِسَالَاتِ رَبِّهِ».

بالنظر إلى أن (صدع) من مادة (صدع) على وزن (صبر) تعني لغة الشق أو الشق  
في الأجسام المحكمة أو شق الشيء فيظهر باطنه، فإن هذه المفردة تعني الظهور  
والوضوح وقد استعملت هنا كون إبراز حقيقة التوحيد في ذلك الوسط الجاهلي  
المليئ بالشرك بمثابة شق تلك الحجب الضخمة للكفر والانحراف، والواقع انها  
اقتباس من الآية ٩٤ من سورة الحجر ﴿فَأُصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة «وَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ» أن في «بلغ» مفهوم  
التأكيد والتكرار. وعليه فمفهوم العبارتين أن النبي أظهر الحق وأكد عليه.

ثم خاض عليؑ في إحدى أهم وأمثل خدمات النبي الأكرم ﷺ فقال: «فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ  
الصَّدْعَ، وَرَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَأَلْفَ بِهِ الشَّمْلَ<sup>١</sup> بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاعِرَةِ<sup>٢</sup>

١. «الشمل، الجمع وله أحيانا معنى اسم المصدر ويعني الاجتماع.

٢. «الواغرة، الحارة والساخنة من مادة «وغر» على وزن «فقر» شدة الحرارة وهي تستعمل بمعنى البفض  
والعداء الشديد.

فِي الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ<sup>١</sup> الْقَادِحَةِ<sup>٢</sup> فِي الْقُلُوبِ».

فقد ذكر الإمام عليه السلام في وحدة الكلمة التي بثها النبي الأكرم عليه السلام بين صفوف الأمة رغم كل تلك الاختلافات ثلاثة تعابير:

الأول: التعبير بـ «لم» على وزن (غم) بمعنى الجمع أو الجمع المقرون بالإصلاح ويصبح مفهومه أن النبي الأكرم عليه السلام ردم تلك الهوة في ظل التعاليم الإسلامية بحيث لم يعد هنالك من أثر للماضي.

الثاني: التعبير بـ «رتق» الذي يعني ترقيع القطع الممزقة ولعله تأكيد على العبارة السابقة أو إشارة إلى الموارد التي كانت متصلة سابقاً وانفصلت، ثم وصلها.

الثالث: التعبير بـ «تأليف» الذي يعني الجمع المقترن بالأنس والإنسجام الذي ذكر بخصوص ذوي الأرحام، فكثيراً ما كان الأب والابن أو الأخ يتنازعون على بعض المصالح البسيطة في الجاهلية، وقد ألف بينهم رسول الله عليه السلام على هدى الإيمان ومبادئ الإسلام.

النتيجة: إن الألفاظ الثلاثة يمكن أن تكون تأكيداً لبعضها البعض الآخر ويمكن أن يكون كل تعبير في نوع من الاختلاف في المجتمع. كما يحتمل أن تكون العبارة (تأليف الشمل) مرتبطة باختلافات الأسرة والقراية، ورتق إشارة لزوال الاختلافات القبلية و(لم) إشارة لرفع الاختلافات عن المجتمع وتوحيد صفوفه.

على كل حال لم يكن يصدق أحد أن يتحول يوماً ذلك المجتمع الصغير في العصر الجاهلي رغم كل تلك الاختلافات العجيبة والرهيبية إلى مجتمع موحد كبير الذي قصم بوحدته ظهر الأعداء وكان بحق معجزة ربانية كما قال القران: «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ \* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ»<sup>٣</sup>.

١. «الضغائن» جمع «ضغينة»، العداوة الشديدة وتعني في الأصل التغطية المقرونة بالانحراف.

٢. «القادحة» المشتعلة من مادة «قدح» على وزن «مدح» إشعال النار.

٣. سورة الأنفال، الآيتان ٦٢ و ٦٣.

## وَمِنْ كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

كَلَّمَ بِهِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زَمْعَةَ<sup>١</sup>، وَهُوَ مِنْ شِيعَتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيْهِ فِي خِلَافَتِهِ يَطْلُبُ مِنْهُ مَالاً، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>٢</sup>

### نظرة إلى الخطبة

كما ورد في عنوان هذا الكلام فإنَّ عبد الله بن زمعة طلب مالا من الإمام عليه السلام وكان من شيعته فلم يجبه، حيث كان المال من الغنائم الحربية ولا حق فيه سوى للمقاتلين ولم يكن له حق لأنه لم يشترك في القتال.

۴۰۰۹

١. عبدالله بن زمعة بن الأسود من أعدى أعداء النبي الأكرم ﷺ. عبدالله ابن أخت أم سلمة وصهرها وقد قتل الإمام عليه السلام أباه وعمه وأخاه في بدر (راجع دائرة المعارف الشيعية للمرحوم الأعلمي: ج ١٢ ص ٣٠٥ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ١٠؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ج ٥، ص ١٩٢).

٢. سند الخطبة:

المصدر الوحيد الذي عثر عليه صاحب كتاب المصادر في هذه الخطبة غير نهج البلاغة، غرر الحكم للآمدي في حرف الألف باختلاف يفيد أنه أخذها من مصدر آخر. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٨).



إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِيءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلَبُ أَسْيَافِهِمْ،  
فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَازَةٌ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ  
أَقْوَامِهِمْ.

## الشرح والتفسير

### غنائم المقاتلين

رغم أنّ المراد بهذا الكلام شخص معين؛ أي عبد الله بن زمعة الذي اعتنق الإسلام وكان من شيعة علي عليه السلام بخلاف أبيه وجدّه اللذين لم يعتنقا الإسلام وكانا من الأعداء، إلّا أنّ مضمون الكلام موضوع يصدق على جميع المسلمين، وهو أنّ أي مال من بيت مال المسلمين لا بدّ أن يصرف في الموارد التي عينها الشارع ولا ينبغي تقديم الروابط على الضوابط بهذا الشأن.

وتشير قرائن الكلام إلى أنّ عبد الله طلب سهماً من الأموال التي كانت بين يدي الإمام وتعتبر من غنائم الحرب، إلّا أنّ الإمام عليه السلام قال له: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِيءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلَبُ أَسْيَافِهِمْ».

لا بدّ من الالتفات رغم أنّ مفردة (الفيء) إن كانت مقابل الغنيمة فلها معنيان مختلفان؛ فالفيء يطلق على الأموال التي تقع في أيدي جند الإسلام دون قتال وتعلق حسب الموازين الشرعيّة ببيت المال؛ أمّا الغنيمة فهي الأموال التي يجنيها المقاتلون بواسطة القتال، لكن إن استعملت الفيء بمفردها أطلقت أحياناً على الغنيمة، وعليه فقولهُ عليه السلام: «هُوَ فِيءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلَبُ أَسْيَافِهِمْ»، لا ينافي مفهوم الفيء.

ثم قال عليه السلام: «فإن شَرِكْتَهُمْ فِي حَزْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَازَةٌ<sup>١</sup> أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَقْوَاهِهِمْ».

وقوله عليه السلام ليس لي من سهم في هذه الأموال ربّما يرتبط بالمعارك المحدودة التي يخوضها بعض قوَّاد الإمام وليس الإمام عليه السلام، صحيح أن خمس الغنائم الحربية لبيت المال، وصحيح أن عبد الله بن زمعة كان من بني المطلب (المطلب أخو هاشم) وليس بني هاشم، ويرى البعض أن بني المطلب يستحقون الخمس<sup>٢</sup>.

لكن ربّما لم يكن فقيراً ليعطيه شيئاً من الخمس، على كلّ حال يشير هذا الكلام إلى أن الإمام عليه السلام كان في غاية الدقّة في الأموال ولا يسمح بإعطاء حق مسلم لآخر وإن كان من صحبه الأوفياء، بخلاف عهد عثمان الذي يعتقد المؤرخون بأن بيت المال لم يكن خاضعاً لحساب وكتاب، وما أجدد أن يكون كلام الإمام عليه السلام جدول عمل لجميع زعماء الأمة الإسلاميّة والالتزام بالحق والعدل في بيت المال حتى بالنسبة لحاشيتهم ومقربيهم.

كما يستفاد من الكلام أن عبد الله بن زمعة لم يكن تام المعرفة بالإمام ليطلب منه ذلك ولم يكن يعلم أن الإمام عليه السلام عامل أخاه عقيل كذلك وإلّا لما طلب منه.



١. «جنازة» الثمار التي تقطف من الشجرة وهي مفرد من مادة «جنا» على وزن «جفا».

٢. أنظر: جواهر الكلام، ج ١٦، ص ١٠٦؛ المعتبر المحقق الحلّي، ج ٢، ص ٦٣١، كتاب الخمس.

## وَمِنْ كَلَامِ إِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

بَعْدَ أَنْ أَقْدَمَ أَحَدُهُمْ عَلَى الْكَلَامِ فَحَصَرَ، وَهُوَ فِي فَضْلِ  
أَهْلِ الْبَيْتِ، وَوَصَفِ فَسَادِ الزَّمَانِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين:

الأول: بشأن أهميّة التكلم وحرمان البعض من هذه النعمة. ومن ثم أشار إلى

تماميّة هذه النعمة العظيمة في أهل البيت عليهم السلام.

وشرح في القسم الثاني الوضع على عهده والذي انحدر فيه الناس إلى الفساد إثر

توليهم عن تعاليم الإسلام فذلّ أصحاب الحق وكل أصحاب الصدق وساءت أخلاق

الشبان وأثم الكهول وغدا عالمهم منافق والصديق خائن.

#### ١. سند الخطبة:

لما بلغ ابن أبي الحديد هذه الخطبة في شرحه لنهج البلاغة قال: اعلم أنّ هذا الكلام بيّنه أمير المؤمنين عليه السلام في حادثة اقتضت ذلك حيث أمر ابن أخته جعدة بن هبيرة المخزومي أن يخطب بالناس، فصعد المنبر لكن (لجلالة الإمام وعظم الجماعة) لم يستطع الكلام ونزل. فصعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر وأورد هذه الخطبة الطويلة التي ذكر السيد الرضي هنا بعضها (ويتضح من هذا الكلام أنه أخذها من مصدر آخر). ورواها باختلاف المرحوم الكليني في «روضة الكافي» والأمدي في «غرر الحكم»، كما رواها الزمخشري في الجزء الأول من كتابه «ربيع الأبرار» (مصادر نهج البلاغة: ج ٣، ص ١٧٩).



ومن هنا حثهم على العودة إلى طريق الحق واليقظة قبل أن يصيبهم العذاب

الإلهي.

## القسم الأول

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ،  
وَلَا يُمَهِّلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ. وَإِنَّا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنْشَبَتْ عُرُوقُهُ،  
وَ عَلَيْنَا تَهَدَّتْ عُصُونُهُ.

## الشرح والتفسير

### نحن أمراء الكلام

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى أمرين :

الأول: يتلعم البعض حين الخطابة وينطلق بها البعض الآخر فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ<sup>١</sup> مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ، وَلَا يُمَهِّلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ». قطعة اللحم هذه المسماة باللسان من عجائب خلق الله، فبحركات سريعة للغاية ودقيقة ومنظمة يصنع الحروف الثمانية والعشرين أو الاثني والثلاثين فيصفها خلف بعضها لبيّن مجموعها جميع هواجسه ورغباته المادية والمعنوية، فيفصح بها عن المحاسن والمساوي والجميل والقيبح، والطريف أن لكل قوم لغتهم فهناك أكثر من ألف لغة في العالم، وقد منحت هذه النعمة للإنسان وحده ليجيد الكلام فهي على درجة من الأهمية بحيث ذكرها الله في طليعة سورة الرحمن التي شرحت نعم الله: ﴿الرَّحْمَنُ \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ<sup>٢</sup> \* طَبْعاً لَا يَنْبَغِي أَنْ نَنْسَى أَنْ

١. «بضعة» (بفتح الباء) و«بضعة» (بكسر الباء) القطعة من كل شيء ويقال أحياناً حين يكون الشخص شديد

القرب من آخر: «هو بضعة مني».

٢. سورة الرحمن، الآيات ١ - ٤.

المهم إمرة الروح بالنسبة للسان، فإن كانت هذه الإمرة جاهزة انطلق اللسان بالفصاحة والبلاغة بسهولة وإن غابت هذه الجاهزية تلعثم اللسان، والامتناع والاتساع الذي نسب في العبارة للسان المراد منه في الواقع امتناع واتساع روح الإنسان.

فالحق لقد بين الإمام عليه السلام سبب نجاح أو فشل الإنسان في الخطابة من خلال هذا الكلام ضمن إشارته لأهمية اللسان والنطق.

ثم قال عليه السلام: «وَأَنَا لَأَمْرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنْشَبَتْ<sup>١</sup> عُرُوقُهُ<sup>٢</sup>، وَعَلَيْنَا تَهَدَّتْ<sup>٣</sup> عُصُونُهُ».

فقد شبه الكلام في هذه العبارة الرائعة بالشجرة الضخمة ذات الأغصان والجذور وأضاف أن هذه الشجرة المورقة متجذرة في أرض وجودنا واطلنتنا أغصانها ومن هنا سمي أهل بيت الوحي «أمراء الكلام».

وكلنا نعلم أن ذلك ليس مجرد ادعاء، بل حقيقة يعترف بها العدو والصديق فقد كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أفصح العرب، وكيف لا يكون كذلك وعلى لسانه جرى كلام الله الذي بلغت فصاحته الاعجاز، وفصاحة أمير المؤمنين عليه السلام أشهر من نار على علم وخطب «نهج البلاغة» مما تناقله الألسن، حتى كان الأساتذة يوصون تلامذتهم في الماضي إن أرادوا الفصاحة والبلاغة في حديثهم بحفظ خطب «نهج البلاغة».

كما كانت خطب سيّدة النساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام من أفصح الخطب وأبلغها، وقد فعلت خطب ربيبي هذا البيت الرسالي زينب وزين العابدين عليهما السلام فعلها في الكوفة والشام لتؤثر على العدو والصديق.

وعليه لا بدّ من الإذعان بأن التسمية بأمراء الكلام تليق بأهل هذا البيت.

١. «تنشبت» من «النشوب» التثبت في الشيء.

٢. «عروق» جمع «عرق» على وزن «صدق» أصل الشيء وأساسه.

٣. «تهدلت» من مادة «هدل» على وزن «جدل» المعلقة بضعف وتطلق على الغصون النازلة والمعلقة.

## تأملان

## ١. عجائب اللسان

اللسان الظاهري أي هذه القطعة اللحمية في فم الإنسان وتتولى الأمور الهامة والمعقدة وكذلك اللسان الفكري الذي يعني القدرة على أداء الكلمات وترتيب العبارات وبيان المطالب، لمن النعم الإلهية العظيمة، ومن هنا عدّ الفلاسفة والأعلام، النطق (اللساني والفكري) الفصل المميز وعرفوا الإنسان بأنه حيوان ناطق. وكلما أمعنا في هذين الأمرين واجهنا المزيد من العجائب.

الطريف أنّ هذا اللسان ملاً تقريباً جميع فضاء الفم تحت الأسنان، وحين تناول الطعام يرسل المواد الغذائية بسرعة تحت الأسنان وينسحب بمهارة دون أن يصيبه أذى.

يقول الأطباء: هنالك أربعة أنواع من الهضم للطعام: الهضم الأوّل في الفم حيث يرطب تماماً ويمزج بلعاب الفم فتجري عليه تغييرات فيزيائية وكيميائية شتى، ثم يتجه إلى المعدة وبالطبع فإنا ننتفع باللسان صباح مساء دون أن نقف على دوره المهم عند تناول الطعام.

والوظيفة الأهم للسان صنع الكلمات ومقاطع الحروف وصف العبارات وبيان جميع المقاصد الصغيرة والكبيرة والبسيطة والصعبة والمعقدة للغاية التي تعد من عجائب الخليقة.

إلا أنّ المهمّ عدم مهارة الجميع في ذلك، فالمهارة في الكلام تتوقف على عدّة عوامل أحدها وأهمّها الممارسة والتدريب، والثقة بالنفس وعدم خشية الآخرين، ورباطة الجاش والايحاء إلى النفس من بين تلك العوامل المهمّة، ومن تلك العوامل أيضاً حضور مجالس أساتذة الكلام والانفتاح على تجاربهم واستخدامهم القضايا الظريفة إزاء مخاطبيهم.

طبعاً المطالعات المسبقة وإملاك الرصيد العلمي من العوامل المهمّة وهذا ما

يفسّر براعة البعض في الخطابة في التجمعات الكبرى، وإعياء البعض الآخر في التجمعات الصغرى، كما أنّ حالات الإنسان الروحية من قبيل الحزن والسرور والعافية والسقم والهدوء والاضطراب لمن الأمور التي لها غاية التأثير في هذه القضية، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في الخطبة بعبارة الامتناع والاتساع. وقد ذكر ابن أبي الحديد نماذج رائعة في الأشخاص الذي ارتقوا المنبر وتلثموا في الخطابة وعبوا في الألفاظ فهبطوا من المنبر، فنقل عن كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ موارد منها:

إنّ عثمان صعد المنبر وتوقف عن الكلام فقال هذا الكلام، ونزل: «أنتم إلى إمام عادلٍ أحوج منكم إلى إمام خطيب» (تركيز عثمان على مسألة العدالة رائعة للغاية). وروي أنّ عدي بن أرطاة رقى المنبر ولم تكذ تقع عينه على الناس حتى توقف فقال: (الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم) ثم نزل. كما صعد روع بن حاتم، المنبر فلما رأى الناس يتطلعون إليه نادى: إخفضوا رؤوسكم وأغمضوا أعينكم فركوب الدابة صعب أول الأمر فإن فتح الله شيئاً سهل. وقيل: أراد مصعب بن حيان أن يلقي خطبة في النكاح فقال: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله. فقامت له أم العروس وقالت: عجّل الله موتك ألهدنا دعوناك! وسائر الموارد من هذا القبيل<sup>١</sup>.

## ٢. أمراء الكلام

ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الخطبة (وإنّا لأمراء الكلام) حقيقة لا تنكر يعترف بها العدو قبل الصديق. وما خلفه هذا البيت من تراث خير شاهد على ذلك؛ كأحاديث النبي الأكرم عليه السلام التي نشرت تحت عنوان (نهج الفصاحة، ونهج البلاغة) بأجزائه الثلاثة والأدعية كدعاء كميل والصبح الذي ينتهي سنده للإمام علي عليه السلام وخطبتي

١. أنظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ١٣ و ١٤.

سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام ودعاء عرفة المسند للإمام الحسين عليه السلام وخطب أهل بيته في الكوفة والشام ثم المدينة عقب واقعة كربلاء وأدعية الصحيفة السجادية كدعاء أبي حمزة الثمالي الذي ينتهي سنده للإمام السجاد عليه السلام وأمثال ذلك. كما ينبغي الالتفات إلى إذعان الأعداء بهذه الحقيقة. وروى ابن أبي الحديد في الجزء الأول من شرحه لنهج البلاغة أن محقن بن أبي محقن دخل على معاوية فسأله من أين جئت؟

قال: «جئتُك من عند أعيى الناس». فقال له معاوية: «ويحك كيف يكون أعيى الناس فوالله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيرهُ»<sup>١</sup>.

وروى عن عبدالحميد الكاتب: حفظت سبعين خطبة من نهج البلاغة ففاضت ثم فاضت<sup>٢</sup>.

وروى المرحوم السيد الرضي في مقدمته الرائعة على نهج البلاغة قائلاً: قال ابن أبي الحديد كما ذكرنا في الجزء الأول ذيل الخطبة ٢٢١ بعد شرحه لجانب من كلام المولى في عالم البرزخ: «لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتلي عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدي بن الرقاع ومطلعها: «قلم أصاب...»، فلما قيل لهم في ذلك قالوا: نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن»<sup>٣</sup>. ولمزيد من المعلومات بهذا الشأن يراجع كتاب «في رحاب نهج البلاغة» للشهيد المطهري ومقدمة الجزء الأول من «نفحات الولاية».

❦❦❦

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٤.

٢. السابق طبق نقل المرحوم العلامة المطهري في رحاب نهج البلاغة، ص ٢٨.

٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ١٥٣.



## القسم الثاني

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانِ الْقَائِلِ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ. أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُضْطَلِحُونَ عَلَى الْأَذْهَانِ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِنُهُمْ مُمَانِقٌ. لَا يُعْظَمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ، وَلَا يَعُولُ غَنِيَّتُهُمْ فَقِيرُهُمْ.

## الشرح والتفسير

### خصائص البيئة الملوثة

تناول الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة، المفاصد التي ظهرت آنذاك إثر سياسات الخلافة السابقة والتي سرت تقريباً إلى جميع المجتمعات، ليرسم صورة واضحة لذلك المجتمع بإحدى عشرة عبارة موجزة غاية في الدقة بحيث لم ينس شيئاً (وهذا مفهوم الفصاحة والبلاغة والخطابة المعجزة) فقال: «وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانِ الْقَائِلِ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ».

فقد شخّص عليه السلام بهذه الصفات الثلاث، الجذور الأصلية لفساد المجتمع، سكوت أهل الحق خشية المعارضين أو إزدياد الأزمات، وصمت الصادقين بفعل ضغوط البيئة والهيئة الحاكمة أو مخافة زوال مصالحهم الشخصية أو التلوث بالكذب والإفتراء عوض الصدق وكذلك أولئك الذين ينشدون الحق ويطلبونه ينحون أو ينسحبون من المجتمع وليس هنالك من يسمع مقالاتهم الخقة، وزبدة القول ينسى



الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويهجر إرشاد الجاهل وتنبيه العاقل.  
ثم أشار عليه السلام إلى صفتين هما في الواقع نتيجة للصفات الثلاث السابقة فقال:  
«أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِضْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ<sup>١</sup> عَلَى الْأُدْهَانِ<sup>٢</sup>».

لا شك في أنّ هناك معاصٍ في كلّ مجتمع ومداهنة ومسايرة، إلا أنّ البؤس والشقاء في حركة عامة نحو الذنب والمعصية وبصورة مستمرة ودائمة، كما أنّ المصيبة والتعاسة في اصطفا المداهنين واتحادهم على هذا الأمر.

ثم قال عليه السلام في الصفة السادسة والسابعة: «فَتَاهُمْ عَارِمٌ<sup>٣</sup>، وَشَائِبُهُمْ<sup>٤</sup> آثِمٌ».

من البديهي في الوسط الذي يصمت فيه أصحاب الحق ويغيب فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تتلوث الأوساط الأُسرية فينشأ الشبان في هذه الأوساط سيئي الخلق وفاقدي الأدب، كما أنّه من الواضح أنّ هؤلاء الشبان حين يشيخون لا يفارقون الاعتياد على المعصية ويغفلون عن أنّ عمرهم اقترب من نهايته وسيحل أجلمهم فيغطون في بحر المعاصي بسبب تلك الغفلة.

وقال في الصفة الثامنة والتاسعة: «وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُعَادِقٌ<sup>٥</sup>».

نعم، فعلماء ذلك الوسط الذين أقبلوا على الدنيا إنّما يرون النفاق سبيلاً لئيلها، كما ورد في الخطبة ١٩٤: «وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ وَفِعْلُهُمْ الدَّاءُ العِيَاءُ».

وردت المفردة «قارئهم» في أغلب نسخ «نهج البلاغة» وهذا ما رجحه أغلب الشراح كونه يناسب العبارة السابقة، فالكلام هناك عن العلماء وهنا عن قراء القرآن والعابدین. بينما وردت في بعض النسخ (قارن) من مادة قرين بمعنى الصديق

١. «مصطلحون» اتفاق الأفراد على شيء، من مادة «صلح».

٢. «إدهان» تعني في الأصل التدهين. ثم استعملت في الخداع والمساومة على أمر مرفوض.

٣. «عارم» سبىء الخلق من «العرامة» الخشونة وسوء الخلق والسيول الجرافة والصوانع التي تقام لصدّها في الوديان.

٤. «شائب» الكهل والعجوز من مادة «شيب» على وزن «غيب» الكهولة.

٥. «معادق» المرثي من مادة «مذق» على وزن «حذف» مزج اللبن بالماء.

ويصبح مفهوم العبارة أنّ الأصدقاء آنذاك منافقون؛ ولكن من الواضح أنّ النسخة الأولى أكثر تناسباً مع مجموع كلام الإمام عليه السلام.

وأخيراً قال في الصفتين العاشرة والحادية عشرة من صفات أهل ذلك الزمان: «لَا يُعْظَمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرُهُمْ، وَلَا يُعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ».

واضح أنّ الشبان والياfecين تربوا بعيداً عن الأدب والخجل والحياء لا يحترمون كبارهم، كما أنّ الكبار الذين غرسوا هذه البذور يتجرعون مرارة ثمارها. ومن الواضح أيضاً أنه إن غابت الفضائل الإنسانية عن المجتمع وحلّ مكانها الفساد والتكالب على الدنيا فإنّ الأغنياء سوف لن يرحموا الفقراء وينسون حقيقة أنّ الله جعل للفقراء حقاً في أموالهم، ومن هنا يرون أنّ جميع تلك الأموال لهم فينفقونها في ملذاتهم. هذا إن كانت تلك الأموال جمعت من الحلال، وإلا إن كانت من الحرام ولا يعلم أصحابها، فهي جميعاً للفقراء والمحتاجين.

وهنا يرد هذان السؤالان؛ الأوّل: لم عمّت كلّ هذه المفاصد المجتمع الإسلامي على عهد حكومة الإمام علي عليه السلام؟ ولا تبدو الإجابة صعبة إن عدنا قليلاً إلى الوراثة وتأمّلنا عصر الخليفة الثالث وماذا فعل وبطائنه ببيت المال والمناصب الحساسة الحكومية التي أغدقها على خاصته وقرابته، فالتاريخ يفيد أنّ الفساد بلغ درجة بحيث قام المسلمون على الخليفة وقتلوه بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار وقلّما كان له ناصر.

السؤال الآخر: أين الجذور الأصلية لتلك المفاصد الإحدى عشرة؟ لو تأملنا بدقة لرأينا أنّ أغلبها إن لم نقل جميعها ناشئة من فساد الخلافة، وكون الناس غالباً على دين حكامهم يواصلون تلك المسيرة، وأحياناً يترسخ الفساد بحيث يشق الإصلاح على من يخلفهم، كما شق على الإمام عليه السلام.

حقاً لو دعوا الإمام يتسلّم زمام الأمور بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويقود المجتمع

الإسلامي بذلك العدل والزهد والدراية بالمسلمين لكان للإسلام والمسلمين مسار آخر. الطريف أننا لو نظرنا إلى البلدان المعاصرة التي تسودها حكومات فاسدة لرأينا بوضوح كلّ هذه المفاسد التي أشار لها الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة.

## وَمِنْ كَلَامِ إِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي السَّائِمِ

رَوَى ذِغْلَبُ الْيَمَامِيُّ الْيَمَانِيُّ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ قُتَيْبَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ دَخِيَةَ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ، وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُ اخْتِلَافُ النَّاسِ فَقَالَ:

### نظرة إلى الخطبة

محور البحث في كلام الإمام عليه السلام عوامل اختلاف الناس مع بعضهم وظاهر هذا الكلام أن نقص الناس وكمالهم في العقول والفرائض مرهون بمدى طهاره طبيعتهم التي جبلت عليها طبيعتهم، وإن رأينا ظاهرياً تقارب البعض وانسجامهم أو تباعدهم وتفرقهم فبسبب قرب أرضهم (طبعاً يختزن هذا الكلام أسئلة متتالية سنخوض في طرحها والرد عليها باذن الله في الشرح والتفسير).



إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِي طِينِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذِيبًا، وَحَزْنٍ تَزْبِيَةٍ وَسَهْلِيهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَأْمُ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ، وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيْبَةِ، وَتَائِهَةُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ، وَطَلِيْقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ.

## الشرح والتفسير

### أساس الاختلاف

لا شك في أنّ الناس مختلفون من الناحية الجسمية وكذلك من الناحية الروحية والفكرية والأخلاقية كما لا ريب في أنّ هذا الاختلاف يمكن تغييره عن طريق التربية والتعليم. وعليه فالاختلاف لا يقود قط إلى سلب الاختيار ومسألة الجبر. إلا أنّ الكلام في أصل هذه الاختلافات؟ لم البعض طويل القامة والآخر قصير، البعض جميل الوجه والآخر غير جميل، فئة ذات استعداد عالي وأخرى ضعيفة وعاجزة، وطائفة كريمة وأخرى بخيلة.

نسب الإمام عليه السلام هذه الاختلافات إلى مواد خلق منها جسم الإنسان وقال: «إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِي<sup>١</sup> طِينِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً<sup>٢</sup> مِنْ سَبَخِ<sup>٣</sup> أَرْضٍ

١. «مبادئ»، جمع مبدأ بداية كل شيء والمراد هنا العناصر التي تكون طينتهم.

٢. «فلقة» القطعة من الشيء من مادة «فلق» على وزن «حلق» الشق وبما أنّ الشق يقسم القطع وردت فلقة بمعنى القطعة.

٣. «سبخ» الأرض المالحة.

وَعَذِبَهَا<sup>١</sup>، وَحَزَن<sup>٢</sup> تُرْبَةَ وَسَهْلَهَا<sup>٣</sup>، فَهُمُ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَفَارِقُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ».

وعلى ضوء هذا الكلام فإن هذه الاختلافات ناشئة من تباين مواد الأرض المختلفة، وبالنظر إلى اختلاف بقاع الأرض والمواد التي تتركب منها واختلاف تركيب الناس من تلك المواد، والتأثير لاختلاف تلك المواد على اختلاف روحياتهم وأفكارهم وأخلاقهم كان هناك اختلافات بين الناس. وهنا يرد سؤالان: الأول: إن أبانا آدم عليه السلام خلق من التراب وولد الناس لاحقاً من نطفة آدم وأولاده، وليس من التراب.

والآخر: ألا يقوي هذا الكلام مذهب الجبر الذي يرغم أن كل إنسان مجبر على الأفعال ولا يمكن تغيير ذلك؟ ونترك الإجابة عن السؤال الثاني لمبحث التأملات في آخر الخطبة. وهناك سبيلان للإجابة عن السؤال الأول:

الأول: إن الناس وإن ولدوا بعد آدم من نطفته؛ إلا أن النطفة تتركب من مواد مختلفة تعود الجوانب الرئيسية فيها للأرض وتتغذى في رعرعتها على غذاء الأم لتبلغ مرحلة الكمال حتى تلد، وغذاء الأم مهما كان يتألف من مواد الأرض، فالنباتات تخرج من الأرض والحيوانات تتناول النباتات وعليه فنمو الجنين منذ كونه نطفة حتى تحوله إلى الكمال يستند جميعاً إلى مواد الأرض.

وربما يتضح الموضوع أكثر بهذا المثال وهو أن الأشجار المثمرة التي تنمو في أراضٍ مختلفة وكذلك الحيوانات وبذور الأطعمة مختلفة تماماً؛ مثلاً، العنب الذي ينمو في بقعة أحلى والطف من الآخر في بقعة أخرى وهكذا سائر الثمار، والناس كذلك، وحيث إن رابطة الجسم والروح بالنسبة لبعضها قريبة جداً فإن تفاوت هذه المواد يؤثر في روحيات الإنسان وخلقياته.

١. «عذب» الحلو.

٢. «حزن» إن استعملت في الأرض عنت المتموجة و«حزن» تعني الغم من هذه المادة.

٣. «سهل» إن استعملت عنت المستوية المنبسطة ومنه أيضاً السهل أي البسيط.

الجواب الآخر: بغض النظر عما قيل، إن ركزنا على خلق جسم آدم من التراب فمن الممكن أيضاً أن تحصل عدّة نطف من المواد المركبة لوجود آدم حين تتكون النطفة، ففي بعض الحالات، المادة الفلانية ترد أكثر من النطفة وفي بعضها الآخر أقل، ومن هنا يختلف حتى الأولاد الذين يلدون من نفس الأب والأم وفي مناخ واحد وحتى التغذية الواحدة للوالدين؛ فهذا أشجع وذاك أكرم وهذا أضعف وذاك أذكى، والقضية المهمة أيضاً أن المناخ يكون جانباً من وجود الإنسان؛ لكن الإمام عليه السلام ذكر هنا أساس الاختلاف ليقصره على اختلاف مواد الأرض ولم يتطرق إلى المناخ، إما لقلّة تأثيره على مواد الأرض أو أنّه يتأثر بها أيضاً، فالماء مالح في الأراضي السبخة والهواء ملوث، بينما الماء حلو والهواء لطيف في الأراضي السهلة. طبعاً لا يخفى التأثير الذي تلعبه أشعة الشمس، ولذلك ترى أغلب الأفراد في المناطق الاستوائية من ذوي البشرة السوداء وبعكسها في المناطق المعتدلة، وبالطبع لا يقتصر ذلك التأثير على لون البشرة، بل هناك تأثير خاص للموقع الجغرافي بسبب اختلاف أشعة الشمس أو المناخ والأرض.

على كلّ حال، استناداً لما قيل يمكن التسليم لكلام الإمام عليه السلام حسب دلالة ظاهرة والذي ينسجم تماماً مع القواعد العلمية المعاصرة، ولا حاجة إلى أن نقول المراد من (مبادئ طينهم) أرواح ونفوس الناس وتحمل سائر ألفاظ الإمام عليه السلام على اختلاف الأرواح؛ لا على اختلاف الأجسام التي لها تأثيرها في تفاوت الأخلاق والروحيات كما يفهم من كلمات ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة.

ثم بين الإمام عليه السلام عدّة نماذج لتأثير الجسم على الأخلاق والفكر والفضائل النفسانية ليختتم هذا البحث بذكره لسبعة نماذج من العلاقة بين الجسم والروح والتركيب الظاهري بالخلق والطبع الباطني فقال: «فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ

١. «رواء» من مادة «روي» على وزن «حي» تعني في الأصل الإرتواء ومن هنا يطلق رواء على الفرد الحسن المنظر كأنه كالنبات الذي ارتوى من الماء وحسن منظره.



الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهَيْمَةِ، وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ<sup>١</sup> بَعِيدُ السَّبْرِ<sup>٢</sup>،  
وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيْبَةِ، وَتَائِيَةُ<sup>٣</sup> الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ، وَطَلِيْقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ  
الْجَنَانِ».

وما ورد بشأن العلاقات السبع بين الجسم والروح والمادة الجسمانية والأخلاق  
في كلام الإمام عليه السلام قطعاً بصيغة قاعدة كلية لا يطالها الاستثناء، بل واردة في أغلب  
الأفراد، ومن هنا لمسنا بأعيننا استثناءاتها.

العبارة «قَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ» وبالنظر إلى أنّ القعر هنا إشارة إلى قصر القامة،  
حيث ليست هناك من فاصلة بين الرأس والأقدام لديهم وكانت مفردة «وَقَرِيبُ  
الْقَعْرِ» مناسبة لهم، وبالنظر إلى أنّ السبر يعني التعمق والاختبار فإنّ العبارة «بعيد  
السبر» إشارة إلى عمق الفكر وسعة الاطلاع.

كما يحتمل أن تكون العبارة «بَعِيدُ السَّبْرِ» إشارة إلى أنّ أولئك الأفراد يصعب  
معرفتهم. وهو المعنى الذي أقرّه ابن أبي الحديد وابن ميثم وبعض الشراح.  
والعبارة «وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ» بالنظر إلى أنّ الضريبة تعني السجية والخصلة  
والطبيعة والجلبية ما يقوم به الإنسان من عمل خلاف طبعه وكأنّه يجلبه من  
الخارج، فإنّ المفهوم هو أنّ طائفة من أولئك الناس الطاهري الطبع يتعاملون خلاف  
طبعهم بفعل بعض العوامل الخارجية من قبيل التربية السيئة والوسط الملوّث  
والدعاية السامة التي تفرز الدواعي الشيطانية.

والعبارة «وَتَائِيَةُ الْقَلْبِ» ذات مفهوم جربناه عادة في حياتنا وحياة الآخرين وهو  
أنّ الأفراد الذين يعيشون الاضطراب إثر مختلف العوامل يفقدون قدرة التفكير  
المنظم فتضطرب بالطبع أفكارهم بحيث يتضح قلق قلوبهم من خلال اضطراب  
أفكارهم.

١. «قعر» تعني هنا الباطن ويطلق القعر على آخر نقطة في الشيء.

٢. «السبر» الاختبار والامتحان ويقال لمن يصعب الوقوف على أسراره بسهولة «بعيد السبر».

٣. «التائيه» الحيران من مادة «تية» على وزن «سعى» و«تية» على وزن «جيم» الحيرة والضلال.

والعبارة «وَطَلِيقُ اللِّسَانِ» ذات مفهوم مجرّب هو أنّ الخطباء الماهرين هم الأفراد ذوو القلوب الصلبة الذين لا يهابون شيئاً ويتسمون بالشجاعة ومن هنا كانوا ماهرين في الخطابة.

## تأملان

### ١. صلة الروح بالجسم

صرّح أغلب الأعلام والفلاسفة بأنّ لروح الإنسان صلة بجسمه بحيث تنعكس خصائص كلّ منهما على الآخر، وعليه فليس من العجب أن تكون هناك علاقة بين شكل الإنسان وقامته وسائر ميزاته البدنية وبين روحياته وأخلاقه.

وقد ذكر المفكرون منذ قديم الأيام ولحد الآن تلك الصلات في مصنفاتهم حتى انشق علم معرفة الهيئة، لكنهم يعترفون بأنّ تلك الصلات (صلة الأخلاق بالهيئات الجسمانيّة المختلفة) ليست كليّة، فهناك العوامل الأخرى المؤثرة في روحية الإنسان وخلقه بحيث يغلب تأثيرها أحياناً ويربك العلاقة السابقة؛ مثلاً خلق الأب والأم وطبعهما، وتأثير المناخ المحلي والتعامل مع مختلف الأشياء حسب العمل والمهنة وأمثال ذلك، من شأنه التأثير في خلقيات الإنسان فيربك أحياناً كليّة صلات علم معرفة الهيئة.

على كلّ حال، فما ورد في كلام الإمام عليه السلام أنّفاً إشارة إلى جانب من علاقة الروح بالجسد ذكره كرد على سؤال بعض أصحابه بشأن اختلاف روحيات الناس، وما مر علينا بالطبع مبدأ كلي ولا يخلو من استثناء.

ومن هنا يتضح ما يرى من مطالب في بعض الروايات على خلاف ما ذكر، على أنّه من تلك الاستثناءات كالحديث النبوي القائل «أَطْلُبُ الْخَيْرَ عِنْدَ حَسَنِ الْوُجُوهِ»<sup>١</sup>.

في حين ورد في بعض الروايات ضمن خطبة للنبي الأكرم ﷺ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءِ الدَّمَنِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خَضْرَاءُ الدَّمَنِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَثَبِ الشُّوءِ»<sup>١</sup>.

## ٢. الاختيار وصلة الروح بالجسد

السؤال الآخر الذي يرد هنا: إننا إن قبلنا العلاقة بين ملوحة التربة وحلاوتها وطبيعة الإنسان وإرتباط الهيئات الجسمانية بخلقيات البشر، فنتيجة ذلك ليس للأختيار قدرة إتيان المساوي، ولا السيئين إتيان المحاسن وهذا هو مذهب الجبرية، والمعلوم على هذا الأساس إنكار الثواب والعقاب وعبثية بعثة الأنبياء، وبالتالي نفي عدالة الله تبارك وتعالى.

ولا تبدو الاجابة على هذا السؤال صعبة، فليس هناك من يزعم أن الكيفيات الجسمانية علة تامة لتلك الخلقيات في الطبيعة البشرية، وأنها مجرد أرضية مساعدة. ويمكن ايضاح ذلك بهذا المثال. فالكل يقول بتأثير الوسط الأسري أو البيئة على أعمال الإنسان، إلا أن ذلك لا يعني سلب إرادة الإنسان، وما ذلك سوى أرضية، ومن هنا نرى الكثير ممن تربى في أسرة سيئة لكنهم كانوا اناساً صالحين ومؤمنين. وبالعكس نرى بعض الأفراد السيئين ممن تربى في وسط صالح، بعبارة أخرى، فإن الجزء الأخير للعللة التامة إرادة الإنسان التي تؤدي إلى التأثير الغائي. كما تجدر الإشارة إلى أن من عاش وسطاً سيئاً وأجواء خلقية شاذة وسلك الطريق السليم فإن أجره وثوابه يفوق نظيره الذي يعيش وسطاً وبيئة صالحة.

## وَمِنْ كَلَامِ إِمَامِنَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي السَّيِّدِ

قَالَهُ وَهُوَ يَلِي غُسْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَجْهِيزَهُ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

أورد الإمام عليه السلام كما قيل، هذا الكلام حين ولي غسل رسول الله ﷺ وتجهيزه، كلمات ملتاعة تثير الحزن وتعكس غاية لوعة الإمام عليه السلام آنذاك، في حين ترك الآخرون جسد النبي الأكرم ﷺ واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليتآمروا على سلب خلافة النبي ﷺ.

٤٥٥٣

#### ١. سند الخطبة:

رواه عدد ممن عاش قبل السيد الرضي ومنهم: (أ) محمد بن حبيب (المتوفى سنة ٢٤٥) أي قبل ولادة السيد الرضي بـ ١١٤ سنة في «الأمالي».

(ب) أبو اسحاق إبراهيم الزجاج (المتوفى سنة ٣١١ أي ٤٨ سنة قبل الرضي في كتابه «الأمالي» عن بريد المبرد.

(ج) رواها الشيخ المفيد في كتابه «الأمالي» بسنده عن ابن عباس. قال صاحب «مصادر نهج البلاغة»: لا شك أن هذا كلام علي عليه السلام وإن نسبت لغيره في زهر الأداب فذلك من الوهم (مصادر نهج البلاغة، ج ٣،



بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ  
 مِنَ النَّبُوءَةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ  
 سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سِوَاءً. وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ،  
 وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوْونِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً وَالْكَمَدُ  
 مُخَالِفاً، وَقَلَّ لَكَ! وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْكِرُ رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي!  
 اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ.

## الشرح والتفسير

### عظم مصيبة رحيل النبي ﷺ

خاطب عليه السلام الجسد الطاهر للنبي الأكرم ﷺ فقال: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ  
 لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النَّبُوءَةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ».  
 الجملة «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي». المتداولة لدى العرب عند ابداء الحب لأحد، إشارة  
 إلى أنني أفديك بأبي وأمي أعزُّ أعزائي، لعل أب القائل وأمه ليسا على قيد الحياة  
 حين قوله ذلك الكلام كما الأمر كذلك في هذه الخطبة، فذلك لا يقدر بمفهوم  
 الكلام، فهذه العبارة جانب كنائي ويشير إلى أن المخاطب عزيز إلى درجة أن  
 الإنسان يفديه بأعزِّ خاصته.

ورد في بعض الروايات أن هذه العبارة عقود للوالدين إن كانا على قيد الحياة  
 ومؤمنين<sup>١</sup>.

١. وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٦٥٢، ح ١.

إلا أن ظاهر هذه الرواية حين لا يكون المخاطب النبي أو الإمام، لأن هذه العبارة إزاءهم مدعاة للفخر فضلاً عن أنها ليست إهانة وعقوق. ومن هنا كثيراً ما تشاهد هذه العبارة في أغلب الزيارات، في حين أن أغلب والدي الزائرين أحياء.

المفردات «نبوة»، «إنباء»، و«أخبار السماء» ذات مفاهيم مختلفة؛ فالنبوة إشارة إلى مقامه ﷺ، والإنباء أسلوب النبي العملي في إبلاغ الرسالة والوحي، وأخبار السماء تلك التي لا ترتبط بالمسائل الشرعية من قبيل الأخبار الغيبية والحوادث المستقبلية والملاحم.

على كل حال العبارات المذكورة أخبار صريحة في خاتمية النبي الأكرم ﷺ، ودليل بين على عدم نزول الوحي بعد النبي ﷺ وقد انقطعت هذه النعمة العظيمة التي عمّت العالم في ظل وجود النبي برحيله، وهذا سرّ جزن أمير المؤمنين ﷺ. ثم أشار عليه إلى أمرين فقال: «خَصَّضْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سِوَاءً».

كيف لا تكون مصيبة النبي الأكرم ﷺ شاملة وهو رحمة للعالمين ووسيلة نجاة البشرية من مختلف أنواع الانحرافات، فهو للجميع ويهتم بالجميع، فلا بد أن يبكيه الجميع في مصابه.

ومن جانب آخر أن المصاب يبدو أجلاً وأعزّ كلما كان الفقيد أعظم قدراً وأثراً، ولما كان النبي ﷺ أكرم إنسان وأعز مخلوق كانت مصيبته تفوق جميع المصائب، وبعبارة أخرى تهون سائر المصائب إزاء مصابه.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام حين مصابه بالزهراء عليها السلام فخاطب النبي الأكرم ﷺ: «قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلْدِي إِلَّا أَنْ فِي النَّاسِي لِي بِعَظِيمِ قُرْقَتِكَ وَقَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزُّي»<sup>٢</sup>.

١. «مسلياً» من مادة «سلو» على وزن «غلو» الهدوء بعد الشدة.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٢.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إِنْ أُصِيبَتْ بِمُصِيبَةٍ فِي نَفْسِكَ أَوْ فِي مَالِكَ أَوْ فِي وَدِّكَ فَادْكُرْ مُصَابِكَ بِرَسُولِ اللَّهِ فَإِنَّ الْخَلَائِقَ لَمْ يُصَابُوا بِمِثْلِهِ قَطُّ»<sup>١</sup>.

ثم أشار عليه السلام إلى قضية أخرى فقال: «وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْقَدْنَا<sup>٢</sup> عَلَيْكَ مَاءَ الشُّوونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً وَالْكَمْدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّ لَكَ!».

وبالنظر إلى أنّ شوون، جمع شأن التي تعني هنا غدد الدموع فمراد الإمام عليه السلام لولا أنّك نهيتنا عن البكاء والجزع لبكيناك حتى ينضب ماء عيوننا، لكننا تعلمنا منك الصبر والجلد، فقد بكيت ولدك إبراهيم حين توفي لكنك لم تجزع، وهذا ما فعلته بمصاب عمك حمزة ومن هنا علمتنا الصبر.

و«المماطل»: المدين الذي يؤخر أداء الدين، ويقال: داء المماطل للمرض الذي لا علاج له والذي يشبه ذلك المدين.

و«الكمد»: الحزن الباطني، والمحالف: من يعاهد غيره ويفي بالعهد، فكمد محالف بإشارة إلى الحزن الباطني الثابت.

ويشير ضمير المثني في (قلّ لك) إلى ذلك الداء والكمد؛ أي أنّ ألم مصابك وحزنه الدائم لا شيء أيضاً إزاء عظمة مصيبتك.

ثم قال عليه السلام: «وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمَلِّكَ رَدَّةً، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ!»، فالبكاء والجزع لا يجدي نفعاً ولا بدّ من الصبر والرضا برضى الله.

ثم عبر في الختام أيضاً عن حبه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتعلقه به فقال: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ<sup>٣</sup>».

ومفهوم هذه العبارة أنّ روحك الطاهرة عرجت إلى الملكوت الأعلى جوار الربّ. فادع لنا هناك واسأل الله قضاء حوائجنا واستحضرنا على الدوام.

١. الكافي، ج ٣، ص ٢٢٠، ح ٢.

٢. «انقذنا» من «النقادة» انتهاء الشيء و«انقادة» مصدر باب افعال الانتهاء.

٣. «البال» خاطر القلب والحال.



## تأملان

## ١. البكاء على الأعزّة

يستفاد من هذه الخطبة والروايات، عدم المنع من البكاء على مصاب الأعزّة. والمنع يقتصر على الجزع والجحود، فقلب الإنسان بؤرة العواطف والتي تؤثر عليه سيما حين تشتد. فإذا فقد عزيزاً اضطرب القلب وجرت الدموع ويختنق الإنسان بعبرته وينطلق اللسان لبيان شوقه ولهفته للعزيز الفقيد، هذه الأمور جميعاً ليست ممنوعة، بل ممدوحة شريطة اقترانها بالصبر، والممنوع أن يجزع الإنسان ويضرب رأسه بالجدار ويخمش وجهه وينطلق لسانه بالباطل.

ففي الخبر: لما بلغ النبي ﷺ استشهاد جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة (في موقعة مؤتة) بكاهما وقال: «إِنَّهُمَا كَانَا يُحَدِّثَانِي وَكُنْتُ أَنْسُ بِهِمَا فَمَاتَا مَعاً»<sup>١</sup>. كما ورد في غزوة أحد أن رسول الله ﷺ لما رجع إلى المدينة وكان يسمع كل بيت يبكي قتيله سوى بيت عمه حمزة، غضب وقال: «وَلَكِنْ حَمَزَةٌ لَا بَوَاكِي لَهُ». فلما سمع أهل المدينة ذلك أقسموا أن لا يبكوا أحداً حتى يبكوا على حمزة. وقد استمرت هذه السنّة حتى اليوم (حين حديث الإمام الباقر عليه السلام)<sup>٢</sup>.

كما وردت عن المعصومين عليهم السلام عدّة روايات في النهي عن الجزع، ومنها أن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَّتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَا جُورٌ وَإِنْ جَزَعْتَ جَرَّتْ عَلَيْكَ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَغْدُورٌ»<sup>٣</sup>.

لا ينبغي أن ننسى أن الجزع ناهيك عن كونه نوعاً من جحود الله، فهو ينطوي على آثار سيئة تصيب أعصاب الإنسان وتسوقه أحياناً إلى حدّ الجنون.

١. من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ١٧٧، ح ٥٢٧.

٢. المصدر السابق، ص ١٨٣، ح ٥٥٣.

٣. مستدرک وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٤٣١، ح ٤٠.

## ٢. تجهيز النبي ﷺ

لا خلاف في يوم وفاة النبي الأكرم ﷺ حيث أجمعوا على وفاته يوم الاثنين ومشهور مذهب أهل البيت ﷺ أنه دفن بعد ثلاثة أيام.

ورغم ما يستفاد من الروايات باستحباب التعجيل في دفن الميت؛ إلا أن القضية تختلف حين يكون المتوفى شخص كرسول الله ﷺ ويريد المسلمون أن يصلوا عليه فوجاً فوجاً ويودعوه.

وكما يستفاد من الأخبار أنهم كانوا يدخلون عليه عشرة عشرة ويصلون عليه، ثم دفن هناك في حجرته، حيث كان لكل رأي في دفن النبي ﷺ فمنهم من قال: في مكة، وآخر المدينة (في البقيع أو في صحن المسجد) فقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إن الله لم يقبض نبياً إلا في أطهر البقاع فينبغي أن يدفن في البقعة التي قبض فيها». فاتفقت الجماعة على قوله عليه السلام ودُفن في حُجْرَتِهِ<sup>١</sup>. كما قيل فيمن دخل القبر أنه دخل علي عليه السلام والفضل ابن العباس وشخصان آخران<sup>٢</sup>.

على كل حال، فمما لا شك فيه أن تجهيز النبي الأكرم ﷺ بما في ذلك غسله وتكفينه والصلاة عليه كان على يد علي عليه السلام بينما سارع الآخرون إلى سقيفة بني ساعدة وانهمكوا بالحديث عن الخلافة حتى قيل إن معزي السقيفة لم يوقفوا للصلاة على النبي ﷺ. وللوقوف على المزيد بهذا الشأن يراجع كتاب بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٥٠٤.

١. تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٢-٣.

٢. بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٥٢٥.



## وَمِنْ كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

اقتَصَّ فِيهِ ذِكْرَ مَا كَانَ مِنْهُ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لِحَاقِهِ بِهِ<sup>١</sup>

### نظرة إلى الخطبة

لا حاجة هنا لشرح الخطبة وفق نظرة كون كلامه ﷺ غاية في القصر والايجاز.

١. سند الخطبة:

رواه ابن الأثير في «النهاية» في مادة «وطأ» «مصادر نهج البلاغة» ج ٣، ص ٢٣٤.



فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ مَا خَذَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ.

## الشرح والتفسير

### ذكر الحبيب

هذا الكلام كما ذكر المرحوم السيد الرضي جانب موجز من خطبة مفصلة للإمام عليه السلام فضله الرضي لما رأى فيه من ظرافة في عباراته من حيث الفصاحة والبلاغة. ويفهم من كتاب «تمام نهج البلاغة» أن هذا الكلام كان في خطبة بين فيها الإمام مكانته من النبي الأكرم عليه السلام وشرح في كل جانب منها صلته الوثيقة بالنبي عليه السلام ولطفه به والذي تتضح فيه تماماً مكانة أهل البيت عليهم السلام<sup>١</sup>.

وهذا الكلام - كما أشرنا آنفاً - في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بعد ليلة المبيت وبقاء الإمام في مكة لأداء ودائع النبي الأكرم عليه السلام إلى الناس وانطلاقته خفية إلى المدينة بعيداً عن أنظار خصوم الدعوة الإسلامية.

فالإمام عليه السلام الذي عاش تلك المرحلة العصبية إبان فراق زعيمه وأستاذه العزيز كان يعاني من فراقه الذي شق عليه وكلامه هنا يعكس ذلك حيث قال: «فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ مَا خَذَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ».

يشير هذا الكلام إلى مدى لوعة الإمام عليه السلام على فراق النبي ﷺ خلال تلك الفترة الوجيزة، فلا ينفك عن ذكره ويفصح عن مدى لوعته كمن فقد أعزَّ أعزته؛ لكن لا حيلة، فلا بد أن يبقى ويؤدي إلى الناس ودائعهم عند رسول الله ﷺ التي ائتمنوه

١. كتاب تمام نهج البلاغة، ص ٢٤٦، خطبه ١٩ (وردت هذه العبارة في تنمة الخطبة، ص ٢٤٩).

عليها، فانطلق بعيداً عن أعين الأعداء إلى المدينة، ويستفاد من التواريخ الإسلامية أن جروحاً بليغة أصابت جسد الإمام إثر إبطاره بالحجارة ليلة هجرة النبي وقد نام على فراشه؛ لكنه تناسى كل تلك الجراح وكان لا يفكر سوى بحبيبه رسول الله ﷺ.

قال المرحوم السيد الرضي في ختام هذا الكلام:

إِنَّ قَوْلَهُ ﷺ: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي رَمَى بِهِ إِلَى غَايَتِي الْأَيْجَازِ وَالْفَصَاحَةِ، أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ أُعْطِي خَبْرَهُ ﷺ مِنْ بَدْءِ خُرُوجِي إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَكُنْتُ عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْكِنَايَةِ الْعَجِيبَةِ.

فللإمام ﷺ نكته ظريفة ودقيقة في العبارة «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» والتي تابعها السيد الرضي وهي أَنَّ الْإِمَامَ ﷺ جَعَلَ ذِكْرَ النَّبِيِّ ﷺ كَالطِّيفِ الْجَمِيلِ السَّاحِرِ الَّذِي يَعْطُرُ الْأَجْوَاءَ، وَكَانَ الْإِمَامُ يَعْيشُ ذَلِكَ الْجَوْ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، كَمَنْ يَقُولُ لِآخَرٍ: إِنَّ ذِكْرَكَ هُوَ بَيْتِي وَحَيَاتِي، ذِكْرَكَ أَرْقَى مَدِينَتِي.

## تأمل

### قصة الهجرة

إِنَّ قِصَّةَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ مِنْ أَرْوَعِ الْقِصَصِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا أَحْسَ رُوَسَاءُ قُرَيْشٍ بِالْخَطَرِ الْمَغْدُوقِ بِهِمْ إِثْرَ دَعْوَتِهِ الشَّرِيفَةِ، وَخُصُوصاً لَوْ اسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ بَيْنَ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَبِهَذِهِ الصُّورَةِ الْجَدِيدَةِ، فَيُؤَدِّي لِاشْكِ إِلَى انْكَسَارِ شَوْكَتِهِمْ وَقَدْرَتِهِمْ وَتَحْطَمِ أَوْثَانَهُمْ بَلْ وَتَتَحَوَّلَ مَكَّةُ إِلَى سَجْنٍ كَبِيرٍ لَهُمْ، وَعَلَيْهِ اخْتَارُوا طَرِيقَ الْقِضَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَى دَعْوَتِهِ الرِّسَالِيَّةِ، اخْتَارُوا فِي التَّصَدِي لِدَعْوَتِهِ أَحَدَ الطَّرِيقِ الثَّلَاثَةِ، إِمَّا يَسْجَنُوهُ، أَوْ يَنْفُوهُ مِنْ مَكَّةَ أَوْ يَقْتُلُوهُ وَهَذَا مَا أَشَارَتْ إِلَى الْآيَةِ ٣٠ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ.

ولكن أجمعوا على قتله ليلاً لأنهم محصوا هذا الرأي واتفقوا عليه، ولكنهم واجهوا مشكلة بني عبدمناف في طلب الثأر له وبذلك تقع فتنة عظيمة وصراع كبير

بين قبائل مكة، ولهذا دعوا جميع القبائل ورؤوساء قريش وثبت رأيهم على على أن يضربوه بأسيا فهم من أيدي جماعة من بطون مختلفة ليضيع دمه في بطون قريش فلا تطلبه نبو عبدمناف وبالتالي يرضوا بالدية، فحاصروا بيت النبي ﷺ وانتظر الصبح إلى أن ينجلي ظلام الليل، ثم يحملوا عليه حملة رجل واحد.

فخرج النبي الأكرم ﷺ بأمر من الله تعالى من محاصرة القوم بصورة إعجازية ورحل ليلاً إلى المدينة (ولكن عن طريق غير طريق مكة والمدينة حتى لا تستطيع الأعداء اقتفاء أثره) وأمر علي بن أبي طالب عليه السلام أن يبيت في فراشه وذلك لأنهم كانوا يترصدون البيت فعابنوا فيها شخصاً مسجى بالبرد الحضرمي الأخضر، فلم يشكوا أنه هو فرصدوه ورمه ببعض الأحجار ليطمئنوا على أنه لا زال في فراشه.

ولما أصبحوا دخلوا عليه الدار وسلوا بسيفهم وحملوا عليه ظناً منهم أنه رسول الله ﷺ وأحاطوا بفراشه وفجأة وجدوا علياً عليه السلام في فراشه فلما دنوا منه عرفوه فقالوا له: أين صاحبك؟ فقال عليه السلام: لا أدري أو رقيباً كنت عليه؟

فعندما فشلت خطتهم غضبوا غضباً شديداً لأنهم انتظروه إلى الصباح وألقوا اللائمة على أبي لهب الذي منعهم من الهجوم ليلاً (لأن الهجوم ليلاً كان عندهم مع وجود الأطفال والذراري عيباً كبيراً).

وتحرك النبي من مكة جهة الشمال إلى المدينة بدلاً عن الجنوب ووصل إلى جبل غار ثور واختفى فيه حتى لا تصل إليه أيدي الأعداء والمشركين، فخرج رجال قريش تبحث عنه في أطراف مكة ولكنهم فشلوا ورجعوا إلى مكة دون أن يعثروا على رسول الله ﷺ وقد خرج من أيديهم وهاجر إلى المدينة<sup>١</sup>.

❦❦❦

١: أنظر للمزيد من الاطلاع: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد في شرح ذيل الخطبة، وتفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام وكتاب «فروع أبدية» لآية الله جعفر السبحاني.





## وَمِنْ كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

### فِي الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْعَمَلِ<sup>١</sup>

#### نظرة إلى الخطبة

يستفاد من كتاب «تمام نهج البلاغة» أنّ هذه الخطبة - جانب من الخطبة الغراء - تعدّ من عجائب خطب الإمام عليه السلام حيث شيع جنازةً ووسّد الميت في اللحد وكان أهله يبكوه فخطب تلك الخطبة<sup>٢</sup>.

وتتألف الخطبة في الواقع من قسمين؛ الأول: عن المسارعة في العمل واستغلال الفرص، فلعل الموت يفاجئ الإنسان وتفوت الفرصة ويغلق باب التوبة. والقسم الثاني: وصايا في مجاهدة هوى النفس وكيفية الانتفاع بفرص الحياة، فالخطبة بمجموعها ذات فائدة قصوى لسالكى سبيل السعادة.

١. سند الخطبة:

كل ما ورد في كتاب «مصادر نهج البلاغة» بالإضافة إلى «نهج البلاغة» في سند الخطبة أنّ الأمدى روى العبارة الأولى من الخطبة في «غرر الحكم» باختلاف ويفيد أنه كان لديه مصدر آخر ولو كان مصدره الوحيد «نهج البلاغة» لما كان ذلك الاختلاف (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٨٥).

٢. شرح الخطبة الغراء طبق نقل السيد الرضى ذيل الخطبة ٨٣.



## القسم الأول

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ،  
وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى وَالْمُسِيءُ يُرْجَى، قَبْلَ أَنْ يَخْمَدَ الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهْلُ،  
وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ.

## الشرح والتفسير

### اغتنام الفرصة

شجّع الإمام عليه السلام بهذه العبارات الموجزة العميقة المعنى جميع مخاطبيه على اغتنام الفرص وحذر من أن هذه الفرص عابرة زائلة عاجلاً أم أجلاً، ولا بد من السعي قبل اليأس والحسرة.

فأشار في كيفية اغتنام الفرص إلى خمسة أمور:

قال في الأول: «فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ».

والعبارة «نَفْسِ الْبَقَاءِ» إشارة لطيفة إلى أن البقاء كأنما يشبهه في الدنيا بالكائن الحي الذي يتنفس ولا بد من استغلاله قبل أن ينقطع نفسه.

وقال في الثاني: «وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ»<sup>١</sup>.

إشارة إلى إمكانية الإضافة والإصلاح والتعديل ما دامت الصحيفة مفتوحة.

وفي الثالث: «وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ».

إشارة إلى أن العودة قائمة ويمكن إطفاء نيران الذنوب المستعرة بماء التوبة مادامت أبوابها مفتوحة وتحصيلها واسع، فيلجأ الإنسان إلى الله ويفصح عن ندمه

١. «المنشورة» الواسعة والمفتوحة من مادة «نشر» البسط.

ويسكب الدموع التي تفرزها التوبة النصوح والخالصة فيطفى بها نيران الذنوب.  
ورد في «الكافي» عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام أنه قال: «إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ  
يَا رَبِّ سَلَطْتَ عَلَيَّ الشَّيْطَانَ وَأَجْرِيَتَهُ مِنِّي مَجْرَى الدَّمِّ، مَا جَعَلْتَ لِي شَيْئاً، فَقَالَ: يَا  
آدَمُ جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَنْ هَمَّ مِنْ دُرِّيَّتِكَ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُ عَلَيْهِ  
سَيِّئَةً، وَمَنْ هَمَّ مِنْهُمْ بِحَسَنَةٍ فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُ لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كَتَبْتُ لَهُ  
عَشْرًا، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ سَيِّئَةً ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لَهُ  
غَفَرْتُ لَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي، قَالَ: جَعَلْتُ لَهُ التَّوْبَةَ - أَوْ قَالَ بَسَطْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ - حَتَّى  
تَبْلُغَ النَّفْسُ هَذِهِ، قَالَ: يَا رَبِّ حَسْبِي»<sup>١</sup>.

وقال في الأمر الرابع والخامس: «وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى وَالْمُسِيءُ يُزَجَّى».  
إشارة إلى الدعوة والأمل الذي تضمنته الآية الكريمة، قال تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ  
الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ  
الْعَفُورُ الرَّحِيمُ»<sup>٢</sup>.

وقال تعالى: «وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا  
تُنصَرُونَ»<sup>٣</sup>.

وقال في العبارة السادسة والسابعة والثامنة: «قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ الْعَمَلُ، وَيَنْقَطَعَ  
الْمَهْلُ»<sup>٤</sup>، وَيَنْقُضِي الْأَجَلَ».

نعم، فما دام هنالك العمر فالعمل قائم والمهلة مبدولة والفرصة سانحة وكل ذلك  
يفنى حين مغادرة الإنسان لهذا العالم.

وقال في التاسعة والعاشر: «وَيُسَدُّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَضَعُ الْمَلَائِكَةُ».

١. الكافي، ج ٢، ص ٤٤٠، ح ١.

٢. سورة الزمر، الآية ٥٣.

٣. سورة الزمر، الآية ٥٤.

٤. «يخمد» من «الخمود» على وزن «جحود» تعني في الأصل إنطفاء النار. ثم اطلقت على انتهاء كل شيء ومنها  
نهاية الحياة.

٥. «مهل» جمع «مهلة» وتستعمل هذه الكلمة عادة في أمور الخير.

## القسم الثاني

فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَاِنِ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ. امْرُؤٌ خَافَ اللهَ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ. امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللهِ.

## الشرح والتفسير

### كيفية اغتنام الفرصة

وعظ الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبة بعشر عبارات موجزة وعميقة المعنى، الجميع باغتنام الفرص قبل فوات الأوان. ثم ذكر في عشر أخرى طرق كيفية الاغتنام لتلك الفرص، فالقسم الأول في الواقع وعظ وتحذير والثاني أسلوب للعمل. قال: «فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ»، وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لِمَيِّتٍ وَمِنْ فَاِنِ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ». تكرر الفعل الماضي (أخذ) في هذه العبارات الأربع مرتين؛ لكنه عنى الأمر. فقد أمر عليه السلام في العبارة الأولى بضرورة استفادة كلِّ إنسان من رصيده وجوده لإدخال الحسنات، حيث وهب الله الإنسان إمكانات وطاقات إن وظفها في المسار الصحيح وقرت له أسباب السعادة.

ورد عنه عليه السلام في «غررالحكم» أنه قال: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا»<sup>١</sup>.

وقد ورد نفس هذا المعنى في العبارة الثانية بصيغة أخرى، «وَأَخَذَ مِنْ حَيِّ لَمِيَّتٍ».

وأشار في العبارة الثالثة والرابعة إلى إمكانية التزود من هذه الدار الفانية إلى تلك الدار الباقية ومن هذه الحياة الزائلة إلى تلك الخالدة، ثم واصل كلامه قائلاً: «أَمْرُو خَافَ اللَّهُ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ».

حيث بيّن عليه في هاتين العبارتين ما ذكره في العبارات السابقة بصيغة أخرى ووعظ الجميع بالانتفاع بهذه المهلة التي منحهم الله ضرورة خشيته والابتعاد عن التقصير.

ثم قال: «أَمْرُو أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعْاصِي اللَّهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ».

فقد شبه عليه نفس الإنسان بالدابة الجموح إن لم يكن زمامها كما ينبغي أقحمته في وادي المعصية وحرفته عن مسار الطاعة عادة ما يستفاد من وسيلتين للسيطرة على الدابة الجامحة؛ إحداهما، اللجام وهو حبل يوضع في فم الدابة ويوثق ليكون بيد راكب الدابة، والزمام، الذي يوضع في أنفها ويمسكه الراكب بحبل، ولما كان فم الدابة وأنفها من المواضع الحساسة فإنه يمكن من خلالها إيقاف الدابة أو سوقها إلى جهة من خلال تحريكه إلى تلك الجهة.

والعبارة «لجام» و«زمام» إشارة إلى ضرورة تهيئة اللجام والزمام الذي يليق بالنفس الجامحة بحيث يمكن بواسطته صدها عن الذنب والمعصية وسوقها إلى طاعة الله، وما أكثر الأفراد الذين يلجمون أنفسهم بلجام ضعيف وهزيل بحيث يفقدون هذا اللجام حين إثارة الشهوات فيقارفون أنواع المعاصي.

ولكن ما هي الوسيلة اللازمة للسيطرة على النفس؟ يمكن الظفر بالجواب في ما ورد من كلمات الإمام علي عليه السلام في «غررالحكم» و«بحار الأنوار». فقد ذكر عليه السلام أن

١. «منظور» الممهل من مادة «نظر» التي لها معنيان: الأول الالتفات إلى الشيء والثاني الإمهال.

القناعة عامل إصلاح النفس فقال: «أَعُوذُ بِشَيْءٍ عَلَى صِلَاحِ النَّفْسِ الْقَنَاعَةُ»<sup>١</sup>.  
 وفي موضع آخر عدّ التعصب وسيلة لإصلاحها فقال: «إِذَا صَعِبَتْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ  
 فَاصْعَبْ لَهَا تَذِلُّ لَكَ»<sup>٢</sup>.

❦❦❦

١. غرر الحكم، ج ٨٩٨٤.  
 ٢. المصدر السابق، ج ٤٨٢٠.





## وَمِنْ كِتَابِ إِمْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

### في شأن الحكمين وذم أهل الشام<sup>١</sup>

#### نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من قسمين، ذم الإمام عليه السلام في القسم الأول أهل الشام وندعتهم بالجفاة القساة الذين ينبغي أن يؤدّبوا ويربّوا ويخضع القاصر منهم لولاية العالم، إنهم ليسوا من المهاجرين والأنصار (العارفين بتعاليم الإسلام والحريصين على بقائه).

وأشار عليه السلام في القسم الثاني إلى قضية التحكيم فبيّن أنّ أهل الشام اختاروا لهذه

#### ١. سند الخطبة:

قال صاحب كتاب «مصادر نهج البلاغة»: «ذكرنا مصادر هذه الخطبة في ذيل الخطبة ٢٦ والخطبة فصل من كتاب كتبه الإمام وأمر بقراءته في مختلف المناطق، وإذا عدنا إلى مصادر الخطبة (الخطبة ٢٦) نجده قال هناك: هذه الخطبة جزء من خطب طويلة اقتطف السيد الرضي بعضها وذكرها جماعة من قبل السيد بما يختلف مع ما ذكره ومنهم إبراهيم بن هلال الثقفي» في كتاب «الفارات»، «ابن قتيبة» في كتاب «الإمامة والسياسة»، «الطبري» في كتاب «المسترشد» و«الكليني» في كتاب الرسائل وقال هناك: «الخطبة ٢٣٦ هي عندنا جزء من الخطبة ٢٣٨ والدافع من الرسالة أنه سئل عن سبقه من الخلفاء. فكتب لهم هذه الرسالة وأوصاهم برص صفوفهم» (الفارات، ج ١، ص ٣١٢؛ الإمامة والسياسة، ص ١٣٥ و ١٧٦؛ المسترشد، ص ٤٢٦) (مصادر نهج البلاغة، ج ١، ص ٣٩٠).

القضية عمرو بن العاص وهو أفضل من يحقق أطماعهم ومآربهم، واخترتهم أبو موسى الأشعري أبعدهم عن هدفكم، وكان عليكم أن توجهوا قبضة ابن عباس إلى صدر عمرو بن العاص لا بواسطة الضعفاء كأبي موسى الأشعري.

## القسم أوّل

جُفَاةٌ طَعَامٌ، وَعَبِيدُ أَقْرَامٍ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلَقَّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ  
يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدْرَبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤَخَذَ عَلَى يَدَيْهِ.  
لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ.

## الشرح والتفسير

### اتباع معاوية

خاض الإمام عليه السلام هنا كما ذكرنا في ذم أهل الشام وذكر صفاتهم التي تكشف عن  
مدى جهلهم وخبثهم فاستهل ذلك بخمس من صفاتهم قائلاً: «جُفَاةٌ طَعَامٌ<sup>١</sup>، وَعَبِيدُ  
أَقْرَامٍ<sup>٢</sup>، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ<sup>٤</sup>، وَتُلَقَّطُوا<sup>٥</sup> مِنْ كُلِّ شَوْبٍ<sup>٦</sup>».  
ثم أضاف عليه السلام: «مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدْرَبَ<sup>٧</sup>، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ،  
وَيُؤَخَذَ عَلَى يَدَيْهِ».  
واختتم عليه السلام قائلاً: «لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا<sup>٨</sup> الدَّارَ  
وَالْإِيمَانَ».

١. «جفأة» جمع «جاف» غليظ وفظ جاهل.

٢. «طعام» جمع «طعام» الأوغاد والأوباش والأشرار وترد أحياناً بمعنى المفرد.

٣. «أقزام» جمع «قزم» على وزن «خشن» الأفراد الأراذل.

٤. «أوب» الناحية.

٥. «تلقطوا» من مادة «تلقط» جمع الشيء من هنا وهناك.

٦. «شوب» خلط الشيء بآخر. ولها معنى اسمي؛ أي الأشياء المخلوطة والمراد في العبارة معناها الاسمي.

٧. «يدرب» من «التدريب» التمرين والتعويد لتعلم الشيء.

٨. «تبوؤا» من «التبؤا» السكن في مكان بقصد البقاء والدوام من مادة «بؤا» بمعنى تساوي أجزاء المكان.

وكما أشرنا سابقاً فإنّ هذا الكلام بعض كتاب كتبه الإمام عليه السلام ليطلع المسلمين على جميع الأحداث في عصره وما سبقه ليكون تعليمات تبث لجميع المناطق والتعريف بأهل الشام وأتباع معاوية الذين تمردوا على إمام المسلمين وأججوا نيران صفين وإيضاح سوء نيّتهم وكيفية اجتماعهم.

## تأمل

### جهل أهل الشام

ما أورده الإمام عليه السلام بشأن جهل وحمق عسكر معاوية (رغم كثرة الأفراد الداعين في أهل الشام) لمن القضايا التي تؤيدها سيرة معاوية ومن ذلك هاتان الواقعتان اللتان نقلهما المسعودي في «مروج الذهب».

الواقعة الأولى: إنّ رجلاً من أهل الكوفة على بعير له قدم إلى دمشق في حال منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت منّي بصفين، فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بيّنة يشهدون أنّها ناقته ففضى على الكوفيّ وأمره بتسليم البعير إليه.

فقال الكوفيّ: أصلحك الله إنّ جمل وليس بناقة.

فقال معاوية: هذا حكم قد قضي، ودسّ إلى الكوفيّ بعد تفرّقهم فأحضره وسأله عن ثمن البعير فدفع إليه ضعفه وبرّ وأحسن إليه وقال له: أبلغ عليّاً أنّي أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقة والجمل.

الواقعة الثانية: ولقد بلغ من أمرهم من طاعتهم له (لمعاوية) أنّه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال. (وقبل الناس وصلّوا الجمعة في يوم الأربعاء وهذا كان من جهل أهل الشام).<sup>١</sup>

كما ورد في الحديث أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لعمار: (تقتلك الفئة الباغية)، وقد

١. مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢ مطابق لما نقله المرحوم العلامة الأميني في الفدير، ج ١٠، ص ١٩٥.

شهد عمار صفين مع علي عليه السلام حتى قتل، فلما اجتمع بعض الصحابة عند قتل عمار، وأن معاوية هو وأصحابه هم الفئة الباغية الذين قتلوا عمّار، قال عمرو بن العاص: إن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته<sup>١</sup>.  
والعجيب أن البعض قبل هذا الرأي.

❦❦❦



## القسم الثاني

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِنَفْسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَاهَدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: «إِنَّهَا فِتْنَةٌ، فَقَطَّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشَيْمُوا سُيُوفَكُمْ». فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ، غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ. فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخَذُوا مَهَلَ الْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِي الْأَسْلَامِ. أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُعْزَى، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى؟

## الشرح والتفسير

### أفضل اختيار وأسوأه

خاض الإمام عليه السلام في القسم السابق في التعريف بأهل الشام الذين اجتمعوا حول معاوية ليصفهم بأنهم جهال وأوباش وأشرار، وقال هنا رغم جهلهم وانحطاطهم لكنهم تفوقوا عليكم في الجانب السياسي، فقد اختاروا للتحكيم من يضمن مصالحهم اللامشروعة (عمرو بن العاص) بينما اخترتم (أبو موسى الأشعري) من يتحرك ضد مصالحكم ومصالح المسلمين، فهلموا وتلافوا أخطاءكم: «أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِنَفْسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمْ لِنَفْسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ».

ثم خاض عليه السلام في التعريف بأبي موسى الأشعري وركز على آخر فتنه دون الإشارة إلى سوابقه السيئة فقال: «وَإِنَّمَا عَاهَدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ:



«إِنَّهَا فِتْنَةٌ»، فَقَطَّعُوا أَوْتَارَ كُمْ<sup>١</sup>، وَشِيمُوا<sup>٢</sup> سِيُوفَكُمْ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً: «فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ».

الطريف ما أورده المرحوم ابن ميثم في شرحه لنهج البلاغة عن سويد بن غفلة أنه قال: كنت مع أبي موسى الأشعري على شاطئ الفرات في خلافة عثمان فروى لي خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: سمعته يقول: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اخْتَلَفُوا فَلَمْ يَزَلِ الاختِلافُ بَيْنَهُمْ حَتَّى بَعَثُوا حَكَمِينَ ضَالِّينَ ضَلًّا وَأَضْلًا مَنْ اتَّبَعَهُمَا»، فقلت له: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما! قال: فخلع قميصه، وقال: أبرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصي هذا<sup>٣</sup>.

ويريد بذلك أنه لا يقبل التحكيم ويتبرأ منه، ولكنه قبل وحكم وأضل الناس مع عمرو ابن العاص، وبذلك صدق رسول الله صلى الله عليه وآله في كلامه هذا وما تتبأ به بإعجاز عن قوله (ضالين ضلاً وأضلاً من أتبعهما).

وعقب كل هذا التحليل الدقيق اقترح على صحبه اقتراحاً نافعاً، وقال: «فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهْلَ الْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِي<sup>٤</sup> الْإِسْلَامِ».

ثم اختتم عليه السلام كلامه بهدف خلق الدافع لديهم وإثارة حسهم الديني والإنساني فقال: «أَلَا تَرَوْنَ إِلَيَّ بِلَادِكُمْ تُغْزَى وَإِلَيَّ صَفَاتِكُمْ<sup>٥</sup> تُرْمَى؟».

١. «أوتار» جمع «وتر» على وزن «سفر» السهم الذي يجمع طرفاه كالقوس فإذا سحب تقوس أكثر فإن اطلق قذف إلى الأمام وقطع الأوتار هنا كناية عن عدم الاطلاق.

٢. «شيموا» من مادة «غيم» على وزن «عيب» سل السيف ووضع في الغمد.

٣. ذكر هذه الرواية أولاً ابن أبي الحديد في الجزء ١٣، ص ٢١٥ في شرح الخطبة، ثم ذكرها المرحوم ابن ميثم والعلامة التستري في شرحهما لهذه الخطبة.

٤. «قواصي» جمع «قاصية» الطرف والناحية و«قواصي الإسلام» إشارة إلى أطراف العراق والحجاز ومناطق أخرى تابعة لحكومة أمير المؤمنين علي عليه السلام.

٥. «صفاء» مفرد وتعني في الأصل الحجر الصلد وتستعمل كناية عن القوة وفسرت بأرض الحياة التي ينظمها الإنسان.

حقاً لم يكن أبو موسى الأشعري الأبله من يسعه مواجهة الماكر عمرو بن العاص وكان أفضل من يسعه مواجهته رجل قوي وواع كابن عباس، إلا أن مؤامرات معاوية وبعض الخونة من بطانة الإمام عليه السلام حالت دون ذلك.

كتب الكاتب الإسلامي المصري عبدالكريم الخطيب في كتابه «علي بن أبي طالب»: وكان الإمام قد أعد ابن عباس ليلقى عمرو بن العاص، ولكن أصحاب الإمام اختلفوا عليه، وكان الأشعث بن قيس (المنافق) رأس الجماعة التي نازعت في اختيار ابن عباس، والأشعث هو الذي مهّد التحكيم، وأكره هو وقومه علياً على قبوله.. ولا شك أن الصلة كانت قد توثقت بين معاوية والأشعث.

وهذا الذي سجله الخطيب يتفق تماماً مع ما نقلناه عن كتاب (علي وبنوه) لطفة حسين في شرح الخطبة ١٩، ج ١، ص ١٥٢: من أن الأشعث وابن العاص قد دبرا رفع المصاحف واختاروا الحكمين سلفاً<sup>١</sup>.

ثم ذكر المرحوم مغنية جانباً آخر من كلام عبدالكريم الخطيب في كتابه: «كان ابن العاص صاحب مصلحة في أي خير يصيبه معاوية من التحكيم، لأن الصك بملك مصر في يده.. وليس لابن عباس شيء أن خلصت الخلافة لعلي، وهل لأحد مع علي مطمع؟ إن كلّ الذين يعملون مع علي يعملون لله لا له، فليس لهم عنده يد يرجون المثوبة عليها ولا من الله، فماذا يخشى القوم من ابن عباس إذن؟ إنهم لا يخشون إلا أن يرفع ابن العاص عن كيد مارد لا يفطن إليه إلا رجل أوتي مثل ما أوتي ابن عباس من المعية وذكاء<sup>٢</sup>. نهاية معركة صفين عن طريق رفع المصاحف على أسنة الرماح على هامش هزيمة جيش معاوية ومن ثم قضية التحكيم، لمن أفجع حوادث التاريخ الإسلامي، وكانت معاناة الإمام عليه السلام ومصابه بذلك بما لا يمكن وصفه والذي حصل من قبل جماعة دنيوية بعيدة عن الإيمان والتقوى<sup>٣</sup>.

١. شرح نهج البلاغة للمرحوم مغنية، ج ٣، ص ٣٦٢.

٢. المصدر السابق.

٣. ورد المزيد بشأن الحكمين في ذيل الخطب ١٢٥، ١٢٧، ١٢٧.



## وَمِنْ خُطَبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يَذْكُرُ فِيهَا آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ

### نظرة إلى الخطبة

الخطبة في الواقع قسم واحد ومحورها فضائل أهل البيت عليهم السلام ومكانتهم الرفيعة في الأمة الإسلامية وإدراكهم الصحيح للدين وبالتالي ضرورة إتباعهم وعدم مخالفتهم.

ۛۛۛۛ

#### ١. سند الخطبة:

جاء في مصادر نهج البلاغة أن هذا الكلام جزء من الخطبة ١٤٥ (حسب ترقيمنا ١٤٧) التي تبدأ بالعبارة (فبعث الله محمداً ﷺ) حتى يقول: (فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل) وأوردها السيد الرضي منفصلة. ورواها الكليني في «الكافي» باختلاف طفيف في بعض الكلمات كما ذكرت في آخرها بعض العبارات في «محاضرات الأدباء» للراغب الاصفهاني. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٧٦ و ١٧٧).



هُم عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ جِلْمُهُمْ عَنِ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنِ  
بَاطِنِهِمْ، وَصَفَتُهُمْ عَنِ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ.  
وَهُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ، وَوَلَائِحُ الْأَعْتِصَامِ. بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ، وَانزَاحَ  
الْبَاطِلُ عَنِ مَقَامِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنِ مَنَابِتِهِ. عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَةَ  
وَرِعَايَةَ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةَ. فَإِنَّ رِوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرِعَايَتُهُ قَلِيلٌ.

## الشرح والتفسير

### آل محمد أركان الدين

ذكر عليه السلام في هذه الخطبة الموجزة اثنتي عشرة فضيلة لأهل البيت عليهم السلام تثبت عظم منزلتهم وتسوق مخاطبيه لاتباعهم. وهي الصفات التي تستوعب فضائل الإنسانية وتنطوي على مواصفات القيادة.

قال في الصفة الأولى والثانية: «هُم عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ»، فقد شبه عليه السلام العلم والجهل هنا بكائنين حيين وأن آل محمد يهبون العلم الحياة ويميتون الجهل وبعبارة أخرى هم روح العلم وعنصر موت الجهل.

وهذا هو الحديث المعروف الذي ورد عن النبي الأكرم عليه السلام أنه قال: «أَهْلُ بَيْتِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ»<sup>١</sup>.

كما ورد في رواية أخرى عن ابن عباس أن النبي الأكرم عليه السلام قال: «النُّجُومُ أَمَانٌ

١. ورد هذا الحديث في مصادر الفريقين فقد رواه الذهبي في ميزان الاعتدال، ج ١، ص ٨٢؛ ابن حجر في لسان الميزان، ج ١، ص ١٣٦.

لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْعَرَقِ وَأَهْلِ بَيْتِي أَمَانٌ لِأُمَّتِي مِنَ الْأَخْتِلَافِ فَإِذَا خَالَفَتْهَا قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ اخْتَلَفُوا فَصَارُوا حِزْبَ إِبْلِيسَ»<sup>١</sup>.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى فقال: «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكْمِ مَنْطِقِهِمْ».

تشير العبارة «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ» إلى علاقة وثيقة بين العلم والحلم، فالجاهل ليس حليماً وسرعان ما يغضب إزاء الأحداث المختلفة وما يطرح عليه من سؤال؛ أما العالم فحليم إزاء ذلك، وكذلك العلاقة بين الظاهر والباطن حيث إن حسن الظاهر في الغالب والسلوك والتصرف يدل على حسن الباطن، وهكذا علاقة الصمت الذي يكشفه المنطق الحكيم وقد دلت التجربة على أن من قلّ كلامه كان أكثر دقة وصواباً في الكلام كما ورد في الحديث الشريف قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ صَمُوتًا فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ»<sup>٢</sup>.

ثم قال في الصفة السادسة والسابعة: «لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ». ودليل ذلك واضح، فلهم من جانب مقام العصمة ومن جانب آخر الإحاطة التامة بأحكام الله والوحي والسنة، ومن كان كذلك فلا ينطلق خلاف الحق ولا يختلف فيه. جاء في الحديث النبوي المعروف: «عَلَيَّْ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَهُ وَعَلَى لِسَانِهِ وَالْحَقُّ يَدُورُ حَيْثُ مَا دَارَ عَلَيَّ».

وقرأ بتعبير آخر في نفس الحديث قَالَ ﷺ: «عَلَيَّْ مَعَ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ، وَالْحَقُّ وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلَيٍّ وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»<sup>٣</sup>.

ونعلم أن أئمة العصمة من ولد علي عليه السلام ورثة علمه، ومن هنا فإنهم لا يحدون

١. مستدرک الحاكم، ج ٣، ص ١٤٩.

٢. بحار الأنوار، ج ١، ص ١٥٤.

٣. روى المرحوم العلامة الأميني هذين الحديثين بعبارات متفاوتة لكنها قريبة المعنى من مختلف مصادر العامة مثل: مناقب الخوارزمي؛ فرائد السمطين للحموي؛ وربع الأبرار للزمخشري؛ والإمامة والسياسة لابن قتيبة. (الغدیر، ج ٣، ص ١٧٨ وما بعدها).

قط عن الحق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ وَفَضْلُ مَا بَيْنَكُمْ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ»<sup>١</sup>.

فكيف يمكنهم الاختلاف في الحق. فالاختلاف علامة الجهل، ومن كان عالماً بكل هذه الأمور يستحيل عليه الاختلاف.

ثم ذكر صفتهم الثامنة والتاسعة فقال: «وَهُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ، وَوَلَائِحُ<sup>٢</sup> الْإِغْتِصَامِ».

وهكذا فالدين كالخيمة وأوتادها آل محمد، وكما تنهار الخيمة إذا زالت الأوتاد، فإن نحينا آل محمد عن الإسلام وقرآناه دونهم، إنهارت فروعه وأصوله.

وواصل عليه السلام كلامه ببيان الصفات الثلاث الأخيرة فقال: «بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ<sup>٣</sup>، وَانْزَاحَ<sup>٤</sup> الْبَاطِلُ عَنْ مَقَامِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنِيَّتِهِ».

تشير هذه العبارة إلى الانحرافات التي حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاسيما على عهد الخليفة الثالث، فقد أصبح بيت مال المسلمين لعبة بيد فئة من المتكالبين على الدنيا ومن بني أمية - ومنهم عدو الإسلام الأول، أي أبو سفيان - تسلّموا المناصب الحساسة في الحكومة الإسلامية ففعلوا كل ما استطاعوا فعله وكانت نتيجة ذلك الثورة على الخليفة والتي أطاحت به وبيطانته<sup>٥</sup> بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار دون أن يدافعوا عنه.

١. الكافي، ج ١، ص ٦١، ح ٩.

٢. «ولائح» جمع «وليجة» من «الولوج» الدخول وتطلق على حامل أسرار الشخص أو جامعها ولكن ليس من أهله. ويقال وليجة لكل من يرد قوماً من الخارج ويحمل أسرارهم وهي قريبة المعنى من مفردة البطانة.

٣. «نصاب» الأصل وموضع الرجوع والمكان المناسب لكل شيء وأساسه وبدايته. ثم اطلق على المقدار في باب الزكاة وأمثال ذلك.

٤. «انزاح» من مادة «زوج» على وزن «زوج» تعني في الأصل الرحيل من المكان. ثم اطلق على كل شيء يزال عن مكانه.

٥. انظر: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٤٠ و ٤٤١.



ولكن حين تسلّم الإمام علي عليه السلام زمام الأمور عاد الحق إلى نصابه ونحي أتباع الباطل ولم يجرؤ أحد على الدفاع عن الوضع السابق ويصادر حقوق الطبقات المستضعفة والمحرومة ويفدقها على طلاب الدنيا وذوي الأطماع. ولا يقتصر هذا الأمر على أمير المؤمنين عليه السلام بل لو تسلّم أئمة أهل البيت عليهم السلام مقاليد الأمور لاتبعوا ذلك النهج بفضل عصمتهم التي يستدل عليها بعدة أدلة ومنها حديث الثقلين.

ثم اختتم الكلام بذكر صفتهم الأخيرة فقال عليه السلام: «عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلًا وَعَايَةَ<sup>١</sup> وَرِعَايَةَ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ. فَإِنَّ رُؤَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاةُ<sup>٢</sup> قَلِيلٌ».

قطعاً العلم بالدين له مراتب كالعلم بأيّ أمر آخر، المرحلة الأولى سماع ونقل الألفاظ والمرحلة الثانية فهم المعنى وإدراك المضمون والمرحلة الثالثة الإيمان واليقين العميق الذي ينفذ في جميع كيان الإنسان ويسوقه للعمل، وأهل البيت عليهم السلام في ذروة المرحلة الثالثة ومن هنا أوصى رسول الله ﷺ وأكد على الأمة بالتمسك بالقرآن وأهل البيت من بعده ليأمنوا الضلال والغي.



١. لم ترد هذه المفردة بهذه الصيغة في المصادر اللغوية وصحیحها «وعاء» ظرف الشيء ويبدو أن النسخة الأصلية كانت وعاء التي تلائم السماع في العبارة اللاحقة.

٢. «رعاة» جمع «راع» المراعي.

## وَمِنْ كَلَامِ أَبِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ؛ وَقَدْ جَاءَهُ بِرِسَالَةٍ مِنْ عُثْمَانَ، وَهُوَ مَحْضُورٌ يَسْأَلُهُ فِيهَا الْخُرُوجَ إِلَى مَالِهِ بَيْنْتِيعَ، لِيُقَلَّ هَتْفُ النَّاسِ بِاسْمِهِ خِلَافَةً، بَعْدَ أَنْ كَانَ سَأَلَهُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>٢</sup>

### نظرة إلى الخطبة

مضمون هذه الخطبة واضح. فلما حاصر المسلمون عثمان في بيته سنة ٣٥ هـ وطالبوا بعزله من الخلافة، هتفت الجماعة أن الخلافة حق علي بن أبي طالب، فرأى عثمان إبعاد علي عليه السلام عن المدينة لمصادرة ذلك الهتاف، لذلك اقترحه على الإمام عليه السلام هذا في الوقت الذي اقترحه سابقاً على الإمام عليه السلام ففعل. ثم كتب للإمام عليه السلام بالعودة والدفاع عنه. فلما عاد اقترح عليه التوجه إلى بينتِيع

١. «هتف» المناداة والصراخ والمراد هنا أن الأمة كانت تنادي بخلافة علي عليه السلام وقيل: «هتف» تعني الصوت الذي يسمع ولا يعرف قائله.

٢. سند الخطبة:

ذكر ابن عبد ربه بعض هذا الكلام في «العقد الفريد» وكتب أن علياً عليه السلام خرج من المدينة وذهب إلى بينتِيع (بينتِيع موضع قرب المدينة قرب البحر الأحمر الذي كان آنذاك بعضه لعلي وأوقفه) لكن عثمان كتب كتاباً آخر بعد مدة قصيرة وطلب منه الرجوع إلى المدينة (ويدافع عنه) ثم قال صاحب كتاب نهج البلاغة: ذكر ذلك أيضاً المبرد في «الكامل» وابن قتيبة في «الإمامة والسياسة». (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٨٩).

فقال عليه السلام هذا الكلام: ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جماً ناضحاً فأقدم إن كانت  
مصلحته في ذلك أو أخرج.

يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا بِالْغَرْبِ: أَقْبِلْ  
وَأَذْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أُخْرَجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ  
أُخْرَجَ! وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا.

## الشرح والتفسير

### خطأ آخر من أخطاء عثمان

قضية قيام المسلمين على عثمان، إحدى القصص المأساوية المؤسفة في صدر الإسلام. فكانت تلك الحركة طبيعية جداً خلافاً لما يظنه المتعصبون، فعثمان سلم جماعة من بني أمية وقرابته الذين لم يكونوا من الصالحين، مناصب حساسة في الدولة الإسلامية، ومن جانب آخر تصرف في بيت المال كما يتصرف في أمواله الشخصية، فيهب بطانته ما يشاء، في حين كان أغلب المسلمين يعيشون الحرمان. وقد عمّت أصداء هذين الفعلين المشينين كل مكان وأديا إلى تلك الانتفاضة العارمة على عثمان، وإن كان علم تلك الانتفاضة طائفة من المصريين وأهل الكوفة؛ إلا أن أهل المدينة تضامنوا معهم وصمت المهاجرون والأنصار ولم يهتّب للدفاع عنه سوى علي عليه السلام، فالإمام عليه السلام وإن كان من أشد الناقمين على أفعال عثمان، لكنه لا يرى في قتله مصلحة للأمة الإسلامية.

على كل حال، كتب عثمان عدة كتب متناقضة للإمام عليه السلام طلب منه أولاً الخروج من المدينة إلى ينبع، ثم طلب منه العودة، ثم كتب له أخيراً بالخروج من المدينة، وسبب ذلك التناقض أنه ظنّ بادي الأمر بأن بقاء الإمام عليه السلام في المدينة مدعاة

لتشجيع المسلمين على عزله ومبايعة الإمام عليه السلام للخلافة.

ثم خرج الإمام من المدينة، شعر عثمان أنه لا يسع أحد الدفاع عنه سوى علي عليه السلام وينقذه من أيدي الناقمين ولذلك طلب منه الرجوع إلى المدينة، وحين بلغه أن المسلمين هتفوا بالبيعة للإمام عليه السلام استولى عليه الخوف، فطلب من الإمام عليه السلام الخروج مرة أخرى من المدينة، ولما كان حامل الكتاب هذه المرة ابن عباس، خاطبه الإمام عليه السلام قائل: «يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا بِالغَرْبِ<sup>٢</sup>: أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ!».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ!».

وتشير هذه القضية إلى أن ضغوط المسلمين كانت على درجة من الشدة بحيث ارتبك عثمان وكان كل لحظة يتخذ قراراً وقد غفل فوات الأوان وقد انتهى عهد حكمه ولن يقبل المسلمون له عذراً فرأى نفسه مضطراً هنا للتعامل مع علي الذي لا تخفى مكانته عند الله ورسوله والمسلمين.

الطريف أن عثمان لم يصدر مثل هذه الأوامر المتناقضة مع أحد آخر، فلم يكن للآخرين مثل ذلك الدور في الوسط الإسلامي فكان حضورهم وغيابهم سيان في التأثير.

ثم أشار عليه السلام في الختام إلى قضية مهمة في أنه بذل أقصى جهده في الدفاع عن عثمان؛ الأمر الذي لم يفعله غيره ولا يسعه فعله فقال: «وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا».

لعل هذه العبارة إشارة إلى أن الدفاع أكثر من الحد عن ارتكاب تلك الأفعال نوع من دعم الظلم وهو عمل غير جائز، هذا أفضل تعبير يمكن ذكره للعبارة السابقة

١. «ناضح» الجمل الذي يحمل الماء من مادة «نضح» على وزن «نظم» رش الماء.

٢. «غرب» بمعنى الدلو العظيمة.

وإن ذكر ابن أبي الحديد وابن ميشم في شرحهما احتمالين آخرين؛ الأول قوله عليه السلام: (لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً)، لأن الوقوف بوجه أولئك الذين قاموا عليه ربّما يدعوهم للهجوم عليّ فينالون منّي وهذا ذنب، الآخر: أخشى أن يؤدي دفاعي إلى بثّ الفرقة والخلاف فيصاب البعض بالأذى وهذا ذنب أيضاً، ولكن من الواضح أن أيّاً من هذين الاحتمالين لا يناسب العبارة.

ورد في «العقد الفريد» أنّ ابن عباس قال: أرسل إليّ عثمان فقال لي: اكفني ابن عمّك، فقلت: إنّ ابن عمّي ليس بالرجل يرى له، ولكنّه يرى لنفسه، فأرسلني إليه بما أحببت، قال: قل له: فليخرج إلى ماله يينبع، فلا أغتمّ به ولا يغتمّ بي، فأتيته فأخبرته، فقال: ما اتّخذني عثمان إلّا ناضحاً، ثم أنشد:

فَكَيْفَ بِهِ أَنِّي أَدَاوِي جَرَا حَهُ      فَيُدْوِي فَلَا مَلَ الدَّوَاءِ وَلَا الدَّاءِ

إلى أن قال: فخرج علي عليه السلام إلى يينبع، فكتب إليه عثمان حين إشتدّ عليه الأمر، أمّا بعد، فقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطيبين، وطمع فيّ من كان يضعف عن نفسه، فأقبل إليّ، وكن لي أم عليّ صديقاً أم عدوّاً!

ويؤيد هذا الكلام ما ذكره السيد الرضي أنّ عثمان تناقض في أوامره حين أربكه قيام المسلمين الكبير عليه.



٢٤١

وَمِنْ كَلِمَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يُحْتَضِرُ بِهِ أَصْحَابَهُ عَلَى الْجِهَادِ

نظرة إلى الخطبة

هدف الإمام عليه السلام كما يتضح من الخطبة حتّى أصحابه على الجهاد، لكنه أورد أموراً دقيقة بعبارات موجزة تعكس عمق تدبيره للقضايا المتعلقة بالحكومة والجهاد.

٤٠٠٣

١. سند الخطبة:

ذكر الأمدى في «غرر الحكم» بعض عبارات الخطبة بكلمات قصيرة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٩٠).





وَاللَّهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُنْهَلِكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَّخْدُودٍ،  
لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ، فَشُدُّوا عُقْدَ الْمَآزِرِ، وَاطُّوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، وَلَا تَجْتَمِعْ  
عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعِزَائِمِ الْيَوْمِ، وَأَمْحَى الظُّلْمَ لِتَذَاكِيرِ الْهَمِّ!

## الشرح والتفسير

### شَمَرُوا وَاسْتَعَدُّوا لِلْجِهَادِ

صرّح صاحب «تمام نهج البلاغة» الذي ألف لجمع وإكمال الخطب التي جمعها  
المرحوم الرضي في «نهج البلاغة» أنّ الإمام عليه السلام خطبها يوم صفين<sup>١</sup> ومضمون  
الخطبة يناسب هذا المعنى.

على كلّ حال فقد وعظ الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات قصيرة لسماع رسالة  
الجهاد فقال: «وَاللَّهُ مُسْتَأْدِيكُمْ<sup>٢</sup> شُكْرَهُ وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُنْهَلِكُمْ<sup>٣</sup> فِي مِضْمَارٍ<sup>٤</sup>  
مَّخْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ<sup>٥</sup>».

ورغم أنّ الشكر ذكر بصورة مطلقة في هذه العبارة ومنسجمة مع إطلاقاته في  
القرآن الكريم مثل: «وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ»<sup>٦</sup> ولكن يبدو هدف الإمام عليه السلام بيان

١. تمام نهج البلاغة، ص ٤٦٥.

٢. «مستأدي» الطالب من مادة أداء طلب أداء الشيء.

٣. «منهل» معطي المهلة.

٤. «مضمار» الميدان الذي تضمّر فيه الخيل للسباق كما وردت بمعنى اسم الزمان.

٥. «سبق» المال الذي يقرر للفائزين بالسباق.

٦. سورة البقرة، الآية ١٥٢.

الشكر الحكومي الذي أودعه الله الصالحين في عصره عليه السلام ويؤكد ذلك العبارة الثانية «وَمُورُّتُكُمْ أَمْرَهُ».

فالأمر هنا بمعنى أمر الحكومة. ويتضح من هنا كيفية مناسبة الشكر للحث على الجهاد، لأنَّ الجهاد الخالص والباسل تحفظه حكومة الصالحين وحفظ النعمة والانتفاع بها مساوٍ لشكرها.

العبارة «وَمُنْهَلِكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَّخْدُودٍ...» إشارة لما ورد في سائر خطب نهج البلاغة أنه عليه السلام قال: «أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَدَاً السَّبَاقَ وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ»<sup>١</sup>.

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب ذي المقدمة والنتيجة فقال: «فَشُدُّوا عُقْدَةَ الْمَآزِرِ<sup>٢</sup>، وَاطْوُوا<sup>٤</sup> فُضُولَ الْخَوَاصِرِ<sup>٥</sup>».

فالعبارتان «فَشُدُّوا عُقْدَةَ الْمَآزِرِ، وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» كناية عن الاستعداد التام للقيام بالعمل، لأنَّ الشخص الذي يحكم محزومه يقوى عموده الفقري على الإتيان بالأعمال الشاقة، كما تسهل عليه الحركة والانتقال إن جمع ثوبه ووضع تحت حزامه والذي كان عريضاً آنذاك، حتى اليوم الذي غاب فيه الثوب الطويل عن الرجال ما زال القول المتداول أن فلاناً شمّر عن ثياب الهمة ليفعل كذا.

كما لم يستبعد بعض شراح نهج البلاغة أن المراد من العبارة «وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» ترك النهم في الطعام وترهل البدن، إلا أن التفسير الأول أنسب.

ثم حذر الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات عميقة المعنى وفصيحة وبليغة

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٨.

٢. «عقدة» جمع «عقدة» ما تربط به الأشياء.

٣. «مآزر» جمع «منزر» على وزن منبر الثياب الداخلية.

٤. «اطووا» من مادة «طي» معروف.

٥. «خواصر» جمع «خاصرة» الضلع.

وأوضح لهم سبيل الانتصار فقال ﷺ بادي الأمر: «وَلَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ<sup>١</sup>».

وقال ﷺ: «مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ».

وقال ﷺ: «وَأَمْحَى الظُّلْمَ<sup>٢</sup> لِتَذَاكِيرِ<sup>٣</sup> الْهَمِّ!».

حيث أشار ﷺ في هذه العبارة الموجزة والعظيمة المضمون إلى بضعة أمور مهمة للموقفية في الحياة والإدارة منها:

١. التحلي بالاستعداد على الدوام ومهما كانت الظروف أو حسب تعبير الإمام شدوا المآزر....

٢. مقاطعة الترف والدعة التي لا تؤدي سوى إلى الضعف والكسل.

٣. مواجهة دواعي النسيان التي تجعل الإنسان ضعيفاً وذليلاً ومسلوب المنهج.

٤. الارتقاء بمستوى الهمة ومكافحة كل ما يضعفها ويهبطها.

فإن راعي مدراء المجتمعات الإسلامية هذه الوصايا الأربع سيتغلبون قطعاً على جميع المشاكل.

## تأمل

### آفات النهم والترف

ما ورد في الخطبة بهذا الشأن مما ذكر مسهب في الروايات. عن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُمِيتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تَمُوتُ كَالزُّرُوعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهَا الْمَاءُ»<sup>٤</sup>.

كما قال ﷺ: «الْقَلْبُ يَمُجُّ الْحِكْمَةَ عِنْدَ امْتِلَاءِ الْبَطْنِ»<sup>٥</sup>.

١. «وليمة» الطعام الذي يعد في العرس. ثم اطلقت على كل طعام يعد في الدعوة للضيافة وهي هنا كناية عن الترف.

٢. «ظلم» جمع «ظلمة» العتمة.

٣. «تذاكير» جمع «تذكار» على وزن «منقار» التذكير.

٤. بحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٣٣١، ح ٧.

٥. مجموعة ورام، ج ٢، ص ١١٩.

وقال عليه السلام: «مَنْ قَلَّ أَكْلُهُ صَفَا فِكْرُهُ»<sup>١</sup>.

وأخيراً قال في الحديث الرابع: «إِيَّاكُمْ وَقُضُولَ الْمَطْعَمِ فَإِنَّهُ يَسِمُ الْقَلْبَ بِالْقَسْوَةِ وَيُتِيطِيءُ بِالْجَوَارِحِ لِلطَّاعَةِ وَيُصِمُّ الْهِمَمَ عَنِ سَمَاعِ الْمَوْعِظَةِ»<sup>٢</sup>.

وجاء في رسالة أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى عثمان بن حنيف حين قيل له: كيف تقوى على الأعداء وهذا طعامك؟ فقال: «أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضْلَبُ عُرُوداً وَالرَّوَاتِعُ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُوداً وَالنَّبَاتَاتِ الْغَدِيَّةَ أَقْوَى وَقُوداً»<sup>٣</sup>.

وتعبير الإمام بالوليمة لا تقتصر على الطعام والشراب وهي كناية عن مطلق اللذة والمتعة، أنشد المتنبي بهذا الخصوص:

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْعَالِي      وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَى سَهَرَ اللَّيَالِي  
تَرْوُمُ الْعِزِّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا      يَغُوصُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّئَالِي

وسيرة مختلف الأقسام تؤيد ما ورد في هذه الروايات والخطبة المذكورة، فالأقسام المثابرة والمجتهدة بلغت ذروة الاقتدار في العالم؛ أمّا تلك الكسلة والمتقاعسة كانت متخلفة وفاشلة.

❦❦❦

وأخيراً حيث اختتمت الخطب بهذه الخطبة فقد قال الرضي: وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ وَعَلَى آلِهِ مَصَابِيحِ الدُّجَى وَالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

ونحمد الله الذي وفقنا بعد أربع عشرة سنة من عمل دؤوب باختتام شرح خطب نهج البلاغة التي تعتبر أهم أجزاء نهج البلاغة بما يقارب ثلثيه.

❦❦❦

١. غرر الحكم، ج ٢، ص ٧٤٠.

٢. بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٢٧، ج ٤٠.

٣. نهج البلاغة، الرسالة ٤٥.

## خصائص هذا الشرح

١. شرح وتفسير جميع فصول وفقرات كل خطبة خلافاً لما ورد في أغلب الشروح التي تقتصر على الأقسام المطلوبة.
٢. إرتباط عبارات وأقسام الخطبة وصلتها الوثيقة والمنطقية مع بعضها والتي أغمض عنها في أغلب الشروح، ففتروا كل قسم بصورة مستقلة دون الالتفات لارتباطها بما قبلها وبعدها.
٣. التركيز على الروح الحاكمة لجميع الخطبة وجميع الأبحاث في إطارها وغيض النظر عن المطالب الهامشية غير المرتبطة بالخطبة وإن كان يشير الوسواس.
٤. إرساء التأسيس للأصل في تفسير العبارات؛ أي، استفادة مفهوم مستقل لكل عبارة خلافاً لما يشاهد في بعض الشروح، حيث يعتبرون العبارات المتشابهة تأكيداً وينحون اختلافاتها.
٥. إضافة مواضيع تكميلية مرتبطة بالخطبة بصورة منفصلة تحت عنوان (تأملات) بما فيها المسائل التاريخية والأخلاقية والاجتماعية والعقائدية و... .
٦. ذكر اسناد الخطبة بالاستفادة من المصادر التي بحثت اسناد نهج البلاغة.
٧. ذكر جوّ وخلاصة كل خطبة في مستهلّ البحث تحت عنوان (نظرة إلى الخطبة).
٨. ذكر معاني المفردات الصعبة في الحاشية بالاضافة إلى جذورها ومعانيها الأصلية والفرعية.

٩. تناول الشرح بصورة مبسطة بما يخدم عامة الناس دون الهبوط بمستوى المواضيع.
١٠. الالتفات إلى المطالب المهمة التي وردت في الشرح من خلال قبولها أو نقدها أو إكمالها.
١١. والغاية الأساسية من هذا الشرح، هي أن يكون قابلاً للاستفادة للجميع للخاص والعام والعالم والعامي، وكل يستفيد منه بحسب طاقته وقدرته العلمية وفهم وإداركه.

## فهرس

٥	الخطبة ٢٠١.....
٥	نظرة إلى الخطبة.....
٧	الشرح والتفسير: سبيل النجاة.....



١٣	الخطبة ٢٠٢.....
١٣	نظرة إلى الخطبة.....
١٥	الشرح والتفسير: لوعة علي <small>عليه السلام</small> عند قبر الزهراء <small>عليها السلام</small> .....
٢١	تأملات.....
٢١	١. فاطمة الزهراء <small>عليها السلام</small> على لسان رسول الله <small>صلى الله عليه وسلم</small> .....
٢٢	٢. حرمة بيت الزهراء <small>عليها السلام</small> في القرآن والسنة.....
٢٢	٣. انتهاك حرمة بيت الزهراء <small>عليها السلام</small> .....
٣٠	٤. القبر الطاهر لفاطمة الزهراء <small>عليها السلام</small> .....
٣١	٥. زمان شهادة بضعة النبي.....



٣٣	الخطبة ٢٠٣.....
٣٣	نظرة إلى الخطبة.....
٣٥	الشرح والتفسير: الدنيا ممر.....
٣٩	تأمل: الإكثار من هذه العبارة.....



٤١	الخطبة ٢٠٤
٤١	نظرة إلى الخطبة
٤٣	الشرح والتفسير: الابتعاد عن طلاب الدنيا



٤٩	الخطبة ٢٠٥
٤٩	نظرة إلى الخطبة
٥١	القسم الأول
٥١	الشرح والتفسير: حجج طلحة والزبير
٥٥	القسم الثاني
٥٥	الشرح والتفسير: حكم الله
٥٧	تأملات
٥٧	١. علة التسوية في العطاء
٦٤	٢. مكانة المشورة
٦٥	٣. طلحة وحلم الخلافة



٦٧	الخطبة ٢٠٦
٦٧	نظرة إلى الخطبة
٦٩	الشرح والتفسير: الدعاء بدل السب!
٧١	تأمل: السب واللعن



٧٣	الخطبة ٢٠٧
٧٣	نظرة إلى الخطبة
٧٥	الشرح والتفسير: حفظ نسل النبي ﷺ
٧٦	تأمل: شبهات وردود

٧٩	الخطبة ٢٠٨
٧٩	نظرة إلى الخطبة
٨١	الشرح والتفسير: رفاق السلاح الجهال
٨٢	تأمل: التضحية بالفرصة الكبرى



٨٥	الخطبة ٢٠٩
٨٥	نظرة إلى الخطبة
٨٧	القسم الأول
٨٧	الشرح والتفسير: الدار الواسعة
٨٨	تأمل: الدار الواسعة في الروايات
٩١	القسم الثاني
٩١	الشرح والتفسير: ذم الهروب من الدنيا
٩٣	تأملات
٩٣	١. ذم عموم الافراط والتفريط
٩٤	٢. التصوف ونتائجه
٩٨	٣. الانتفاع بالطيبات



١٠١	الخطبة ٢١٠
١٠١	نظرة إلى الخطبة
١٠٣	القسم الأول
١٠٣	الشرح والتفسير: نقد الروايات
١٠٧	القسم الثاني
١٠٧	الشرح والتفسير: وضع المناقين للحديث
١١٠	تأملات

- ١١٠ ..... ١. المنافقون على عهد النبي ﷺ
- ١١٠ ..... ٢. المنافقون بعد النبي ﷺ
- ١١٢ ..... ٣. عدالة الصحابة
- ١١٥ ..... القسم الثالث
- ١١٥ ..... الشرح والتفسير: أحاديث الناسخ والمنسوخ
- ١١٨ ..... تأمل: النسخ في أحكام الشرع
- ١٢١ ..... القسم الرابع
- ١٢١ ..... الشرح والتفسير: حفظة الحديث



- ١٢٥ ..... الخطبة ٢١١
- ١٢٥ ..... نظرة إلى الخطبة
- ١٢٧ ..... القسم الأول
- ١٢٧ ..... الشرح والتفسير: بداية خلق الكون
- ١٣١ ..... القسم الثاني
- ١٣١ ..... الشرح والتفسير: خلق الجبال



- ١٣٥ ..... الخطبة ٢١٢
- ١٣٥ ..... نظرة إلى الخطبة
- ١٣٧ ..... الشرح والتفسير: جزاء المتخلفين



- ١٤١ ..... الخطبة ٢١٣
- ١٤١ ..... نظرة إلى الخطبة
- ١٤٣ ..... الشرح والتفسير: قبسات من صفات الله ورسوله



١٤٩	الخطبة ٢١٤
١٤٩	نظرة إلى الخطبة
١٥١	القسم الأول
١٥١	الشرح والتفسير: النسب الطاهر للنبي ﷺ
١٥٥	القسم الثاني
١٥٥	الشرح والتفسير: حفظة علم الله
١٥٩	القسم الثالث
١٥٩	الشرح والتفسير: المهتدون
١٦٠	تأمل: الحاجة إلى المرشد في السير والسلوك



١٦٥	الخطبة ٢١٥
١٦٥	نظرة إلى الخطبة
١٦٧	القسم الأول
١٦٧	الشرح والتفسير: اللهم كل شيء لك
١٧١	القسم الثاني
١٧١	الشرح والتفسير: نعم المكملة



١٧٥	الخطبة ٢١٦
١٧٥	نظرة إلى الخطبة
١٧٧	القسم الأول
١٧٧	الشرح والتفسير: سعة حجم الحقوق
١٨٠	تأمل: الثواب استحقاق أم تفضل؟
١٨٣	القسم الثاني
١٨٣	الشرح والتفسير: حق الوالي والرعية

١٨٩	القسم الثالث
١٨٩	الشرح والتفسير: ضرورة التعاون في أداء الحقوق
١٩٣	تأمل: الحكومات الشعبية
١٩٥	القسم الرابع
١٩٥	الشرح والتفسير: الشكر على الواجب
١٩٨	تأملان
١٩٨	١. المدح والثناء
١٩٩	٢. السنة التملق
٢٠١	القسم الخامس
٢٠١	الشرح والتفسير: لا تتملقوا أمامي



٢٠٥	الخطبة ٢١٧
٢٠٥	نظرة إلى الخطبة
٢٠٧	الشرح والتفسير: تحمل الصعاب



٢١١	الخطبة ٢١٨
٢١١	نظرة إلى الخطبة
٢١٣	الشرح والتفسير: جنایات أصحاب الجمل في البصرة



٢١٥	الخطبة ٢١٩
٢١٥	نظرة إلى الخطبة
٢١٧	الشرح والتفسير: المشهد المروع بعد الجمل
٢١٩	تأملان
٢١٩	١. حبّ دنيا وعواقبه المشؤمة
٢٢٠	٢. الكفاءة الشرط الاوّل لكل عمل

٢٢٣	الخطبة ٢٢٠
٢٢٣	نظرة إلى الخطبة
٢٢٥	الشرح والتفسير: سالك طريق الحق
٢٢٧	تأمل: مقامات السير والسلوك



٢٣١	الخطبة ٢٢١
٢٣١	نظرة إلى الخطبة
٢٣٢	القسم الأول
٢٣٢	الشرح والتفسير: التفاخر الفارغ بدل الاعتبار!
٢٣٩	القسم الثاني
٢٣٩	الشرح والتفسير: العالم العجيب بعد الموت
٢٤٥	القسم الثالث
٢٤٥	الشرح والتفسير: أحوال الأموات!
٢٤٩	القسم الرابع
٢٥٠	الشرح والتفسير: عقبات الموت لا تستوعب في الالفاظ
٢٥٤	تأمل: ممز يرده الجميع



٢٥٧	الخطبة ٢٢٢
٢٥٧	نظرة إلى الخطبة
٢٥٩	القسم الأول
٢٥٩	الشرح والتفسير: أدلة الساترين على الطريق
٢٦٢	تأملان
٢٦٢	١. ما المراد من أيام الله؟
٢٦٣	٢. الإلهامات الغيبية

٢٦٥	القسم الثاني
٢٦٥	الشرح والتفسير: أولياء الله وأهل الذكر
٢٦٩	القسم الثالث
٢٦٩	الشرح والتفسير: مصير السائرين على الصراط
٢٧٢	تأمل: ذكر الله والذاكرون



٢٧٥	الخطبة ٢٢٣
٢٧٥	نظرة إلى الخطبة
٢٧٧	القسم الأول
٢٧٧	الشرح والتفسير: الرحمة بالنفوس؟
٢٨١	القسم الثاني
٢٨١	الشرح والتفسير: رحمة الله ومعصية العبد؟!
٢٨٥	القسم الثالث
٢٨٥	الشرح والتفسير: الدنيا أعظم واعظ
٢٨٧	تأمل: الدنيا الممدوحة والمذمومة
٢٨٩	القسم الرابع
٢٨٩	الشرح والتفسير: الاستعداد لسفر الآخرة



٢٩٣	الخطبة ٢٢٤
٢٩٣	نظرة إلى الخطبة
٢٩٥	القسم الأول
٢٩٥	الشرح والتفسير: إرتكاب الظلم
٢٩٩	القسم الثاني
٢٩٩	الشرح والتفسير: قصة الحديدية المحمّاة

- تأملان..... ٣٠٢
١. نظرة إلى شخصية عقيل..... ٣٠٢
٢. التسوية بين المسلمين في بيت المال..... ٣٠٣
- القسم الثالث..... ٣٠٥
- الشرح والتفسير: قصة المنافق الأشعث بن قيس..... ٣٠٥
- تأمل: من هو الأشعث بن قيس؟..... ٣١٠



- الخطبة ٢٢٥..... ٣١١
- نظرة إلى الخطبة (الدعاء)..... ٣١١
- الشرح والتفسير: الغنى عن شرار الخلق!..... ٣١٢
- تأمل: الآثار السيئة للفقير..... ٣١٤



- الخطبة ٢٢٦..... ٣١٩
- نظرة إلى الخطبة..... ٣١٩
- القسم الأول..... ٣٢١
- الشرح والتفسير: تقلب احوال الدنيا..... ٣٢١
- تأمل: دار محفوفة بالبلاء..... ٣٢٣
- القسم الثاني..... ٣٢٥
- الشرح والتفسير: جيران متباعدون..... ٣٢٥
- تأمل: عاقبة الإنسان بعد الموت..... ٣٢٨
- القسم الثالث..... ٣٣١
- الشرح والتفسير: المصير المحتوم..... ٣٣١





٣٣٣	الخطبة ٢٢٧
٣٣٣	نظرة إلى الخطبة (الدعاء)
٣٣٥	القسم الأول
٣٣٥	الشرح والتفسير: أنس العباد
٣٣٧	القسم الثاني
٣٣٧	الشرح والتفسير: الله كهف الوري
٣٣٨	تأمل: أدعية المعصومين <small>عليهم السلام</small> المهذبة



٣٤١	الخطبة ٢٢٨
٣٤١	نظرة إلى الخطبة
٣٤٢	الشرح والتفسير: مالك الأشر



٣٤٧	الخطبة ٢٢٩
٣٤٧	نظرة إلى الخطبة
٣٤٩	الشرح والتفسير: الإندفاع العجيب لبيعة الإمام <small>عليه السلام</small>
٣٥١	تأمل: البيعة الفريدة المطلقة



٣٥٢	الخطبة ٢٣٠
٣٥٢	نظرة إلى الخطبة
٣٥٥	القسم الأول
٣٥٥	الشرح والتفسير: سر السعادة والفلاح
٣٥٧	القسم الثاني
٣٥٧	الشرح والتفسير: المعبر الذي لا مفر منه
٣٦٢	القسم الثالث

الشرح والتفسير: الدنيا الغرارة! ..... ٣٦٣

القسم الرابع ..... ٣٦٩

الشرح والتفسير: الزهاد الحقيقيون ..... ٣٦٩



الخطبة ٢٣١ ..... ٣٧١

نظرة إلى الخطبة ..... ٣٧١

الشرح والتفسير: النبي ﷺ حصد العدا من الصدور ..... ٣٧٣



الخطبة ٢٣٢ ..... ٣٧٥

نظرة إلى الخطبة ..... ٣٧٥

الشرح والتفسير: غنائم المقاتلين ..... ٣٧٧



الخطبة ٢٣٣ ..... ٣٧٩

نظرة إلى الخطبة ..... ٣٧٩

القسم الأول ..... ٣٨١

الشرح والتفسير: نحن أمراء الكلام ..... ٣٨١

تأملان ..... ٣٨٣

١. عجائب اللسان ..... ٣٨٣

٢. أمراء الكلام ..... ٣٨٤

القسم الثاني ..... ٣٨٧

الشرح والتفسير: خصائص البيئة الملوثة ..... ٣٨٧



الخطبة ٢٣٤ ..... ٣٩١

نظرة إلى الخطبة ..... ٣٩١

- الشرح والتفسير: أساس الاختلاف ..... ٣٩٣
- تأملان ..... ٣٩٧
١. صلة الروح بالجسم ..... ٣٩٧
٢. الاختيار وصلة الروح بالجسد ..... ٣٩٨



- الخطبة ٢٣٥ ..... ٣٩٩
- نظرة إلى الخطبة ..... ٣٩٩
- الشرح والتفسير: عظم مصيبة رحيل النبي ﷺ ..... ٤٠١
- تأملان ..... ٤٠٤
١. البكاء على الأعمدة ..... ٤٠٤
٢. تجهيز النبي ﷺ ..... ٤٠٥



- الخطبة ٢٣٦ ..... ٤٠٧
- نظرة إلى الخطبة ..... ٤٠٧
- الشرح والتفسير: ذكر الحبيب ..... ٤٠٩
- تأمل: قصة الهجرة ..... ٤١٠



- الخطبة ٢٣٧ ..... ٤١٣
- نظرة إلى الخطبة ..... ٤١٣
- القسم الأول ..... ٤١٥
- الشرح والتفسير: اغتنام الفرصة ..... ٤١٥
- القسم الثاني ..... ٤١٧
- الشرح والتفسير: كيفية اغتنام الفرصة ..... ٤١٧



٤٢١	الخطبة ٢٣٨
٤٢١	نظرة إلى الخطبة
٤٢٣	القسم أول
٤٢٣	الشرح والتفسير: أتباع معاوية
٤٢٤	تأمل: جهل أهل الشام
٤٢٧	القسم الثاني
٤٢٧	الشرح والتفسير: أفضل اختيار وأسوأه



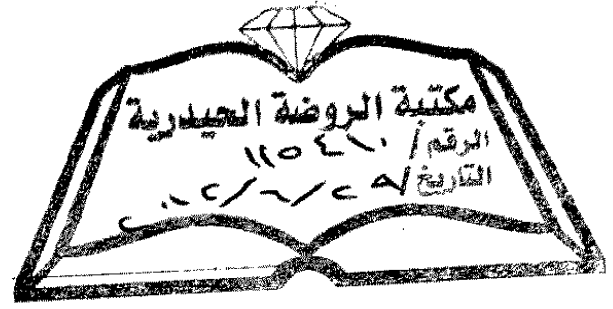
٤٣١	الخطبة ٢٣٩
٤٣١	نظرة إلى الخطبة
٤٣٣	الشرح والتفسير: آل محمد أركان الدين



٤٣٧	الخطبة ٢٤٠
٤٣٧	نظرة إلى الخطبة
٤٣٩	الشرح والتفسير: خطأ آخر من أخطاء عثمان



٤٤٣	الخطبة ٢٤١
٤٤٣	نظرة إلى الخطبة
٤٤٥	الشرح والتفسير: شمرّوا واستعدوا للجهاد
٤٤٧	تأمل: آفات النهم والترف
٤٤٩	خصائص هذا الشرح
٤٥١	فهرس









دار مجاهدات  
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور

00961 3 13 73 73

00961 70 69 29 12

00961 70 70 45 67